هو العزيز

معرفة الإمام (٨)

بحوثٌ تفسيريّةٌ ، فلسفيّةٌ ، روآئيّةٌ ، تاريخيّةٌ ، اجتماعيّةٌ
حَوْلَ الإمامةِ و الولايَةِ عُمُوماً؛

و حَوْلَ إمامةِ و ولايةِ أميرالمؤمنين علىّ بن أبيطالبٍ و الأَئِمّةِ المعصومينَ سلامُ الله عليهم أجمعين خصوصاً

دُروسٌ إستِدلاليّةٌ و علميّةٌ مُتّخَذَةٌ من القرءانِ الكريم و رواياتٌ مأْثورةٌ عن الخاصّةِ و العامّةِ ؛ و أَبحاثٌ حلّيّةٌ و نَقدِيّةٌ حَوْلَ الوِلايَةِ

لمؤلّفه الحقير:

السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ عُفِيَ‌عنه

في تفسير الآية : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ... ١

في تفسير الآية : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ... ٢

التقديم بين يدي الله هو التخلّف نفسه ١

التقديم بين يدي الله هو التخلّف نفسه ٢

التقديم بين يدي الله هو التخلّف نفسه ٣

أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ميزان الأعمال الصالحة والسيّئة

في المدينة الفاضلة ، ينبغي أن يسعى الجميع من أجل رئاسة أمير المؤمنين ١

في المدينة الفاضلة ، ينبغي أن يسعى الجميع من أجل رئاسة أمير المؤمنين ٢

الدرس السادس بعد المائة إلى التاسع بعد المائة: في تفسير الآية : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ...

بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ
وصلّى الله على محمّد وآله الطّاهرين
ولعنة اللّه على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين ولا حول ولا قوّة إلّا باللّه العليّ العظيم

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :
الْيومَ يَئِسَ الّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِيناً .(١)

قال ابن شهرآشوب : روى أبو حاتم الرازيّ أنّ [الإمام] جعفر بن محمّد [عليهما السلام] قرأ : فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ، قال : فَإِذَا فَرَغْتَ مِنْ إِكْمَالِ الشّرِيعَةِ فَانْصِبْ لَهُمْ عَلِيّاً إِمَاماً .

الحَمْدُ لِلّهِ الّذِي كَوّنَ الأَشْيَاءَ فَخَصّ مِنْ بَيْنِهَا تَكْوِينَكُمْ . الرّحْمَنِ الّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ السّكِينَةَ فَضَمّنَ فِيهَا تَسْكِينَكُمْ . لَيّنَ قُلُوبَكُمْ بِقَبُولِ مَعْرِفَتِهِ فَأَلْطَفَ تَلْيِينَكُمْ . وَلَقّنَكُمْ كَلِمَةَ تَوْحِيدِهِ فَأَحْسَنَ تَلْقِينَكُمْ . وَعَلّمَ أَذَانَ الشّهَادَةِ فَأَذّنَ بِلُطْفِهِ تَأْذِينَكُمْ . وَمَلّكَكُمْ فِي دَارِ الدّينِ عَلَى سِرّ (سَرِيرِ ــ ظ) الإِسْلَامِ فَأَتَمّ دِينَكُمْ !

أبو سعيد الخدريّ وجابر الأنصاريّ قالا : لمّا نزلت الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، قال النبيّصلّى الله عليه وآله وسلّم : اللّهُ أَكْبَرُ عَلَى إِكْمَالِ الدّينِ وَإِتْمَامِ النّعْمَةِ وَرِضَى الرّبّ بِرِسَالَتِي وَوَلَايَةِ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ بَعْدِي .

وروى النطنزيّ هذا الحديث في «الخصائص» .

[وروى] العيّاشيّ : عن [الإمام] الصادق عليه السلام [في تفسير هذه الآية أنّه قال] : الْيومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ بِإِقَامَةِ حَافِظِهِ ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي بِوِلَايَتِنَا ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِيناً ، أَي تَسْلِيمَ النّفْسِ لِأَمْرِنَا .

[ونقل عن الإمامين] : الباقر ، والصادق عليهما السلام : نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ يَومَ الغَدِيرِ . وَقَالَ يَهُودِيّ لِعُمَرَ : لَوْ كَانَ هَذَا اليَومُ فِينَا لَاتّخَذْنَاهُ عِيداً . فَقَالَ ابْنُ عَبّاسٍ : وَأَيّ يَومٍ أَكْمَلُ مِنْ هَذَا العِيدِ ؟

[فقال] ابن عبّاس : إنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله توفّي بعد هذه الآية بإحدى وثمانين يوماً .(٢)

[وقال] السّدّيّ : لم ينزل الله بعد هذه الآية حلالاً ولا حراماً ؛ وحجّ رسول الله صلّى الله عليه وآله في ذي الحجّة ومحرّم وقبض .

وروي أنّه لمّا نزل : إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ ، أمر الله [نبيّه] أن ينادي بولاية عليّ [بن أبي طالب] . فضاق النبيّ بذلك ذرعاً لمعرفته بفساد قلوبهم . فأنزل [الله هذه الآية] : يَآ أَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ . ثمّ أنزل [هذه الآية] : نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ . ثمّ نزل [هذه الآية] : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى . وفي هذه الآية خمس بشارات : إكمال الدين ، وإتمام النعمة ، ورضى الرحمن ، وإهانة الشيطان ، ويأس الجاحدين . قوله تعالى : يَئِسَ الّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ .

وعيد المؤمنين [كما] في الخبر : الغدير عيد الله الأكبر .

[قال] العَوديّ :

أَمَا قَالَ إِنّ اليَومَ أَكْمَلْتُ دِينَكُمْ
وَأَتْمَمْتُ بِالنّعْمَاءِ مِنّي عَلَيْكُمُ ؟
وَقَالَ : أَطِيعُوا اللّهَ ثُمّ رَسُولَهُ
تَفُوزُوا وَلَا تَعْصَوا أُولِي الْأَمْرِ مِنكُمُ ؟ [وقال] الطاهر :
عَيّدَ فِي عِيدِ الغَدِيرِ المُسْلِمُ
وَأَنْكَرَ العِيدَ عَلَيهِ المُجْرِمُ
يَا جَاحِدِي المَوضِعِ وَاليَومِ وَمَا
فَاهَ بِهِ المُخْتَارُ تَبّاً لَكُمُ
فَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى جَدّهُ
الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمُ
الْيَومَ أَتْمَمْتُ عَلَيكُمْ نِعْمَتِي
وَإِنّ مِنْ نَصْبِ الإِمَامِ المُنْعَمُ

[وقال] الحميريّ :

بَعْدَمَا قَامَ خَطِيباً مُعْلِناً
يَومَ خُمّ بِاجْتِمَاعِ المَحْفِلِ
قَالَ : إِنّ اللّهَ قَدْ أَخْبَرَنِي
فِي مَعَارِيضِ الكِتَابِ المُنْزَلِ
إِنّهُ أَكْمَلَ دِيناً قَيّماً
بِعَلِيّ بَعْدَ أَنْ لَمْ يُكْمَلِ
وَهْوَ مَولَاكُمْ فَوَيْلٌ لِلّذِي
يَتَوَلّى غَيْرَ مَولَاهُ الوَلِي

وَهْوَ سَيْفِي وَلِسَانِي وَيَدِي

وَنَصِيرِي أَبَدَاً لَمْ يَزَلِ

وَوَصِيِّي وَصَفِيِّي وَالّذِي

حُبّهُ فِي الحَشْرِ خَيْرُ العَمَلِ

نُورُهُ نُورِي ، وَنُورِي نُورُهُ

وَهْوَ بِي مُتّصِلٌ لَمْ يَفْصِلِ

وَهْوَ فِيكُمْ فِي مَقَامِي بَدَلٌ

وَيْلٌ لِمَنْ بَدّلَ عَهْدَ البَدَلِ

[وقال] قائل :

أَيّ عُذْرٍ لأُنَاسٍ سَمِعُوا

مِنْ رَسُولِ اللّهِ مَا قَالَ بِخُم

قَالَ : قَالَ اللّهُ فِي تَنْزِلِهِ :

إنّ دِينَ اللّهِ فِي ذِي اليَومِ تَم (٣)

وروى الحاكم الحسكانيّ بسنده عن أبي هارون العَبْديّ ، عن أبي سعيد الخدريّ ، قال : لمّا نزلت هذه الآية : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ [على رسول الله] ، قال : اللّهُ أَكْبَرُ [عَلَى] إكْمَالِ الدّينِ وَإِتْمَامِ النّعْمَةِ وَرِضَى الرّبّ بِرِسَالَتِي وَوَلَايَةِ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ مَنْ بَعْدِي . ثُمّ قَالَ : مَنْ كُنْتُ مَولَاهُ فَعَلِيّ مَولَاهُ . اللّهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ . (٤)

وروى بسند آخر عن أبي هارون العبديّ ، عن أبي سعيد الخُدريّ ، قال :

إنّ النّبيّ صَلّى اللّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ دَعَا النّاسَ إِلَى عَلِيّ فَأَخَذَ بِضَبْعَيْهِ فَرَفَعَهُمَا ، ثُمّ لَمْ يَتَفَرّقَا حَتّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي . فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : اللّهُ أُكْبَرُ عَلَى إكْمَالِ الدّينِ وَ[إِ]تْمَامِ النّعْمَةِ وَرِضَى الرّبّ بِرِسَالَتِي وَالوَلَايَةِ لِعَلِيّ . ثُمّ قَالَ لِلْقَومِ : مَنْ كُنْتُ مَولَاهُ فَعَلِيّ مَولَاهُ . [وَ]الحَدِيثُ اخْتَصَرْتُهُ . (٥)

وروى الحَمّوئيّ هذا المضمون نفسه بسنده عن أبي هارون العَبْديّ ، عن أبي سعيد الخُدريّ . (٦) ورواه بسند آخر عن أبي هارون العبديّ ، عن أبي سعيد الخُدريّ بنحو مفصّل مع خمسة أبيات من قصيدة حسّان بن ثابت . (٧)

ورواه ابن عساكر بسنده بهذا المضمون . (٨)

وروى السيوطيّ في «الدرّ المنثور» عن ابن عساكر ، وابن مردويه ، وكلاهما عن أبي سعيد الخُدريّ ، قال : لَمّا نَصَبَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ عَلِيّاً يَومَ

غَدِيرِ خُمّ فَنَادَى لَهُ بِالوَلَايَةِ ، هَبَطَ جَبْرَئيلُ عَلَيهِ السّلَامُ بِهَذهِ الآيَةِ : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . (٩)

وروى الحاكم الحسكانيّ أيضاً بسند آخر عن أبي هريرة ، قال : مَنْ صَامَ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِنْ ذِي الحِجّةِ (١٠) كُتِبَ لَهُ صِيَامُ سِتّينَ شَهْرَاً ، وَهُوَ يَومُ غَدِيرِ خُمّ لَمّا أَخَذَ النّبِي صَلّى اللّهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ بِيَدِ عَلِيّ فَقَالَ : أَلَسْتُ وَلِيّ المُؤمِنِينَ ؟ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللّهِ ! فَقَالَ : مَنْ كُنْتُ مَولَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ .

فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ : بَخٍّ بَخٍّ لَكَ يَا بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَصْبَحْتَ مَوْلَايَ وَمَوْلَى كُلّ مُؤْمِنٍ . وَأَنْزَلَ اللّهُ : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ [وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي] . (١١)

وروى الخطيب البغداديّ هذه الرواية بعينها مع زيادة حول اليوم السابع والعشرين من رجب ، ضمن ترجمة أبي نَصر حَبْشُون بن موسى بن أيّوب الخلّال ، وذلك بسنده المتّصل عن حَبْشُون ، عن ابن سعيد الرّمْليّ ، عن ضَمْرَة بن ربيعة القُرَشيّ ، عن ابن شَوْذَب ، عن مَطَر الورّاق ، عن شهر بن حَوْشَب ، عن أبي هريرة . وقال في ذيلها : اشتهر هذا الحديث من رواية حبشون . (١٢)

ونقل ابن كثير الدمشقيّ في ترجمة أمير المؤمنين عليه السلام هذه الرواية عن الخطيب البغداديّ بنفس السند والألفاظ . (١٣)

وأخرج السيوطيّ ضمن تفسير هذه الآية الكريمة عن ابن مردويه ، والخطيب ، وابن عساكر ، عن أبي هريرة أنّه قال : لَمّا كَانَ يَومُ غَدِيرِ خُمّ ــ وَهُوَ يَومُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ مِنْ ذِي الحِجّةِ ــ قَالَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ : مَنْ كُنْتُ مَولَاهُ فَعَلِيّ مَولَاهُ . فَأَنْزَلَ اللّهُ : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ (١٤)

وروى الحسكانيّ أيضاً بسند آخر ، عن فُرات بن إبراهيم مسنداً عن ابن عبّاس ، قال : بَيْنَمَا النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ بِمَكّةَ أَيّامَ المَوْسِمِ إذِ الْتَفَتَ إلَى عَلِيّ فَقَالَ : هَنِيئَاً لَكَ يَا [أَ]بَا الحَسَنِ ، إنّ اللّهَ قَدْ أَنْزَلَ عَلَيّ آيَةً مُحْكَمَةً غَيْرَ مُتَشَابِهَةٍ ذِكْرِي وَإيّاكَ فِيهَا سَوَاءٌ : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ــ الآية . (١٥)

وروى الخطيب الخوارزميّ عن سيّد الحفّاظ : أبي منصور شهردار بن شيرويه بن شهردار الديلميّ فيما كتب إليه من همدان ، قال : أخبرني أبو الفتح عبدوس بن عبد الله بن عبدوس الهمدانيّ كتابةً ، حدّثني عبد الله بن إسحاق البغويّ ، عن الحسن بن عليل الغنويّ ، عن محمّد بن عبد الرحمن الزرّاع ، عن قيس بن حفص ، عن عليّ بن الحسين ، عن أبي الحسن العبديّ ، عن أبي هريرة ، عن السعيديّ ، عن أبي سعيد الخُدريّ أنّه قال : إنّ النبيّ [الأكرم] يوم دعا الناس إلى غدير خمّ أمر بما كان تحت الشجرة من الشوك فَقُمّ ، وذلك يوم الخميس (١٦) ثمّ دعا الناس إلى عليّ فأخذ بضبعه فرفعها حتّى نظر الناس إلى بياض إبطيه ، حتّى نزلت هذه الآية : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا . فقال رسول الله : اللَهُ أُكْبَرُ عَلَى إكْمَالِ الدّينِ وَإتْمَامِ النّعْمَةِ وَرِضَى الرّبّ بِرِسَالَتِي وَالوِلَايَةِ لِعَلِيّ . ثمّ قال : اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ .

فقال حسّان بن ثابت : يا رسول الله ! أتأذن لي أن أقول أبياتاً ؟

فقال : قل على بركة الله تعالى ! فقال حسّان بن ثابت : يا معشر مشيخة قريش ! اسمعوا شهادة رسول الله صلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ ، ثمّ قال :

يُنَادِيهِمُ يَومَ الغَدِيرِ نَبِيّهُمْ
بِخُمّ وَأَسْمِعْ بِالرّسُولِ (١٧) مُنَادِيَا
بِأَنّي مَوْلَاكُمْ نَعَمْ وَوَلِيّكُمْ
فَقَالُوا وَلَمْ يُبْدُوا هُنَاكَ التّعَامِيَا
إلَهُكَ مَوْلَانَا وَأَنْتَ وَلِيّنَا (١٨)
وَلَا تَجِدَنْ فِي الخَلْقِ لِلْأَمْرِ عَاصِيَا
فَقَالَ لَهُ قُمْ يَا عَلِيّ فَإنّنِي
رَضِيتُكَ مِنْ بَعْدِي إمَامَاً وَهَادِيَا
فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا وَلِيّهُ
فَكُونُوا لَهُ أَنْصَارَ صِدْقٍ مُوَالِيَا
هُنَاكَ دَعَا اللَهُمّ وَالِ وَلِيّهُ
وَكُنْ لِلّذِي عَادَى عَلِيّاً مُعَادِيَا (١٩)

وروى الخوارزميّ أيضاً بإسناده عن الحافظ أحمد بن الحسين البيهقيّ ، عن الحافظ أبي عبد الله الحاكم ، عن أبي يَعْلى الزبير بن عبد الله الثوريّ ، عن أبي جعفر البزّاز ، عن عليّ بن سعيد الرّمْليّ ، عن ضَمْرَة ، عن ابن شوذب ، عن مطر الورّاق ، روى نفس الرواية التي نقلناها عن الحاكم الحسكانيّ في «شواهد التنزيل» وعن الخطيب البغداديّ في «تاريخ بغداد» والتي جاء فيها نزول هذه الآية : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا يوم غدير خمّ . (٢٠)

ورواها ابن المغازليّ بالأسناد المذكورة عن أبي بكر أحمد بن محمّد بن طاوان ، عن أبي الحسين أحمد بن الحسين : ابن السمّاك ، عن أبي محمّد جعفر بن محمّد بن نصير الخُلْديّ ، عن عليّ بن سعيد بن قُتيبة الرمليّ ، عن ضمرة ، عن أبي هريرة ، قال : من صام يوم ثماني عشرة خلت من ذي الحجّة كتب [الله] له صيام ستّين شهراً ، وهو يوم غدير خمّ ، لمّا أخذ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بيد عليّ بن أبي طالب ، وقال : أَلَسْتُ أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ؟! قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَهِ ! قَالَ : مَنْ كُنْتُ مَولَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ

. فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ : بَخٍّ بَخٍّ لَكَ يَا بْنَ أَبِي طَالِبٍ ! أَصْبَحْتَ مَوْلاَيَ وَمَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ . فَأَنْزَلَ اللَهُ : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . (٢١)

وروى العلّامة الطباطبائيّ رضوان الله عليه مثل هذه الرواية المتقدّمة عن الخطيب البغداديّ ، الشاملة لإذن نزول الآية : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وذلك عن كتاب «المناقب» لابن مردويه ، وكتاب «شرقات الشعر» للمرزبانيّ، عن أبي سعيد الخدريّ . (٢٢)

وروى شيخ الإسلام الحمّوئيّ هذه الرواية التي نقلناها عن الخوارزميّ بسندين : أحدهما : عن الشيخ تاج الدين أبي طالب : عليّ بن أنجَب بن عثمان بن عبيد الله الخازن ، عن الإمام برهان الدين : ناصر بن أبي المكارم المُطَرّزيّ ، عن الخوارزميّ بسنده عن أبي هارون العبديّ ، عن أبي سعيد الخدريّ ، إلى أن قال : ثمّ لم يتفرّقا حتّى نزلت هذه الآية : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا . وبعد أن يذكر استئذان حسّان رسول الله لإنشاد شعره ، ينقل أربعة أبيات من أبياته . (٢٣)

والثاني بهذا السند نفسه ، عن الخوارزميّ بسنده الآخر نقلناه عن سيّد الحفّاظ : أبي منصور شهردار بن شيرويه ، عن أبي هارون العبديّ ، عن أبي سعيد الخدريّ . نقل قصّة الغدير وقال : ثمّ لم يتفرّقا حتّى نزلت هذه الآية : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا . ثمّ ذكر استئذان حسّان وأبياته التي نقل منها خمسة أبيات ، ثمّ قال : قال المؤلّف : هذا هو حديث الغدير ، وله طرق كثيرة إلى أبي سعيد الخدريّ : سعد بن مالك الخدريّ الأنصاريّ . (٢٤)

وروى أبو نعيم الإصفهانيّ في كتابه الموسوم ب «نُزُلُ القُرآنِ في أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام» يرفعه إلى عليّ بن عامر ، عن أبي الحَجّاف ، عن الأعمش ، عن عطيّة ، أنّه قال : «نزلت هذه الآية على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في عليّ بن أبي طالب عليه السلام :يَآ أَيُّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبّكَ ؛ وقد قال تعالى : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا » . (٢٥)

وروى أبو نعيم أيضاً في كتابه «نزول القرآن» يرفعه إلى قيس بن الربيع ، عن أبي هارون العبديّ ، عن أبي سعيد الخدريّ قال : «إنّ رسول الله دعا الناس إلى عليّ [بن أبي طالب عليه السلام] في غدير خمّ ، وأمر بما تحت الشجرة من شوك فَقُمّ ، وذلك في يوم الخميس . فدعا عليّاً عليه السلام فأخذ بضبعيه فرفعهما حتّى نظر الناس إلى بياض إبطي رسول الله ، (٢٦) ثمّ لم يفترقوا حتّى نزلت هذه الآية : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا . فقال رسول الله : اللَهُ أُكْبَرُ عَلَى إكْمَالِ الدِّينِ ، وَإتْمَامِ النِّعْمَةِ ، وَرِضَى الرّبّ بِرِسَالَتِي وَالوَلَايَةِ لِعَلِيّ عَلَيهِ السّلَامُ مِنْ بَعْدِي . ثمّ قال : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ، اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ! وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ! وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ ! وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ !

ثمّ قام حسّان وأنشد أبياته ، وذكر الأبيات التالية بعد الأبيات التي نقلناها سابقاً :

فَقَالَ لَهُ قُمْ يَا عَلِيّ فَإِنَّنِي
رَضِيتُكَ مِنْ بَعْدِي إِمَامَاً وَهَادِيَا
فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا وَلِيّهُ
فَكُونُوا لَهُ أَنصَارَ صِدْقٍ مُوَالِيَا
هُنَاكَ دَعَا اللَهُمّ وَالِ وَلِيّهُ
وَكُنْ لِلّذِي عَادَى عَلِيّاً مَعَادِيَا (٢٧)

قال أبو المظفّر سبط بن الجوزيّ : روى أحمد بن ثابت الخطيب ، عن عبد الله بن عليّ بن محمّد بن بشر ، عن عليّ بن عمر الدارقطنيّ ، عن أبي النضر : حَبْشون بن موسى بن أيّوب الخلّال ، مرفوعاً عن أبي هريرة ، وقال في آخره : عندما قال النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم : مَنْ كُنْتُ مَولَاهُ فَعَلِيّ مَولَاهُ ، نزل قوله تعالى : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ــ الآية . (٢٨)

وروى السيّد الرضيّ في كتاب «المناقب الفاخرة» عن محمّد بن إسحاق ، عن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن جدّه قال : لمّا انصرف رسول الله صلّى الله عليه وآله من حجّة الوداع ، نزل أرضاً يقال لها : صَوْجان . فنزلت هذه الآية : يَآ أَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رّبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ .

فلمّا نزلت عصمته من الناس ، نادي : الصّلَاةَ جَامِعَةً . فاجتمع الناس إليه ، وقال : مَنَ أَولَى بِكُمْ مِنْ أَنفسِكُمْ ؟! فضجّوا بأجمعهم ، وقالوا : اللَهُ وَرَسُولُهُ ! فأخذ بيد عليّ وقال : مَنْ كُنْتُ مَولَاهُ فَعَلِيّ مَولَاهُ . اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ! وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ! وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ ! وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ ! لأَنّهُ مِنّي وَأَنَا مِنْهُ ، وَهُوَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلّا أَنّهُ لَا نَبِيّ بَعْدِي .

وكان نصب أمير المؤمنين آخر فريضة فرضها الله تعالى على أُمّة محمّد . ثمّ أنزل الله على نبيّه هذه الآية : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا .

قال أبو جعفر [الباقر عليه السلام] فقبلوا من رسول الله صلّى الله عليه وآله كلّ ما أمرهم الله من الفرائض في الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحجّ ، وصدّقوه على ذلك ــ الحديث . (٢٩)

وذكر ابن كثير الدمشقيّ في تفسيره قائلاً : قال ابن جرير : وقد قيل إنّ هذه الآية نزلت على رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم في مسيره إلى حجّة الوداع . ثمّ رواة من طريق أبي جعفر الرازيّ عن الربيع بن أنس .

ثمّ قال : وقد روى ابن مردويه من طريق أبي هارون العبديّ ، عن أبي سعيد الخدريّ : هذه الآية نزلت على رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم يوم غدير خمّ حين قال لعليّ : مَنْ كُنْتُ مَولَاهُ فَعَلِيّ مَولَاهُ . ثمّ رواه عن أبي هريرة . وفيه أنّه اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة ، يعني مرجعه من حجّة الوداع . (٣٠)

وذكر ابن كثير في تأريخه أنّ ضمرة روى عن ابن شَوْذَب ، عن مطر الورّاق ، عن شهر بن حوشب ، عن أبي هريرة قال : لمّا أخذ رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم بيد عليّ قال : مَنْ كُنْتُ مَولَاهُ فَعَلِيّ مَولَاهُ ، فأنزل الله عزّ وجلّ : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا . وقال أبو هريرة : وهو يوم غدير خمّ ، وصومه يعدل صوم ستّين شهراً . (٣١)

إنّ الروايات التي أُثرت عن طريق الشيعة وثبّتها أعلامهم في كتب التفسير والحديث كعليّ بن إبراهيم القمّيّ في تفسيره ، والشيخ الصدوق محمّد بن عليّ بن بابويه القمّيّ في «الأمالي» ، والشيخ أبي عليّ الطبرسيّ في تفسير «مجمع البيان» ، والشيخ الطوسيّ في كتاب «الأمالي» ، ومحمّد بن مسعود العيّاشيّ في تفسيره ، والشيخ أبي منصورر أحمد بن أبي طالب الطبرسيّ في «الاحتجاج» وأبي عليّ الفتّال النيسابوريّ في «روضة الواعظين» وغيرهم ، كثيرة جدّاً ، وكلّهم اتّفقوا على نزول هذه الآية في غدير خمّ ، بدون أن يذكروا أحداً من الشيعة خالف ذلك . ونقل السيّد الأجلّ المحدّث البحرانيّ ، وهو من العلماء الكبار خمس عشرة رواية في هذا الصدد . (٣٢)

وروى عليّ بن عيسى الإربليّ عن صديقه المعاصر له : البدخشانيّ الحنبليّ الموصليّ في كتاب «مفتاح النّجَا في مناقب آل العبا» الذي ينقل عنه كثيراً من مناقب أمير المؤمنين عليه السلام وشأن نزول الآيات فيه ، روى عن أبي سعيد نزول الآية الشريفة : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا في غدير خمّ . ثمّ قال : رفع النبيّ يد عليّ عليه السلام فنزلت [هذه الآية] فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : اللهُ أَكْبَرُ عَلَى إِكْمَالِ الدّينِ ، وَإِتْمَامِ النّعْمَةِ ، وَرِضَى الرّبّ بِرِسَالَتِي وَالوَلَايَةِ لِعَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ . (٣٣)

وبعد ذكر آيات نزلت في الإمام عليه السلام ، قال : هذا ما نقلته ممّا نزل فيه عليه السلام من طريق الجمهور ، فإنّ الغرّ المحدّث كان صديقنا وكنّا نعرفه وكان حنبليّ المذهب ، وابن مردويه وإن كان قد جمع كتاباً في مناقب أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام اجتهد فيه وبالغ فيما أورده ولم يألُ جهداً ، فقد أورد فيه مواضع لا يقو لها الشيعة ولم يوردوها [في كتبهم] ، [ولكنّي] لم أذكر نزول القرآن في أمير المؤمنين عليه السلام من طرق أصحابنا ، دفعاً للمكابرة ، واستغناءً بما نقلوه [العامّة] من مناقب عليّ بن أبي طالب [في كتبهم] . (٣٤)

وبعد أن روى شعر حسّان بن ثابت ضمن حديث في الغدير ، قال : رُوي عن ابن هارون العبديّ (الذي روى شأن نزول آية إكمال الدين عن أبي سعيد الخدريّ) أنّه قال : «كنت أرى رأي الخوارج لا رأي لي غيره حتّى جلست إلى أبي سعيد الخدريّ ، فسمعته يقول : أُمر الناس بخمس . فعملوابأربع وتركوا واحدة . فقال له رجل : يا أبا سعيد ، ما هذه الأربع التي عملوا بها ؟!

قال [أبو سعيد] : الصلاة ، والزكاة ، والحجّ ، والصوم صوم شهر رمضان . قال : فما الواحدة التي تركوها ؟! قال [أبو سعيد] : وَلَايَةِ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ! قال [الرجل] : وإنّها مفترضة معهنّ ؟! قال [أبو سعيد] : نعم . قال [الرجل] : فقد كفر الناس [الذين لا ولاية لهم] ! قال [أبو سعيد] : فما ذنبي ؟! (٣٥)

أجل ، كما قلنا فإنّ أيّاً من علماء الشيعة الأعلام لم يذكر نزول آية إكمال الدين في غير يوم الغدير ، وهم مجمعون على شأن نزولها في الولاية وعند خطبة الرسول الأعظم .

أمّا علماء العامّة ، فإنّهم رووا ذلك عن أبي سعيد الخدريّ ، وأبي هريرة ، وجابر بن عبد الله ، ومجاهد المكّيّ ، والإمام محمّد الباقر ، والإمام جعفر الصادق عليهما السلام . وذكر كبارهم الذين نقلنا عن كتبهم بلا إشكال يذكر ، بيد أنّ أغلبهم يعتقد أنّ الآية نزلت في عصر يوم عرفة في حجّة الوداع .

قال السيوطيّ : ومن الآيات التي نزلت على رسول الله وهو في السفر قوله : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . وفي الصحيح عن عمر أنّها نزلت عشيّة عرفة يوم الجمعة عام حجّة الوداع . وله طرق كثيرة ، لكن أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدريّ أنّها نزلت يوم غدير خمّ .

وأخرج مثله من حديث أبي هريرة . وفيه أنّه اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة ، مرجعه من حجّة الوداع . وكلاهما لا يصحّ . (٣٦)

وقال ابن كثير الدمشقيّ : لا يصحّ الحديثان كلاهما ، بل الصواب الذي لا شكّ فيه ولا مرية أنّها نزلت يوم عرفة ، وكان يوم جمعة ، كما روي ذلك عن عمر بن الخطّاب ، وعليّ بن أبي طالب ، وأوّل ملوك الإسلام : معاوية بن أبي سفيان ، وترجمان القرآن : عبد الله بن عبّاس ، وسَمُرة بن جُنْدب . وأرسله الشعبيّ وقتادة بن دعامة ، وشهر بن حوشب ، وغير واحد من الأئمّة والعلماء ؛ واختاره ابن جرير الطبريّ أيضاً . (٣٧)

وقال في تأريخه بعد عرض حديث ضمرة عن ابن شوذب ، عن مطر الورّاق ، عن شهر بن حوشب ، عن أبي هريرة لمّا أخذ رسول الله يد عليّ وقال : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ، وأنزل الله عزّ وجلّ الآية : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وقال أبو هريرة : وهو يوم غدير خمّ ، من صام يوم ثمان عشرة من ذي الحجّة كتب له صيام شهراً : فإنّه حديث منكر جدّاً ، بل كذب لمخالفته ما ثبت في الصحيحين (صحيح البخاريّ

، وصحيح مسلم) عن أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب أنّ هذه الآية نزلت في يوم الجمعة يوم عرفة ، ورسول الله واقف في عرفات . [٣٨]

وقال في تفسيره أيضاً : ذكر الإمام أحمد بسنده عن طارق بن شهاب أنّه قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطّاب فقال : يا أمير المؤمنين! إنّكم تقرأون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتّخذنا ذلك اليوم عيداً ! قال عمر : وأيّ آية ؟ قال اليهوديّ : قوله : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي . فقال عمر : والله إنّي لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله : عشيّة عرفة في يوم الجمعة .

ورواه البخاريّ عن الحسن بن الصبّاح ، عن جعفر بن عون ، عن عمر . ورواه أيضاً مسلم ، والترمذيّ ، والنسائيّ من طرق عن قيس بن مسلم ، عن عمر . [٣٩]

ونحن نتمسّك فيما يلي بوجهين لإثبات بطلان هذه الأحاديث ، وتقرير نزول الآية في الغدير .

الأوّل : ما اتّفق عليه أهل السير والآثار من أهل السنّة أنّ النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله بقي بعد نزول آية إكمال الدين أحداً وثمانين يوماً أو اثنين وثمانين ثمّ رحل إلى دار البقاء ؛ وكذلك يقول مؤرّخوهم : إنّ رحلته كانت في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأوّل .

يقول الفخر الرازيّ في تفسيره : قال أصحاب الآثار : لمّا نزلت هذه الآية على النبيّ [الأكرم] صلّى الله عليه [وآله] وسلّم لم يعمر بعد نزولها إلّا أحداً وثمانين يوماً أو اثنين وثمانين يوماً . ولم يحصل في الشريعة بعدها زيادة ولا نسخ ولا تبديل البتة . وكانت هذه الآية جارية مجرى إخبار رسول الله عن قرب وفاته . وهذا إخبار عن الغيب ، فيكون معجزاً . [٤٠]

ومن الذين ذهبوا إلى أنّ المدّة كانت أحداً وثمانين يوماً : أبو السّعُود في تفسيره . [٤١]

وقال ابن كثير الدمشقيّ في ذكر وفيّات السنة الحادية عشرة من الهجرة : توفّي في هذه السنة رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم مُحَمّدُ بْنُ عَبْدِ اللَهِ سَيّدُ وُلْدِ آدَمَ فِي الدّنْيَا وَالآخِرَةِ . وذلك في ربيعها الأوّل يوم الاثنين ثاني عشره على المشهور . [٤٢]

وهذا ينسجم تماماً مع الرأي القائل : إنّ آية إكمال الدين نزلت في يوم الغدير ، لأنّنا إذا لم نحسب يوم الغدير وحسبنا يوم الوفاة ــ كما يفعلون عادة في حساب الأيّام إذ يُسقطون اليوم الأوّل أو الأخير منها ــ وكان كلّ واحد من الشهور الثلاثة المتوالية : ذي الحجّة ، والمحرّم ، وصفر تسعة وعشرين يوماً ، [٤٣] ، فإنّ بين عيد الغدير ويوم الوفاة أحداً وثمانين يوماً ، وإذا كان شهران منهما كلّ واحد تسعة وعشرين يوماً ، وشهر ثلاثين يوماً ، فستكون المدّة اثنين وثمانين يوماً .

ومن الواضح أنّ هذا الحساب يستبين عندما يكون نزول الآية في يوم الغدير ، أي : اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة ، بيد أنّنا إذا افترضنا أنّها نزلت في يوم عرفة ، أي : اليوم التاسع ، فإنّ المدّة بين نزول الآية ووفاة رسول الله ستكون تسعين يوماً أو واحد وتسعين يوماً . وهذا خلاف ما نصّ عليه العامّة أنفسهم ، إذ لم يذكر أحد منهم هذه المدّة .

الثاني : أنّ الآية الكريمة : أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ تدلّ على أنّ الدين كامل ، وأنّ جميع الأحكام والتعاليم قد نزلت ولم يبق شيء منها ، لا حلال ولا حرام حتّى انتقل النبيّ إلى ربّه . ووردت أحاديث تنسجم مع هذا المعنى ، ونحن نعلم أنّ بعض الأحكام نزلت بعد عرفة كوجوب الموالاة في يوم الغدير ، وإن لم يحملها العامّة على الإمامة والخلافة ، وكآية الربا ، والدّيْن ، وإرث الكلالة ، (٤٤) وبعامّة الآيات الواردة في سورة المائدة التي نزلت بين يوم عرفة ويوم الغدير . لأنّ العامّة يتّفقون معنا على أنّ سورة المائدة نزلت في حجّة الوداع . (٤٥)

وقد التفت السيوطيّ في كتاب «الإتقان» إلى هذا الإشكال المثار ضدّ أُولئك الأشخاص ، وقال هذا : «من المشكل على ما تقدّم قوله تعالى : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ فإنّها نزلت بعرفة عام حجّة الوداع ، وظاهرها إكمال جميع الفرائض والأحكام قبلها . وقد صرّح بذلك جماعة منهم السدّيّ فقال : لم ينزل بعدها حلال ولا حرام ، مع أنّه وارد في آية الربا والدّين والكلالة أنّها نزلت بعد ذلك . وقد استشكل ذلك ابن جرير ، وقال : الأولى أن يتأوّل على أنّه أكمل لهم دينهم بإقرارهم بالبلد الحرام وإجلاء المشركين عنه حتّى حجّه المسلمون لا يخالطهم المشركون .

ثمّ أيّد [ابن جرير هذا التأويل] بما أخرجه من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عبّاس ، قال : كان المشركون والمسلمون يحجّون جميعاً فلمّا نزلت سورة براءة ، نُفي المشركون عن البيت وحجّ المسلمون لا يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين . فكان ذلك من تمام النعمة التي أنعمها الله : وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي .» (٤٦)

ومن الواضح أنّ تأويل ابن جرير لا يدفع الإشكال ، لأنّ الآية ظهوراً في كمال الدين وتمام النعمة بشكل مطلق ، ولا يتسنّى تسمية الدين كاملاً وهو يحمل نقصاً في الأحكام التي تكتمل فيما بعد . وعلى الرغم من أنّ نفي المشركين كان نعمة إجمالاً ، إلّا أنّه ليس تمام النعمة بنحو مطلق ، وكمال الدين بشكل عام . فلهذا اكتفى السيوطيّ بذكر تأويل ابن جرير وتبريره فحسب ، ولم يقف عند الموضوع ، ولم يذكر شيئاً من عنده لدفع الإشكال الوارد . يضاف إلى ذلك ، أنّنا نعلم أنّ سورة براءة ونفي المشركين من المسجد الحرام يختصّ بالسنة التاسعة من الهجرة ، فينبغي أن تكون الآية قد نزلت في ذلك اليوم ، وكلمة الْيَوْمَ ظرف زمان لذلك اليوم . وحينئذٍ فما معنى نزول آية إكمال الدين بلفظ اليوم بعد مضيّ سنة على نزول آية البراءة ؟

كان هذا جواباً موجزاً ذكرناه لإبطال الأحاديث الواردة عن العامّة . وأمّا الجواب الشافي والوافي فهو يتمثّل في معارضة هذه الأحاديث للقرآن الكريم . وبناءً على عدم حجّيّة الأخبار المعارضة للكتاب ، فإنّ هذا كلّه باطل ومُلغى ومضروب على الجدار .

وبعبارة أبسط ، يعارض مفاد الآية نفسها : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وعلى هذا فإنّ معنى هذه الآية ومفادها يحكمان ببطلان تلك الأحاديث . ولابدّ أن نتعرّف على تفسير الآية المباركة توضيحاً لهذا المعنى :

لا ريب أنّ جملة : الْيَومَ يَئِسَ الّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ ، وجملة الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ مترابطان في المفهوم ومتقاربان في المضمون . لظهور ما بين يأس الكفّار من دين المسلمين وبين إكمال دين المسلمين من الارتباط ، وقبول المضمونين لأن يمتزجا فيتركّب منهما جملة واحدة مرتبطة الأجزاء ، والمعنى بصورة تامّة وكاملة . مضافاً إلى ما نراه من الاتّحاد في السياق بين الجملتين .

ويؤيّد ذلك أنّ السلف والخلف من مفسّرى الصحابة والتابعين والمتأخّرين إلى يومنا هذا أخذوا الجملتين متّصلتين ومرتبطتين يتمّ بعضهما بعضاً ، وليس ذلك إلّا لأنّهم فهموا من هاتين الجملتين معنى واحداً ، وبنوا على نزولهما معاً ، واجتماعهما من حيث الدلالة على مدلول واحد .

وينتج ذلك أنّ قوله : الْيَومَ يَئِسَ الّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ إلى قوله : وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا كلام واحد متّصل الأجزاء مسوق لغرض واحد ، قائم بمجموع الجملتين من غير تشتّت في المفاد والمعنى سواء قلنا بارتباطه بآية محرّمات الطعام أو لم نقل ، فإنّ ذلك لا يؤثّر البتّة في كون هذا المجموع كلاماً واحداً له معنى ومضمون واحد وقد جاء بصورة جملة معترضة لا كلامين ذوي غرضين . وأنّ اليوم المتكرّر في قوله : الْيَومَ يَئِسَ الّذِينَ كَفَرُوا ، وقوله : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ أُريد به يوم واحد يئس فيه الكفّار من التسلّط على دين المسلمين وإزالة صورته وأحكامه ، وأُكمل فيه الدين .

والآن لنَرَ ، ما المراد بهذا اليوم المتكرّر .. وأيّ يوم هو .. ؟ هل المراد به الزمن الوسيع والمتّسع ، كما يقال : كنتُ طفلاً أمس ، واليوم صرت شابّاً . أو كنت جاهلاً أمس ، واليوم أصبحت عالماً ؟ أو المراد به زمان ظهور الإسلام ببعثة النبيّ صلّى الله عليه وآله ودعوته ، فيكون المراد : أنّ الله أنزل إليكم الإسلام ، وأكمل لكم الدين ، وأتمّ عليكم النعمة ، وأيأس منكم الكفّار ؟

لا يصحّ هذا الاحتمال لأنّ ظاهر سياق الآية أنّه كان للمسلمين ديناً وكان الكفّار يطمعون في إبطاله وتغييره ، وكان المسلمون يخشون من طمع الكفّار لتخريب وإزالة دينهم فأيأس الله الكافرين من الاعتداء والتسلّط على دين المؤمنين وآمن المسلمين . إنّ

الدين كان ناقصاً فأكمله الله وأتمّ نعمته عليهم . وقبل الإسلام لم يكن للمسلمين ديناً حتّى يطمع فيه الكفّار أو يكمله الله ويتمّ نعمته عليهم .

يضاف إلى ذلك ووفقاً لهذا الاحتمال أنّ قوله : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ينبغي أن يتقدّم على قوله : الْيَومَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ حتّى يستقيم الكلام في نظمه .

أو أنّ المراد باليوم في الآية الكريمة هو ما بعد فتح مكّة حيث أبطل الله فيه كيد ومكر مشركي قريش ، وأذهب شوكتهم وعظمتهم ، وهدم فيه بنيان دينهم ، وحطّم أصنامهم ، فانقطع رجاؤهم أن يقوموا على ساق ، ويضادّوا الإسلام ويمانعوا نفوذ أمره وانتشار صيته .

ولا يصحّ هذا الاحتمال أيضاً لأنّ الآية تدلّ على إكمال الدين وإتمام النعمة . ولمّا يكمل الدين بفتح مكّة في السنة الثامنة من الهجرة . فكم من الفرائض والواجبات قد نزلت بعد ذلك ، وكم الكثير من الحلال والحرام شرّع فيما بينه وبين رحلة رسول الله .

يضاف إلى ذلك ، أنّ المراد من قوله : الَّذِينَ كَفَرُوا يعمّ جميع مشركي العرب . ولم يكونوا آيسين من الاعتداء وتحطيم دين الإسلام بعد فتح مكّة ، والدليل على ذلك أنّ كثيراً من المواثيق على عدم التعرّض كانت باقية بعد على اعتبارها واحترامها . وكان مشركو العرب يحجّون على سنّة الجاهليّة . وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً . (٤٧) وكانت النساء يحججن عاريات مكشوفات العورة . (٤٨)

وكان هذا المنهج مستمرّاً حتّى بعث رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أمير المؤمنين عليه السلام بآيات البراءة من المدينة إلى مكّة في السنة التاسعة من الهجرة فأبطل بقايا آداب ورسوم الجاهليّة وتقاليدها .

أو أنّ المراد باليوم ، ما بعد نزول سورة براءة ، حيث بسط الإسلام آنذاك سيطرته على جزيرة العرب تقريباً ، وانمحت آداب وآثار الشرك ، وماتت سنن الجاهليّة . فما كان المسلمون يرون في المحافل الدينيّة ومناسك الحجّ أحداً من المشركين ، وصفا لهم الأمر ، وأبدلهم الله بعد خوفهم أمناً يعبدونه ولا يشركون به شيئاً .

ولا يصحّ هذا الاحتمال أيضاً ، فإنّ مشركي العرب وإن أيسوا من دين المسلمين بعد نزول سورة براءة ، وطيّ بساط الشرك من الجزيرة العربيّة ، وإعفاء تقاليد الجاهليّة ، إلّا أنّ الدين لم يكمل بعد ، وقد نزلت فرائض وأحكام بعد سورة براءة ، ومنها ما في هذه السورة (سورة المائدة) . واتّفقوا على نزولها في آخر عهد النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وفيها شيء كثير من أحكام الحلال والحرام والحدود القصاص . فتحصّل أنّه لا سبيل إلى احتمال أن يكون المراد باليوم في الآية الكريمة معناه الوسيع ممّا يناسب مفاد الآية في أوّل نظرة كزمان ظهور الدعوة الإسلاميّة ، أو ما بعد فتح مكّة من الزمان ، أو ما بعد نزول آيات البراءة . فلا سبيل إلّا أن يقال : إنّ المراد باليوم يوم نزول الآية نفسها .

وذلك اليوم هو يوم نزول السورة إن كان قوله : الْيَومَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا في وسط آية حرمة الطعام مرتبطاً بها بحسب المعنى ، أو بعد نزول سورة المائدة في أواخر عهد رسول الله ، ثمّ جعلوها هنا بقرينة قوله : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ .

فهل المراد باليوم يوم فتح مكّة بعينه ؟ أو يوم نزول سورة براءة ؟! وتثار هنا نفس الإشكالات الواردة على الاحتمال الثاني والثالث المتقدّمين .

أو أنّ المراد باليوم هو يوم عرفة من حجّة الوداع كما ذكر كثير من مفسّري العامّة ، وبه وردت بعض الروايات ؟ فما المراد من يأس الذين كفروا يومئذٍ من دين المسلمين ؟ فإن كان المراد باليأس من الدين يأس مشركي قريش من الظهور على دين المسلمين ، فقد كان ذلك يوم فتح مكّة عام ثمانية لا يوم عرفة من السنة العاشرة . وإن كان المراد يأس مشركي العرب من ذلك ، فقد كان ذلك عند نزول سورة براءة ، وهو في السنة التاسعة من الهجرة . وإن كان المراد به يأس جميع الكفّار الشامل لليهود ، والنصارى ، والمجوس ، وغيرهم ــ وذلك الذي يقتضيه إطلاق قوله : الَّذِينَ كَفَرُوا ــ فهؤلاء لم يكونوا آيسين من الظهور على المسلمين بعد ، ولمّا تظهر للإسلام قوّة وشوكة وغلبة في خارج الجزيرة العربيّة يومئذٍ .

ومن جهة أُخرى ، يجب أن نتأمّل ونرى : ماذا حدث يوم عرفة من حجّة الوداع ، وهو التاسع من ذي الحجّة السنة العاشرة من الهجرة ؟ وما هو شأن ذلك اليوم حتّى يناسب قوله : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا ؟

فربّما أمكن أن يقال : إنّ المراد به إكمال الحجّ بحضور رسول الله صلّى الله عليه وآله بنفسه فيه ، وتعليمه الناس تعليماً عمليّاً مشفوعاً بالقول . (٤٩)

وهذا لا يصحّ ، لأنّه يسمّي مجرّد تعليمه الناس مناسك حجّهم إكمالاً للدين ؟ ونحن نعلم أنّ النبيّ الأكرم كان قد شرّع أركان الدين من صلاة وصوم وحجّ وزكاة وجهاد قبل الحجّ ، وفي حجّة الوداع أيضاً حيث علّمهم حجّ التمتّع ، لم يلبث دون أن صارت هذه السنّة السنّيّة مهجورة وهذه الفريضة الإلهيّة متروكة .

وكيف يصحّ أن يسمّى تعليم شيء من واجبات الدين إكمالاً لذلك الواجب فضلاً عن أن يسمّى تعليمهم واجب من واجبات الدين لمجموع الدين ؟

يضاف إلى ذلك ، أنّ هذا الاحتمال يوجب انقطاع رابطة الفقرة الأُولى ، أعني قوله : الْيَومَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ بهذه الفقرة ، أعني قوله : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . وأيّ ربط ليأس الكفّار عن الدين بتعليم رسول الله حجّ التمتّع للناس ؟

وربّما أمكن أن يقال : إنّ المراد بإكمال الدين من جهة بيان ونزول بقايا الحلال والحرام في هذا اليوم في سورة المائدة ، فلا حلال بعده ولا حرام ، وبإكمال الدين استولى اليأس على قلوب الكفّار ، ولاحت آثاره على وجوههم . (٥٠)

لكن يجب أن نتبصّر في تمييز هؤلاء الكفّار الذين عبّر عنهم في الآية بقوله : الّذِينَ كَفَرُوا على هذا التقدير وأنّهم من هم ؟ فإن أُريد بهم كفّار العرب ، فقد كان الإسلام عمّهم يومئذٍ ولم يكن فيهم من يتظاهر بغير الإسلام ، فمن هم الكفّار الآئسون ؟

وإن أُريد بهم الكفّار من غير العرب من الأُمم والطوائف ، فقد عرفنا آنفاً أنّهم لم يكونوا آئسين يومئذٍ من الظهور على المسلمين .

يضاف إلى ذلك ، ينبغي أن نرى ما المراد بانسداد باب التشريع بنزول سورة المائدة وانقضاء يوم عرفة ؟ فقد وردت روايات كثيرة لا يستهان بها عدداً نزول أحكام وفرائض بعد يوم عرفة ، كما في آية الكلالة في آخر سورة النساء ، وآيات الربا . حتّى أنّه روي عن عمر أنّه قال في خطبة خطبها : من آخر القرآن نزولاً آية الربا ، وأنّه مات رسول الله ولم يبيّنه لنا ، فَدَعُوا مَا يُرِيبُكُمْ إِلَى مَا لَا يُرِيبُكُمْ .

وروى البخاريّ في الصحيح عن ابن عبّاس ، قال : آخر آية نزلت على رسول الله آية الربا . وليس للعالم بطرق الاستفادة من الروايات ومن كتاب الله أن يضعّف هذه المجموعة من الروايات ، ويقدّم آية الإكمال في يوم عرفة عليها ، لأنّ الآية الكريمة ليست بصريحة ولا ظاهرة في كون المراد باليوم فيها يوم عرفة بعينه . وإنّما هو وجه محتمل يتوقّف في تعيّنه على انتفاء كلّ احتمال ينافيه ، وهذه الأخبار لا تقصر عن الاحتمال المجرّد عن السند .

وربّما أمكن أن يقال : إنّ المراد بإكمال الدين خلوص البيت الحرام للمسلمين ، وإجلاء المشركين عنه حتّى حجّه المسلمون وهم لا يخالطهم المشركون . (٥١)

وهذا الكلام لا يصحّ أيضاً ، وذلك أنّه كان قد صفا الأمرر للمسلمين فيما ذكر قبل ذلك بسنة ، فما معنى تقييده باليوم بقوله : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . على أنّه لو سُلّم كون صفاء الجوّ هذا وخلوص بيت الله إتماماً للنعمة ، لم يسلّم كونه إكمالاً للدين .

والدين عبارة عن مجموعة من عقائد وأحكام ، وليس إكماله إلّا أن يضاف إلى عدد أجزائها وأبعاضها عدد . وأمّا خلوص بيت الله الحرام فلا يسمّى إكمالاً للدين ، لأنّ ارتفاع الموانع والعقبات عن أبعاض وأجزاء الدين لا يدعى إكمالاً . على أنّ إشكال يأس الكفّار عن الدين على حاله .

ويمكن أن يقال : إنّ المراد من إكمال الدين بيان هذه المحرّمات بياناً تفصيليّاً ليأخذ به المسلمون ويطبّقوه . أي : يجتنبوا المحرّمات ولا يخشوا الكفّار في ذلك ، لأنّ الكفّار قد يئسوا من دينهم بإعزاز الله المسلمين وإظهار دينهم وتغليبهم على الكفّار .

توضيح ذلك : أنّ حكمة الاكتفاء في أوّل الإسلام بذكر محرّمات الطعام الأربعة [أي : الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أُهِلّ لغير الله به] الواردة في بعض السور المكيّة ، وترك تفصيل ما يندرج فيها ممّا كرهه الإسلام للمسلمين من سائر ما ذكر في هذه الآية

إلى ما بعد فتح مكّة إنّما هي التدرّج في تحريم هذه الخبائث والتشديد فيها ، كما كان التدريج في تحريم الخمر لئلّا ينفر العرب من الإسلام ولا يرون فيه حرجاً عليهم يرجون به أن يرتدّ إليهم من آمن الفقراء وهم أكثر السابقين الأوّلين .

جاء هذا التفصيل للمحرّمات بعد قوّة الإسلام ، وتوسعة الله على أهله وإعزازهم ، وبعد أن يئس المشركون بذلك من نفور أهله منه وفرارهم من تكاليفه ، وزال طمعهم في الظهور عليهم ، وإزالة دينهم بالقوّة القاهرة . فكان المؤمنون أجدر بأن لا يبالوهم بمداراتهم ، وأن لا يخافوهم على أنفسهم وعلى دينهم .

فالله سبحانه يخبر المؤمنين في هذه الآية أنّ الكفّار أنفسهم قد يئسوا من زوال دينهم وأنّه ينبغي لهم ــ وقد بدّلهم بضعفهم قوّة ، وبخوفهم أمناً ، وبفقرهم غنى ــ أن لا يخشوا غيره تعالى ، [وينتهوا عن تفاصيل المحرّمات التي نهى الله عنها في الآية ، ففيها كمال دينهم] . (٥٢)

إنّ هذا القائل أراد الجمع بين عدّة من الاحتمالات المذكورة ليدفع بكلّ احتمال ما يتوجّه إلى الاحتمال الآخر من الإشكال . فتورّط بين المحاذير برمّتها وأفسد لفظ الآية ومعناها جميعاً .

أوّلاً : غفل عن أنّ المراد باليأس إن كان هو اليأس المستند إلى ظهور الإسلام وقوّته ، وهو ما كان بفتح مكّة أو بنزول آيات سورة براءة وقراءتها على المشركين في عقبة منى من فبل أمير المؤمنين عليه السلام ، لم يصحّ أن يقال يوم عرفة من السنة العاشرة : اليوم يئس الذين كفروا من دينكم . وقد كانوا يئسوا قبل ذلك بسنة أو سنتين . وإنّما ينبغي أن يقال : قَدْ يَئِسُوا ، أو إنّهُمْ آيِسُونَ .

ثانياً : وغفل عن أنّ هذا التدرّج الذي ذكره في محرّمات الطعام ، وقاس تحريمها بتحريم الخمر ، إن أُريد به التدرّج من حيث تحريم بعض الأفراد بعد بعض ، فلا يصحّ . لأنّ هذه الآية الواردة في سورة المائدة لا تشتمل على أزيد ممّا تشتمل عليه آيات البقرة ، والأنعام ، والنحل ، من محرّمات الطعام . وأنّ الْمَوْقُوذَة ، والْمُنْخَنِقَة ، والْمُتَرَدّيَة ، والنّطِيحَة ، ومَآ أَكَلَ السّبُع هي من أفراد الميتة التي جاءت حرمتها في آيات تلك السور . وَمَا ذُبِحَ عَلَى النّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ من مصاديق وأفراد مَآ أُهِلّ لِغَيْرِ اللَهِ بِهِ في سورة النحل . وهذه الآية في سورة المائدة لا تبيّن شيئاً أكثر ممّا تبيّنه آيات السور الثلاث من حيث تعداد المحرّمات .

وإن أُريد التدرّج من حيث البيان الإجماليّ والتفصيليّ ، إذ ذكره الله إجمالاً أوّلاً ، ثمّ فصّله ثانياً خوفاً من امتناع الناس من القبول ، فلا يصحّ أيضاً . لأنّ مصاديق وأفراد المحرّمات التي تدخل تحت عنوان الميتة ، ولحم الخنزير ، والدم ، وما أُهلّ به لغير الله ، والتي جاءت في السور الثلاث النازلة قبل سورة المائدة ، هي أكثر من المحرّمات الواردة

في سورة المائدة ، وابتلاء الناس بها أكثر من أمثال الْمُنْخَنِقَة ، الْمَوْقُوذَة ، و الْمُتَرَدِّيَة ، و النَّطِيحَة ، ومَآ أَكَلَ السَّبُع ، لأنّها أُمور نادرة التحقّق ، والناس ــ عادة ــ لا يقتلون ذبائحهم بالخنق ، أو الإرداء ، أو الوقذ ، أو النطح . نعم ، لو قدّر وقوع هذه الأشياء ، لما رأى الناس بأساً في أكلها . وحينئذٍ كيف يصرّح الله بحرمة هذه الأشياء الأربعة : الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أُهلّ لغير الله به ، وهي تقع أكثر ولها أهميّة كبرى ، يصرّح بحرمتها من غير خوف يظهر بين الناس ، ويذكر أشياء غير مهمّة قلّما تطرأ على سبيل التقيّة ، ويحرّمها تدريجاً لئلّا يعرض الناس عن الدين ؟

وثالثاً : على فرض التسليم ، فإنّ تشريع الأحكام وبالأخصّ تشريع بعضها ليس إكمالاً للدين . وفي هذا الفرض يجب أن يقال : اليوم أكملت لكم بعض دينكم وأتممت عليكم بعض نعمتي .

وروابعاً : كيف خصّ الله يوم عرفة بتشريع عدد من أحكام المنخنقة والموقوذة فيه وسمّى بيان حرمتها إكمالاً للدين وإتماماً للنعمة ، مع تشريعه أحكاماً وقوانين كثيرة في أيّام أُخرى ؟ هنا موضع تأمّل .

ويمكن أن يقال : إنّ المراد بإكمال الدين إكماله بسدّ باب التشريع بعد هذه الآية المبيّنة لتفصيل محرّمات الطعام ، فلم ينزل حكماً آخر ، ولذلك كمل الدين .

وهنا يجب أن نقول : ما شأن الأحكام النازلة ما بين نزول سورة المائدة ووفاة رسول الله ؟ بل ما شأن سائر الأحكام النازلة بعد هذه الآية في سورة المائدة ؟

وبعد ذلك كلّه : ما معنى قوله تعالى : وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا ؟ لأنّ تقديره : الْيَوْمَ وَرَضِيتُ . ولو كان المراد بهذه الآية الامتنان على الناس بما ذكر من محرّمات الطعام يوم عرفة ، فما وجه اختصاص هذا اليوم بأنّ الله سبحانه وتعالى رضي فيه الإسلام ديناً ؟ لأنّه لا أمر يختصّ به اليوم ممّا يناسب هذا الرضا .

ويرد على هذا الاحتمال أكثر الإشكالات الواردة على الوجوه السابقة .

والآن بعد أن علمنا أنّ هذه الاحتمالات المطروحة حول معنى اليوم في الآية الكريمة لا تصحّ ، نقترب إلى القول بأنّنا نستطيع أن نتوفّر على معنى اليوم في الآية من الآية نفسها . ولتحقّق هذا المعنى نقول مستهلّين :

إنّ ما يستفاد من الآيات القرآنيّة هو أنّ الكافرين كانوا يكيدون للإسلام منذ بزوغ شمسه ، وكانوا يعتزمون اجتثاث جذوره ، ويتمنّون زواله منذ أيّامه الأُولى . وأمرهم هذا هو الذي كان يسبّب القلق والمشاكل للمسلمين بأشكال متنوّعة ، ويظهر في كلّ يوم بشكل أو بآخر . وكان من حقّ المؤمنين أن يحذروا منه ويخشوه .

قال تعالى : وَدّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَبِ لَوْ يُضِلّونَكُمْ . (٥٣)

وقال : وَدّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَبِ لَوْ يَرُدّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَنِكُمْ كُفّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمُ الْحَقّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنّ اللّهَ عَلَى كُلِ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (٥٤)

والكفّار لم يكونوا يتربّصون الدوائر بالمسلمين إلّا لدينهم ، ولم تكن تضيق صدورهم وتتصدع قلوبهم إلّا من جهة أنّ الدين كان يذهب بسؤددهم وشرفهم ، واسترسالهم في اقتراف كلّ ما تهواه طباعهم ، وتألفه وتعتاد به نفوسهم ، ويختم على تمتّعهم بكلّ ما يشتهون بلا قيد وشرط .

فقد كان الدين هو المبغوض عندهم دون أهل الدين إلّا من جهة دينهم الحقّ . فلم يكن في قصدهم إبادة المسلمين وإفناء جمعهم بل إطفاء نور الله وتحكيم أركان الشرك المتزلزلة المضطربة به ، وردّ المؤمنين كفّاراً ، كما قال تعالى :

وَلَا يَزَالُونَ يُقَتِلُونَكُمْ حَتّى يَرُدّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا . (٥٥)

وقال تعالى : إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الّذِينَ أُتُوا الْكِتَبَ يَرُدّوكُم بَعْدَ إِيمَنِكُمْ كَفِرِينَ . (٥٦)

وقال تعالى : يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤا نورَ اللّهِ بِأَفْوَ هِهِمْ وَاللّهُ مَتِمّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَفِرُونَ * هُوَ الّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدّينِ كُلّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ . (٥٧)

وقال تعالى : فَادْعُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَفِرُونَ . (٥٨)

ولذلك لم يكن للكفّار همّ إلّا أن يقطعوا هذه الشجرة الطيّبة من أصلها ، ويهدموا هذا البيان الرفيع من أُسّه بتفتين المؤمنين وبثّ النفاق في جماعتهم ، ونشر الشبهات والخرافات بينهم لإفساد دينهم .

وقد كانوا يأخذون بادئ الأمر يفتّرون عزيمة النبيّ صلّى الله عليه وآله ويستمحقون همّته في الدعوة الدينيّة بالمال والجاه ، كما يشير إليه قوله تعالى : وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا واصْبِرُوا عَلَى ءَالِهَتِكُمْ إِنّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . (٥٩) أو بمخالطة أو مداهنة ، كما يشير إليه قوله تعالى : وَدّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُون . (٦٠)

وقوله تعالى : وَلَوْلَآ أَن ثَبّتْنَكَ لَقَدْ كِدتّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا . (٦١)

وكان آخر ما يرجونه في زوال الدين ، وموت الدعوة المحقّة ، أنّه سيموت بموت هذا القائم بأمره ولا عقب له . فإنّ المشركين كانوا يرون النبوّة حكومة ورئاسة في صورة النبوّة ، وسلطنة في لباس الدعوة والرسالة . وكانوا يقولون : لو مات لانقطع أثره ، ومات ذكره ، وذكر دينه على ما هو المشهود عادة من حال السلاطين والجبابرة أنّهم مهما بلغ أمرهم من التعالي والتجبّر وركوب رقاب الناس ، فإنّ ذكرهم يموت بموتهم ، وسننهم وقوانينهم الحاكمة بين الناس تدفن معهم في قبورهم إلّا أن يكون لهم ولد يحفظ من بعدهم الحكم والسلطنة والسنن . ومحمّد الذي لا عقب له على هذه السيرة ، سيموت دينه بموته أو قتله . ويشير إلى رجائهم هذا قوله تعالى : إِنّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ . (٦٢)

فقد كانت هذه الأشياء وأمثالها أماني تمكّن الرجاء من نفوسهم ، وتطمعهم في إطفاء نور الدين ، وتزيّن لأوهامهم أنّ هذه الدعوة ليست إلّا أُحدوثة ستقضي عليها المقادير ويعفو أثرها مرور الليالي والأيّام .

لكنّ ظهور الإسلام تدريجاً ، وانتشار صيته ، واعتلاء كلمته بالشوكة والقوّة قضى على هذه الأماني . ذلك أنّهم لم يستطيعوا أن يزعزعوا عزيمة النبيّ ، ويوقفوا همّته بالمال والجاه اللذين كانا يعرضانهما عليه .

قوّة الإسلام وشوكته أيأستهم من جميع تلك الأسباب ، إلّا واحداً ، وهو أنّ محمّداً صلّى الله عليه وآله مقطوع العقب ، لا ولد له يخلفه في أمره ، ويقوم على ما قام عليه من الدعوة الدينيّة ، فستموت دعوته بموته .

لأنّه من البديهيّ أنّ كمال الدين من جهة أحكامه ومعارفه ، وإن بلغ ما بلغ ، لا يقوى بنفسه على حفظ نفسه ، وأنّ أيّة سنّة من السنن الإلهيّة والأديان المتّبعة لا تبقى على نضارتها وصفائها ، لا بنفسها ولا بانتشار صيتها ، ولا بكثرة المنتحلين والأتباع ، كما أنّها لا تنمحي ولا تنطمس بقهر أو جبر أو تهديد أو فتنة أو عذاب إلّا بموت حملتها وحفظتها والقائمين بتدبير أمرها .

ومن جميع ما تقدّم ، يظهر أنّ تمام يأس الكفّار إنّما يتحقّق عندما ينصّب الله لهذا الدين من يقوم مقام النبيّ في حفظه وتدبير أمره ، وإرشاد الأُمّة القائمة به .

وفي هذه الحالة التي شاهد فيها الكفّار انتقال الدين من مرحلة القيام بالحامل الشخصيّ إلى مرحلة القيام بالحامل النوعيّ ، وتحوّله من صفة الحدوث إلى صفة البقاء في مراحل كماله ، سيطر اليأس على وجودهم كلّه . وهذا هو إكمال الدين وإتمام النعمة .

وليس ببعيد أن يكون قوله تعالى : وَدّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَنِكُمْ كُفّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمُ الْحَقّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتّى يَأْتِىَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنّ اللّهَ عَلَى كُلِ شَىْءٍ قَدِيرٌ ، باشتماله على قوله حَتّى يَأْتِىَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إشارة إلى هذا المعنى . أي : أنّ أمر الله الذي ينبغي أن يأتي ، ويخرج المؤمنون من طمع الكفّار ، هو ولاية أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب التي سيثبت الدين بواسطتها .

وهذا يؤيّد ما ورد من الروايات أنّ الآية نزلت يوم غدير خمّ ، وهو اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة سنة عشر من الهجرة في ولاية عليّ بن أبي طالب . ولذلك ترتبط الفقرتان الْيَومَ يَئِسَ الّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ و الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى أوضح الارتباط ، ولا يرد على هذا الوجه شيء من الإشكالات المتقدّمة .

ولمّا عُلِمَ معنى اليأس في الآية ، يتسنّى لنا أن نعرف أنّ الْيَومَ ظرف متعلّق بقوله : يَئِسَ الّذِينَ كَفَرُوا . وأنّ التقديم للدلالة على تفخيم أمر اليوم وتعظيم شأنه ، لما فيه من

خروج الدين من مرحلة القيام بالقيّم الشخصيّ إلى مرحلة القيام بالقيّم النوعيّ ؛ ومن صفة الظهور والحدوث إلى صفة البقاء والدوام .

الآية الكريمة الْيَومَ يَئِسَ الّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ تبيّن حكماً خارجيّاً وتكوينيّاً يشتمل على البشرى من وجه ، والتحذير من وجه آخر ، ويدلّ على تعظيم أمر اليوم لاشتماله على خير عظيم الجدوى ، وهو يأس الذين كفروا من دين المؤمنين . والمراد بالذين كفروا مطلق الكفّار من يهود ونصارى ووثنيّين ومجوس ، لإطلاق اللفظ .

وأمّا النهي في قوله : فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَونِ فهو نهي إرشاديّ لا مولويّ . ومعناه أن لا موجب للخشية بعد يأس الكفّار الذين كنتم في معرض الخطر من قبلهم ؛ لأنّه من المعلوم أنّ الإنسان لا يهمّ بأمر بعد تمام اليأس من الحصول عليه ولا يسعى إلى ما يعلم أنّه خطأ . فأنتم أيّها المسلمون في أمن من ناحية الكفّار ، ولا ينبغي لكم مع ذلك الخشية منهم على دينكم ! فلا تخشوهم على دينكم واخشوني !

بمقتضى سياق الآية : فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَونِ يظهر أنّ المراد بقوله : وَاخْشَونِ ، أن اخشوني فيما كان عليكم أن تخشوهم فيه لولا يأسهم . وهو الدين ونزعه من أيديكم ؛ وهذا نوع من الخشية الخاصّة .

أي : عليكم أن تخشوني في الدين ونزعه من أيديكم . وهذا نوع تهديد للمخاطبين ، ولهذا لم نحمل الآية على الامتنان .

ويؤيّد ما ذكرنا أنّ الخشية من الله واجبة على أيّ تقدير من غير أن تتعلّق بوضع دون وضع ، وظرف دون ظرف . ولو لم تكن خشية خاصّة في وضع خاصّ ، فلا وجه للإضراب من قوله : فَلاَ تَخْشَوْهُمْ إلى قوله : وَاخْشَونِ . فهذه الآية تأمر بخشية خاصّة غير الخشية العامّة التي تجب على المؤمن على كلّ تقدير ، وفي جميع الأحوال لا تخلو من نوع من التحذير والتهديد . فلننظر ما هي خصوصيّة هذه الخشية ؟ وما هو السبب الموجب لوجوبها والأمر بها في هذه الآية الكريمة ؟

لا شكّ أنّ هاتين الفقرتين من الآية ، أعني قوله : الْيَومَ يَئِسَ الّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ ، وقوله : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى مرتبطتان مسوقتان لغرض واحد ، كما أشرنا من قبل . فالدين الذي أكمله الله ذلك اليوم ، والنعمة التي أتمّها ـــ وهما أمر واحد بحسب الحقيقة ـــ هو الذي كان يطمع فيه الكفّار ويخشاهم فيه المؤمنون ، فأيأسهم الله منه ، وأكمله وأتمّه للمؤمنين ، ونهاهم عن أن يخشوهم فيه .

فالشيء الذي أمر الله المؤمنين بالخشية من نفسه فيه هو ذاك بعينه الذي أكمله الله وأتمّه . والخشية من الله فيه تتمثّل في أن ينزع الله الدين من أيديهم ، ويسلبهم هذه النعمة الموهوبة .

ونعلم أنّ الله بيّن في القرآن الكريم أن لا سبب لسلب النعمة إلّا الكفر بها ، وهدّد الكفور أشدّ التهديد ، فقال جلّ من قائل : ذَ لِكَ بِأَنّ اللَهَ لَمْ يَكُ مُغَيّرًا نّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتّى يُغَيّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنّ اللَهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . (٦٣)

وقال تعالى : وَمَن يُبَدّلْ نِعْمَةَ اللَهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنّ اللَهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . (٦٤)

وضرب الله تعالى في القرآن الكريم مثلاً عامّاً لنعمه التي ينعم بها على عباده ، وما يؤول إليه أمر الكفر بها ، فقال : وَضَرَبَ اللَهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مّطْمَئِنّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مّن كُلِ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَهِ فَأَذَ قَهَا اللَهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . (٦٥)

وفي ضوء ما قيل فإنّ قوله : الْيَومَ يَئِسَ الّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ إلى قوله : وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا يؤذن بأنّ المسلمين في أمن من جهة الكفّار وهم مصونون من الخطر المتوجّه من قبلهم ، وأنّهم لا يتسرّبْ إليهم شيء من الفساد والهلاك إلّا من قبل المسلمين أنفسهم . وأنّ ذلك إنّما يكون بكفرهم بهذه النعمة التامّة ورفضهم هذا الدين الكامل . وحينئذٍ يسلبهم الله نعمته ويغيّرها إلى النقمة ؛ ويذيقهم لباس الجوع والخوف .

أجل قد فعل المسلمون ذلك ففعل الله بهم أيضاً . تغيّروا فغيّر الله نعمته . ومن أراد الوقوف على مبلغ صدق هذه الآية وإخبارها بالغيب المستفاد من قوله فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَونِ ، فعليه أن يتأمّل في انحطاط العالَم الإسلاميّ هذا اليوم ، ثمّ يرجع القهقرى ، فيتصفّح التأريخ ، ويحلّل أحداثه واحداً بعد الآخر حتّى يحصل على أُصول القضايا وجذورها بعد وفاة الرسول الأعظم .

بعد وفاة الرسول الأعظم .

وبعد أن عرفنا معنى اليوم ، علينا أن نعرف معنى الكمال والتمام . قال الراغب الإصفهانيّ في «مفردات القرآن» : كَمَالُ الشّيءِ حُصُولُ مَا هُوَ الغَرَضُ مِنهُ ــ انتهى . وقال : وتَمَامُ الشّيءِ انْتِهَاؤُهُ إلَى حَدّ لَا يَحْتَاجُ إلِى شَيءٍ خَارِجٍ عَنهُ . وَالنّاقِصُ مَا يَحتَاجُ إلَى شَيءٍ خَارِجٍ عَنهُ ــ انتهى .

ونقول لتوضيح هذا المعنى : آثار الأشياء على ضربين : ضرب منها ما يترتّب على الشيء عند وجود جميع أجزائه بحيث لو فقد شيء من أجزائه أو شرائطه لم يترتّب عليه ذلك الأمر ، كالصوم فإنّه يفسد إذا أُخِلّ بالإمساك في بعض النهار ، ويسمّى كون الشيء على هذا الوصف بالتمام . كقوله تعالى : ثُمّ أَتِمُوا الصِّيَامَ إلَى الّيْلِ . (٦٦)

وقوله : وَتَمّتْ كَلِمَتُ رَبّكَصِدْقًا وَعَدْلًا . (٦٧)

وضرب آخر : الأثر الذي يترتّب على الشيء من غير توقّف على حصول جميع أجزائه ، بل أثر المجموع كمجموع آثار الأجزاء . فكلّما وجد جزء ترتّب عليه من الأثر ما هو بحسبه . ولو وجد الجميع ترتّب عليه كلّ الأثر المطلوب منه ، كقوله : فَمَن لّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَثَةِ أَيّامٍ فِى الْحَجِ وَسَبْعَةٍ إذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ . (٦٨)

ذلك أنّنا نعلم أنّ أثر الترتّب على بعض هذه الأيّام لا يتوقّف على الأثر المترتّب على المجموع من حيث المجموع ، وكلّ يوم وحده موضع ترتّب الأثر وصحّة الصوم .

ومن هنا ينتج أنّ قوله تعالى : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى يفيد أنّ المراد بالدين هو مجموع المعارف والأحكام المشرّعة ، وقد أُضيف إلى عددها اليوم شيء ؛ وأنّ النعمة أمر معنويّ واحد كأنّه كان ناقصاً غير ذي أثر ، فتمّ وترتّب عليه الأثر المتوقّع منه .

والنعمة هي ما يلائم طبع الشيء من غير امتناعه منه . والأشياء وإن كانت بحسب وقوعها في نظام التدبير متّصلة مرتبطة متلائمة ، وأكثرها أو جميعها نِعم إذا أُضيفت إلى بعض آخر مفروض ، كما قال تعالى : وَإِن تَعُدّوا نِعْمَتَ اللَهِ لَا تُحْصُوهَا . (٦٩)

وقال : وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهِرَةً وَبَاطِنَةً . (٧٠)

إلّا أنّه تعالى وصف بعضها بالشرّ والخسّة واللعب واللهو وأوصاف أُخرى غير ممدوحة . كقوله : وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدّنْيَآ إلّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنّ الدّارَ الْأَخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . (٧١)

وقوله : لَا يَغُرّنّكَ تَقَلّبُ الّذِينَ كَفَرُوا فِى الْبِلَدِ * مَتَعٌ قَلِيلٌ ثُمّ مَأْوَبهُمْ جَهَنّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . (٧٢)

وهذه الآيات تدلّ على أنّ هذه الأشياء المعدودة نعماً إنّما تكون نعمة إذا وافقت الغرض الإلهيّ من خلقتها لأجل الإنسان . فإنّها إنّما خلقت لتكون إمداداً إلهيّاً للإنسان يتصرّف فيها

في سبيل سعادته الحقيقيّة وهي القرب منه سبحانه وتعالى بالعبوديّة والخضوع لربوبيّته العزيزة .

قال تعالى : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنسَ إِلّا لِيَعْبُدُونَ . (٧٣)

فكلّ ما تصرّف فيه الإنسان للسلوك به إلى حضرة القرب من الله وابتغاء مرضاته فهو نعمة . وإن انعكس الأمر عاد نقمة في حقّه .

وعلى هذا فالأشياء في نفسها بدون ملاحظة هاتين الجهتين ، لا نعمة ، ولا نقمة . وإنّما هي نعمة لاشتمالها على روح العبوديّة ، ودخولها من حيث التصرّف المذكور تحت ولاية الله التي هي تدبير الربوبيّة لشؤون العبد . ولازمه أنّ النعمة بالحقيقة هي الولاية الإلهيّة . وأنّ الشيء إنّما يصير نعمة إذا كان مشتملاً على شيء منها ، وهي العبوديّة .

قال تعالى : اللَهُ وَلِيّ الّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مّنَ الظّلُمَتِ إِلَى النّورِ . (٧٤)

وقال : ذَ لِكَ بِأَنّ اللَهَ مَوْلَى الّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنّ الْكَفِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ . (٧٥)

وقال في حقّ ولاية رسوله :

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمّ لَا يَجِدُوا فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا . (٧٦)

لذلك ، فالإسلام ، وهو مجموع ما نزل من عند الله ليعبده به عباده ، دين . وهو من جهة اشتماله ــ من حيث العمل به ــ على ولاية الله وولاية رسوله وأولياء الأمر بعده نعمة .

ولا تتمّ ولاية الله سبحانه وتعالى ، أي : تدبيره بالدين لأُمور عباده ، إلّا بولاية رسوله ، ولا ولاية رسوله إلّا بولاية أُولي الأمر من بعده .

وتدبير أُولي الأمر للشؤون الدينيّة بإذن من الله ، كما قال عزّ من قائل :

يَأَيّهَا الّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَهَ وَأَطِيعُوا الرّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنكُمْ . (٧٧)

وقال أيضاً : إِنّمَا وَلِيّكُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ وَالّذِينَ ءَامَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَوةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَوةَ وَهُمْ رَ كِعُونَ . (٧٨)

ونحن تحدّثنا بالتفصيل عن تفسير هذه الآية الكريمة في الدرس الثاني والسبعين إلى الدرس الخامس والسبعين من دروس الجزء الخامس من كتابنا هذا .

وحاصل القول في تفسير الآية التي هي موضع بحثنا : الْيَومَ وهو اليوم الذي يئس فيه الذين كفروا من دينكن ، أَكْمَلْتُ لَكُمْ مجموعة المعارف الدينيّة التي أنزلها إليكم بفرض الولاية ، و أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ، وهي الولاية التي تمثّل إدارة شؤون الدين وتدبيرها تدبيراً إلهيّاً . فإنّها كانت إلى اليوم ولاية الله ورسوله ، وهي إنّما تكفي ما دام الوحي ينزل ، ولا تكفي لما بعد ذلك من زمان انقطاع الوحي . فلا رسول بين الناس يحمي دين الله

ويذبّ عنه . والواجب في هذه الحالة أن ينصّب من يقوم بذلك ، وهو وليّ الأمر بعد رسول الله القيّم على أُمور الدين والأُمّة .

فالولاية في زمن رسول الله صلّى الله عليه وآله مشروعة واحدة كانت ناقصة غير تامّة حتّى إذا تمّت بنصب وليّ الأمر بعد النبيّ .

وعلى هذا ، يكون المعنى كالآتي : إذا كمل الدين في تشريعه ، وتمّت نعمة الولاية فقد رضيت لكم من حيث الدين الإسلام الذي هو دين التوحيد الذي لا يعبد فيه إلّا الله ، ولا يطاع فيه إلّا الله ، ومَن أمر بطاعته من رسول أو وليّ .

فهذه الآية تنبئ عن أنّ المؤمنين اليوم في أمن بعد خوفهم ، وأنّ الله رضي لهم أن يتديّنوا بالإسلام الذي هو دين التوحيد . فعليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً بطاعة غير الله أو من أمر بطاعته .

وإذا تدبّرنا فقرات هذه الآية من الْيَومَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَونِ ، ومن الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا ، وتمعّنا في فقرات الآية ٥٥ من سورة النور ، وجدنا أنّ آية سورة المائدة من مصاديق إنجاز الوعد الذي وعده الله المؤمنين في تلك السورة ، إذ يقول عزّ اسمه هناك :

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيًْا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَ لِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَسِقُونَ .

نلحظ في هذه الآية أنّ الله قد قدّم للمؤمنين العاملين الصالحات وعوداً وجعل الهدف من هذه الوعود المتمثّلة بالتمكّن في الأرض ، واستبدال الأمن بالخوف ، والخلافة ، وإمكان العمل بالدين المرضيّ ، التوحيد في العبادة ، وعدم الشرك «يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيًْا» كما أنّ قوله : «وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَ لِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَسِقُونَ» إشارة إلى هذا الهدف أيضاً . فعلى هذا ، يلاحظ جيّداً أنّ الفقرات التالية هي من مصاديق إنجاز تلك الوعود : الْيَومَ يَئِسَ ، الْيَومَ أَكْمَلْتُ ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا . وسيكون ظهور قائم آل محمّد الحجّة ابن الحسن العسكريّ أرواحنا فداه من المصاديق الأُخرى ، بل من أوضحها وأكثرها إشراقاً .

ولمّا كانت سورة النور قبل سورة المائدة نزولاً ، كما يدلّ عليه اشتماله على قضيّة الأفك ، وآية الجَلْد ، وآية الحجاب ، فإنّ تلك الوعود السالفة قد تحقّقت في الزمن اللاحق المتمثّل بيوم غدير خمّ .

علمنا ممّا تقدّم من البحث أنّ اليوم الذي هو ظرف ليأس الكافرين ، وإكمال الدين ، وإتمام النعمة على المؤمنين لا يمكن أن يكون غير يوم الغدير . وهذا هو البحث المستفاد من الآية نفسها دون أن نضمّ إليها الروايات . فعلى هذا قلنا : إنّ الروايات المأثورة عن

العامّة التي يصل سندها إلى عمر غالباً ، وتذكر أنّ المراد من «الْيَومَ» هو يوم عرفة ليس لها أيّ اعتبار لأنّ مضمونها يخالف الكتاب . وذِكر البخاريّ ومسلم تلك الروايات في صحيحيهما ليس دليلاً على صحّتها ، كما قلنا إنّ البخاريّ ومسلم قد تفرّدا في عدم نقل قصّة الغدير . ومن هنا يمكن أن نقف على قيمة هذين الكتابين ووزنهما . فما شأن صاحبيهما لم يذكرا الغدير ، وهو من المسلّمات ، بل من ضرورات الإسلام ، بل ضرورات التأريخ ، فتأمّل جيّداً . ثمّ تأمّل في السبب الذي دعا إلى الشأن الذي يتمتّع به الكتابان عند علماء العامّة الذين تربّعوا على أريكة الإفتاء والتفسير والحديث أيّام العبّاسيّين وبعدهم .

يضاف إلى ذلك كلّه ، أنّ الأحاديث الواردة في نزول الآية : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ في ولاية أمير المؤمنين عليه أفضل صلوات المصلّين التي تربوا على العشرين عن طريق الفريقين مرتبطة بما ورد في شأن نزول آية التبليغ : يَآ أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ وَاللَهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَفِرِينَ . وتربوا تلك الأحاديث أيضاً عن الفريقين على خمسة وعشرين حديثاً . وهاتان الطائفتان من الأحاديث كلّها مرتبطة بحديث الغدير : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ . وكما عرفنا ، فإنّ حديث الغدير حديث متواتر ، بل هو فوق التواتر إذ رواه جمّ غفير من الصحابة يزيد عددهم على مائة وعشرة ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم . ومضافاً إلى جميع علماء الشيعة فقد اعترف بتواتره جمع كثير من علماء العامّة .

ومن المتّفق عليه أنّ ذلك كان في منصرف رسول الله صلّى الله عليه وآله من مكّة إلى المدينة ، بعد يوم عرفة بتسعة أيّام . وهذه الولاية فريضة من الفرائض كالتولّي والتبرّي الذين نصّ عليهما القرآن الكريم في آيات كثيرة . فلم يجز أن يكون وجوبها وتشريعها بعد قوله : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . فعلى هذا نزلت آية الإكمال بعد تشريع الولاية ، ولا يمكن أن يكون اليوم يوم عرفة . وهكذا فالروايات المنافية لنزول الآية في يوم الغدير ساقطة من درجة الاعتبار ذاتيّاً لمخالفة مضمونها الكتاب .

ولكن هنا نكتة يجب التنبيه عليها وهي : أنّ التدبّر في الآيتين الكريمتين : يَآ أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ و الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا ، والتدبّر في الأحاديث الواردة من طرق الفريقين في تفسير هاتين الآيتين ، وكذلك في روايات الغدير المتواترة ، ودراسة أوضاع المجتمع الإسلاميّ الداخليّة في أواخر حياة رسول الله صلّى الله عليه وآله والبحث العميق في خصوصيّاتها ، كلّ ذلك يفيد القطع واليقين للباحث والمتتبّع في التأريخ والحديث والتفسير بأنّ أمر الولاية ووجوبها وتشريعها كلّ أُولئك كان نازلاً قبل يوم الغدير بأيّام ، وكان النبيّ يتّقي الناس في إظهاره ، ويخاف أن لا يتلقّوه بالقبول ، أو يسيئوا القصد إليه ،

فيختلّ أمر الدعوة ؛ فكان لا يزال يؤخّر تبليغه الناس من يوم إلى غد حتّى نزل قوله تعالى : يَآ أَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ في يوم الغدير ، فلم يمهل في ذلك .

وعلى هذا فمن الجائز أن ينزل الله سبحانه وتعالى معظم السورة ، وفيه قوله الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وينزل معه أمر الولاية ، كلّ ذلك يوم عرفة ، فأخّر النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله تبليغ ذلك للناس حتّى يوم الغدير ، وقد كان تلا آية الإكمال يوم عرفة .

وأمّا اشتمال بعض الروايات على نزولها يوم الغدير ، فليس من المستبعد أن يكون ذلك لتلاوة رسول الله الآية مقارنة لتبليغ أمر الولاية ، لكونها في شأنها .

ولذلك يجمع بين هاتين المجموعتين من الروايات ــ الروايات الواردة في نزول آية الإكمال يوم عرفة ، والواردة في نزولها يوم الغدير ــ ولا تنافي بينها ، فإنّ التنافي إنّما كان يتحقّق لو كان النزول في يوم عرفة ، ويوم الغدير . وأمّا لو كان النزول في يوم عرفة ، والإبلاغ في يوم الغدير فلا تنافي في الموضوع . وأمّا ما جاء في الروايات أنّه يوم عرفة حيث إنّ الآية تدلّ على كمال الدين بالحجّ وما أشبهه ، فهو من فهم الراوي ولا ينطق به الكتاب ، ولا بيان من النبيّ يُعتمد عليه .

والشاهد على هذا الجمع بين هاتين المجموعتين من الروايات رواية نقلها العيّاشيّ في تفسيره عن جعفر بن محمّد بن محمّد الخزاعيّ ، عن أبيه ، قال : سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول :

لَمّا نَزَلَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ عَرَفَاتَ يَومَ الجُمُعَةِ أَتَاهُ جَبْرَئِيلُ فَقَالَ لَهُ : إنّ اللهَ يُقْرِئكَ السّلَامَ ويَقُولُ لَكَ : قُلْ لأُمّتِكَ : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ بولَايَةِ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا ، ولَسْتُ أُنْزِلُ عَلَيْكُمْ بَعْدَ هَذَا ، قَدْ أَنْزَلْتُ عَلَيْكُمُ الصّلَاةَ وَالزّكَاةَ وَالصّوْمَ وَالْحَجّ ، وَهِيَ الْخَامِسَةُ ، وَلَسْتُ أَقْبَلُ هَذِهِ الأَرْبَعَةَ إلّا بِهَا . (٧٩)

على أنّ فيما نقل عن عمر من نزول الآية يوم عرفة إشكالاً آخر ، لأنّه جاء في جميع هذه الروايات أنّ بعض أهل الكتاب ــ وفي بعضها أنّه كعب ــ (٨٠) قال لعمر : إنّ فِي القُرْآنِ آيَةً لَوْ نَزَلَتْ مِثْلُهَا عَلَيْنَا مَعْشَرَ اليَهُودِ لَاتّخَذْنَا الْيَوْمَ الّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عِيداً ــ وَهِيَ قَوْلُهُ : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ـــ الآية .

فَقَالَ عُمَرُ : وَاللهِ إِنّي لَأَعْلَمُ اليَوْمَ ، وَهُوَ يَوْمُ عَرَفَةَ مِنْ حِجّةِ الوَدَاعِ . (٨١)

وروى ابن راهويه ، وعبد بن حميد ، عن أبي العالية ، قال : كانوا عند عمر ، فذكروا هذه الآية ، فقال رجل من أهل الكتاب : لو علمنا أيّ يوم نزلت هذه الآية ، لاتّخذناه عيداً ، فقال عمر : الحَمْدُ للّهِ الّذِي جَعَلَهُ لَنَا عِيداً وَالْيَوْمَ الثّانِي ، نَزَلَتْ يَوْمَ عَرَفَةَ ، وَيَوْمُ الثّانِي النّحْرُ فَأَكْمَلَ لَنَا الأَمْرَ فَعَلِمْنَا أَنّ الأَمْرَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي انْتِقَاصٍ . (٨٢)

ونقل السيوطيّ ذيل هذه الرواية في «الدرّ المنثور» بشكل آخر عن ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، عن عنترة ، قال : لمّا نزلت [الآية] : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، و [كان] ذلك يوم الحجّ الأكبر (يوم عيد الأضحى) بكى عمر ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : ما يبكيك ؟! قال : أَبْكَانِي أَنّا كُنّا فِي زِيَادَةٍ مِنْ دِينِنَا فَأَمّا إِذْ كَمُلَ فَإِنّهُ لَمْ يَكْمُلْ شَيءٌ قَطّ إِلّا نَقَصَ . قَالَ : صَدَقْتَ ! (٨٣)

وجاء مثل هذه الرواية أيضاً في «الدرّ المنثور» عن أحمد بن حنبل ، عن عَلْقَمة بن عبد الله المُزنيّ [أَنّهُ] قال : حدّثني رجل قال : كنت في مجلس عمر بن الخطّاب ، فقال عمر لرجل من القوم : كيف سمعت رسول الله ينعت الإسلام ؟!

قال [ذلك الرجل] : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَهِ صَلّى اللّهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ يَقُولُ : إِنّ الإِسْلَامَ بَدَأَ جَذَعَاً ثُمّ رَبَاعِيَاً ثُمّ سَدَسِيّاً ثُمّ بَازِلاً (٨٤) . قَالَ عُمَرُ : فَمَا بَعْدَ البُزُولِ إِلّا النّقْصَانُ . (٨٥)

فهذه الروايات مجموعة تدلّ على أنّ معنى نزول الآية في يوم عرفة عند عمر ، وأبي بكر يتمثّل في إلفات نظر الناس إلى ما شاهدوه من عظمة الإسلام في موسم الحجّ بمكّة ، وأنّ تفسير إكمال الدين وإتمام النعمة يتجسّد في صفاء الجوّ وخلوصه للمسلمين حينئذٍ فيها ، فلا دين يتعبّد به إلّا الإسلام ، بحيث أدّى المسلمون فريضة الحجّ باطمئنان تامّ غير مبالين بالكفّار . وبعبارة أُخرى ، المراد بكمال الدين وتمام النعمة : الأُسلوب الذي كان ينتهجه المسلمون ويعملون به من غير أن يختلط بهم أعداؤهم من الكفّار ، أو أن يحذرهم المسلمون مرغمين ، وليس المراد به الشريعة المجعولة من عند الله المشتملة على الأحكام والمعارف . وكذلك المراد بالإسلام هو ظاهر الإسلام الموجود بأيديهم في مقام العمل .

وملخّص الكلام : أنّ المراد بالدين هو الدين الملحوظ عبر الأعمال والممارسات التي كان يزاولها المسلمون ، والمراد بالإسلام هو الشكل الظاهر منه ، من حيث الشوكة والقوّة . فهذا المعنى هو الذي يقبل الزيادة والنقصان . وأمّا المبادئ العامّة للأحكام والمعارف المشرّعة والنازلة من عند الله ، فلا تقبل الزيادة والنقصان ، لأنّ تلك الزيادة والنقصان اللذين جاءا على لسانه إنّهُ لَمْ يَكْمُلْ شَيءٌ قَطّ إِلّا نَقَصَ ، فهما سنّة طبيعيّة وكونيّة تجري في التأريخ والمجتمع تبعاً للكون والطبيعة أنفسهما . وأمّا الدين فإنّه لا يخضع لمثل هذه السنن والنواميس أبداً ، وتلك الحقيقة المُشَرّعة لا تتغيّر ولا تتبدّل إلّا عند من يقول الدين سنّة اجتماعيّة متغيّرة ومتطوّرة كسائر السنن الاجتماعيّة . وإذا عرفنا ذلك ، علمنا أنّه ترد إشكالات على هذا اللون من التفكير :

أوّلاً : أنّ المعنى الذي زعموه أنّه معنى الدين لا يمثّل الدين ، وأنّ قوله تعالى : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ لا يصدق عليه .

وثانياً : كيف يمكن أن يطلق الله صفة الكمال على الدين بصورته التي كان يتراءى عليها ، وينسبه إليه ، ويمنّ به على الأُمّة ؟ بمجرّد خلوّ الأرض من ظاهر المشركين ،

وأنّ المسلمين يستطيعون ممارسة أعمالهم مطمئنّين من غير أن ينالهم مكر المشركين وكيدهم ، وفيهم من هو أشدّ من المشركين إضراراً وإفساداً ، وهم المنافقون الذين كانوا يكيدون للمسلمين باستمرار من خلال تكتّلاتهم الدقيقة واجتماعاتهم السرّيّة وتغلغلهم في صفوف المسلمين ، وإفساد الحال ، وتقليب الأُمور ، والإرجاف والدسّ في الدين ، وإلقاء الشبهات بين المسلمين .

وللمنافقين نبأ عجيب وعظيم تعرّضت له آيات جمّة من القرآن الكريم كسورة «المنافقون» ، وما في سور البقرة ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، وبراءة ، والأحزاب ، وغيرها .

ولا ندري كيف بادت زمرتهم بمجرّد نزول آية الإكمال ؟ وكيف خمدت أنفاسهم في صدورهم ؟ وعلى أيّ طريق بطل كيدهم ومكرهم ؟ وكيف زهق باطلهم ؟ وأنّى يكون المنّ على المسلمين بإكمال ظاهر الدين ، وإتمام ظاهر النعمة وهم متغلغلون في صفوفهم ؟ وكيف يرضى الله الإسلام ديناً بمجرّد طرد أعداء المسلمين من مكّة ؟ ونحن نعلم بشهادة القرآن والتأريخ أنّ المنافقين كانوا أعدى منهم ، وأعظم خطراً ، وأمرّ أثراً . وتصديق ذلك قوله تعالى يخاطب نبيّه فيهم : هُمُ الْعَدُوّ فَاحْذَرْهُمْ [٨٦]

وكيف نتصوّر أنّ الله سبحانه يمنّ على المسلمين ، ويصف بالكمال ظاهرَ دينٍ هذا باطنه ؟ وكيف يصف نعمته بالتمام وهي مشوبة بالنقمة ؟ أو يخبر برضاه صورة إسلام هذا معناه ؟ وهو القائل جلّ من قائل : وَمَا كُنتَ مُتّخِذَ الْمُضِلّينَ عَضُدًا . [٨٧] والقائل في المنافقين ودينهم ونهجهم : فَإِن تَرْضَوا عَنْهُمْ فَإِنّ اللّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَسِقِينَ . [٨٨] والقائل أيضاً : سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ إِنّ اللّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَسِقِينَ . [٨٩] والقائل كذلك : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ . [٩٠]

يضاف إلى ذلك أنّ في الآية إطلاقاً ، وأنّها لا تقيّد إكمال الدين ، وإتمام النعمة ، ورضا الله عن الإسلام بجهة دون أُخرى ، مثلاً بالظاهر دون الباطن ، أو بالشكل دون المعنى .

وكما قلنا ، فإنّ آية الإكمال هي من مصاديق قوله : وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصّلِحَتِ (آية الاستخلاف) ، والوعد في تلك الآية ليس لجميع المسلمين بما فيهم المسلمون ظاهريّاً ، بل المراد طائفة خاصّة من المسلمين الذين ينسجم ظاهرهم مع باطنهم ، وتنطبق ممارساتهم العمليّة على الدين المشرّع من الله . وعلى هذا فإنّ المراد من إكمال دينهم المرضيّ للّه سبحانه هو تكميل الحقائق الدينيّة المشرّعة عند الله سبحانه وتعالى وقد أفرغها في قالب التشريع وأنزلها حتّى تتمكّن في قلوبهم ليعبدوه بعد أياس الذين كفروا من دينهم .

وهذا المعنى هو الذي ذكرناه : إنّ معنى إكمال الدين إكماله من حيث تشريع الفرائض ــ فلا فريضة مشرّعة بعد نزول الآية ــ لا تخليص أعمالهم وخاصّة حجّهم من أعمال

المشركين بحيث لا تختلط أعمال حجّهم معاً . وبعبارة بسيطة : يكون معنى إكمال الدين رفعه إلى أعلى مدارج الترقّي من جهة تشريع الأحكام وكشف المعارف الحقّة الحقيقيّة ، وفي هذه الحالة فلا معنى للنقص بعد الزيادة . (٩١)

إنّ البحث الذي أتينا به هنا في تفسير الآية الكريمة : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا ملخّص وجوهرة للكلمات النفيسة والقيّمة لأُستاذنا الجليل سماحة آية الله العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله تربته الزكيّة التي طرحها في دروسه التفسيريّة وفي «الميزان في تفسير القرآن» . (٩٢)

إنّ الموضوع الباعث على العجب في الآية الكريمة : الْيَومَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ ، والآية : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ إلى قوله : وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا هو محلّها وموضعها ، إذ بالنظر إلى ما بيّناه مفصّلاً في تفسير هذه الآية الكريمة ، ودلالتها التامّة الواضحة على الولاية ، كيف جاءت في وسط الآية التي تتحدّث عن محرّمات الطعام ، وبين جملة المستثنى منه وجملة الاستثناء . ذلك أنّ صدر الآية هكذا : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَة وَالْمَوْقُوذَة وَالْمُتَرَدِّيَة وَالنَّطِيحَة وَمَآ أَكَلَ السَّبُع إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَ لِكُمْ فِسْقٌ .

ثمّ ذكرت الآية التي هي موضع بحثنا كاملة على المنوال التالي : الْيَومَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَونِ الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا .

وبعد هذه الآية ، جاء الاستثناء الواقع في محرّمات الطعام كالآتي :

فَمَنِ اضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

ولو أنعمنا النظر في صدر الآية وذيلها ، أعني قوله : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ ، وقوله : فَمَنِ اضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ ، نجد كلاماً تامّاً غير متوقّف في تمام معناه وإفادة المراد منه على قوله : الْيَومَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ إلى قوله : وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا . والآية في إفادة المعنى بعينها كالآيات في سور البقرة ، والأنعام ، والنحل . وقد بيّنت محرّمات الطعام من حيث جملة المستثنى منه ، ومن حيث الجملة الاستثنائيّة .

والآية في سورة البقرة هي : إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَهِ ، والاستثناء فيها هكذا : فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . (٩٣)

والآية في سورة الأنعام هكذا : قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . (٩٤)

والآية في سورة النحل : إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ ، والاستثناء فيها : فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . (٩٥)

نرى في هذه الآيات الأربع الواردة في سور (المائدة ، والبقرة ، والأنعام ، والنحل) أنّ الله عرض محرّمات الطعام بنمط واحد وسياق واحد ، وكذلك بيّن جواز أكلها اضطراراً بنسق واحد وسياق واحد . وأنّ ما أخلّ بسبكها وفصل بين محرّمات الطعام وبين موارد جوازها ، هو قوله : الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ إلى قوله : وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا الواردة في سورة المائدة ، وفصل بين محرّمات الطعام التي تؤلّف جملة المستثنى منه ، وبين مواضع الاضطرار التي تشكّل جملة المستثنى ، مع أنّ هاتين الجملتين : جملة المحرّمات ، وجملة مواضع الاضطرار ، وهما المستثنى والمستثنى منه ، لا حاجة لهما بهذه الجملة المعترضة أبداً من حيث تمام المفاد .

لقد فُصل بين هذه الجمل ليختلط البحث ، ويُظَنّ أنّ المراد من اليوم الذي يئس فيه الكفّار من دين الإسلام ، وأنّ المسلمين يجب أن لا يخشوهم بل يخشوا الله في ذلك اليوم ، وأنّ اليوم الذي أكمل الله فيه الدين ، وأتمّ فيه النعمة على المسلمين ، هو يوم ينزل فيه ـــ مثلاً ـــ حكم المتردّية ، والمنخنقة ، والموقوذة ، والنطيحة ، وتُبيّن حرمتها ، حتّى تفقد تلك الجمل ، ذات المفاد العالي والمحتوى الراقي ، النازلة في الولاية بحيث لا يمكن أن تكون في غيرها ، أهمّيتها وتسقط في أعين الناس فلا يفكّروا بها ، ولا يبحثوا عن محتواها ومفادها ، ويخالوا أنّ آية إكمال الدين وإتمام النعمة التي تعني عدم النقص في الإسلام ، ويليق بها أن يرضى الله ذلك الدين ، تحوم حول أُمور عاديّة لا شأن لها كالتعامل مع الكفّار وحلّيّة طعامهم للمسلمين ، وحلّيّة طعام المسلمين لهم وأمثال ذلك .

ومحصّل كلامنا هو أنّ قوله : الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا كلام معترض وجملة معترضة جاءت في وسط الآية ، ولأجل إكمال معنى الآية لا يوجد أيّ توقّف على دلالة هذا الكلام ، سواء قلنا : إنّ الآية نازلة في وسط الآية فتخلّلت بين جملة المحرّمات وجملة الجواز عند الضرورة من أوّل ما نزلت ، أو قلنا : إنّ الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله هو الذي أمر كتّاب الوحي بوضع الآية في هذا الموضع مع فرض انفصال الآيتين واختلافهما نزولاً ، وبُعد هذا الاحتمال في غاية البعد ، أو قلنا : إنّها موضوعة في موضعها الذي هي فيه عند تأليف القرآن من غير أن تصاحبها نزولاً .

على أيّ حال ، أنّ قوله : الْيَوْمَ يَئِسَ كلام مستقلّ ، وقد حافظ على استقلاله أيضاً حتّى مع ملاحظة صدر الآية وذيلها ، ووروده في هذا الموضع ، ووقوعه في هذا الموقع لن يستدعي تغيير معناه .

وأخرج عبد بن حميد عن الشعبيّ ، قال : نزل على النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم هذه الآية وهو بعرفة : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . وكان إذا أعجبته آيات جعلهن صدر السورة ، قال : وكان جبرئيل يعلّمه كيف ينسك . (٩٦)

وعلى هذا يمكن أن تكون هذه الآية قد وضعها جامعو القرآن في موضعها بعد النبيّ ، بالأخصّ أنّ الروايات الواردة عن طريق العامّة في نزول الآية : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ يوم عرفة ــ كما قلنا ــ تنتهي إلى عمر ، ومعاوية ، وسمرة بن جندب ، وعليّ بن أبي طالب . ووضع معاوية وسمرة بن جندب لا يخفى على أحد ولا يستهدف الرواة من إلصاق هذه الرواية بالإمام عليّ عليه السلام إلّا تشويه معالم القضيّة . صلّى الله عليك يا أبا الحسن ورحمة الله وبركاته .

وكم هو مناسب أن نأتي في ختام هذا البحث بمنتخب من القصيدة العصماء للحكيم العظيم : الملّا علي الخوئيّ الآذربايجانيّ التي أنشدها في وصف مولانا أمير المؤمنين عليه السلام على طريقة ومشرب أهل الفلسفة والحكمة :

هَا عَلِيّ بَشَرٌ كَيْفَ بَشَرْ ... رَبّهُ فِيهِ تَجَلّى وَظَهَرْ
مَا هُوَ اللهُ وَلَكِن مَثَلا ... مَعَهُ اللهُ كَنَارٍ وَحَجَرْ
عِلّةُ الكَوْنِ وَلَوْلاهُ لَمَا ... كَانَ لِلْعَالَمِ عَيْنٌ وَأَثَرْ
وَلَهُ أُبْدِعَ مَا تَعْقِلُهُ ... مِنْ عُقُولٍ وَنُفُوسٍ وَصُوَرْ
فَلَكٌ فِي فَلَكٍ فِيهِ نُجُومْ ... صَدَفٌ فِي صَدَفٍ فِيهِ دُرَرْ
جِنْسُ الأَجْنَاسِ عَلِيّ وَبَنُوه ... نَوْعُ الأَنْوَاعِ إِلَى الحَادِي عَشَرْ
كُلّ مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعْرِفُهُمْ ... مَوْتُهُ مَوْتُ حِمَارٍ وَبَقَرْ
لَيْسَ مَنْ أَذْنَبَ يَوْمَاً بِإِمَامْ ... كَيْفَ مَنْ أَشْرَكَ دَهْرَاً وَكَفَرْ
قَوْسُهُ قَوْسُ نُزُولٍ وَعُرُوجْ ... سَهْمُهُ سَهْمُ قَضَاءٍ وَقَدَرْ
أَيّهَا الخَصْمُ تَذَكّرْ سَنَدَاً ... مَتْنُهُ صَحّ بِنَصّ وَخَبَرْ
إِذْ أَتَى أَحْمَدُ فِي خُمّ غَدِيرْ ... بِعَلِيّ وَعَلَى الرّحْلِ نَبَرْ
قَالَ : مَنْ كُنْتُ أَنَا مَوْلَاهْ ... فَعَلِيّ لَهُ مَوْلَىً وَمَفَرْ
أَسَدُ اللهِ إِذَا صَالَ وَصَاحْ ... أَبُو الأَيْتَامِ إِذَا جَادَ وَبَرْ
حُبّهُ مَبْدَأُ خُلْدٍ وَنَعِيمْ ... بُغْضُهُ مَنْشَأُ نَارٍ وَسَقَرْ
مَنْ لَهُ صَاحِبَةٌ كَالزّهْرَاءْ ... وَسَلِيلٌ كَشُبَيْرٍ وَشَبَرْ
عَنْهُ دِيوَانُ عُلُومٍ وَحِكَمْ ... فِيهِ طُومَارُ عِظَاةٍ وَعِبَرْ
بُو تُرَابٍ وَكُنُوزُ العَالَمِ ... عِنْدَهُ نَحْوَ تُرَابٍ وَمَدَرْ
ظَلّ مَا عَاشَ بِجُوعٍ وَصِيَامْ ... بَاتَ مَا حَيّ بِدَمْعٍ وَسَهَرْ
كُلّمَا أَحْزَنَهُ الدّهْرُ سَلَا ... أَيْنَمَا اسْتَضْعَفَهُ اليَوْمُ صَبَرْ

نَاقَةُ اللَّهِ فَيَا شَقْوَةَ مَنْ   مَا رَعَاهَا فَتَعَاطَى فَعَقَرْ [٩٧]

وكم هو رائع وغزير المحتوى ما نظمه أبو بكر القُرَيْعيّ في كشف حقيقة خيانة الخلفاء ، وما أعقبته من آثار مشؤومة . وذكر أنّ الخلافة لو لم تغصب من الإمام المظلوم عليّ بن أبي طالب عليه السلام لما أصاب سهم حرملة عنق عليّ الأصغر يوم عاشوراء ، وذكر عليّ بن عيسى الإربليّ أبيات هذا الشاعر في كتابه النفيس [٩٨] ، ومنها :

يَا مَنْ يُسَائِلُ دَائِبَاً عَنْ كُلِّ مُعْضِلَةٍ سَخِيفَةْ   لَا تَكْشِفَنّ مُغَطّىً فَلَرُبّمَا كَشّفْتَ جِيفَةْ

وَلَرُبّ مَسْتُورٍ بَدَا كَالطّبْلِ مِنْ تَحْتِ القَطِيفَةْ   إنّ الجَوَابَ لَحَاضِرٌ لَكِنّنِي أُخْفِيهِ خِيفَةْ

لَوْلَا اعتِدَاءُ رَعِيّةٍ أَلْقَى سِيَاسَتَهَا الخَلِيفَةْ   وَسِيُوفُ أَعْدَاءٍ بِهَا هَامَاتِنَا أَبْدَاً نَقِيّةْ

لَنَشَرْتُ مِنْ أَسْرَارِ آلِ مُحَمّدٍ جُمَلاً طَرِيفَةْ   تُغْنِيكُمُ عَمّا رَوَاهُ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةْ

وَأَرَيْتُكُمْ أَنّ الحُسَينَ أُصِيبَ فِي يَوْمِ السّقِيفَةْ   وَلِأَيّ حَالٍ لُحّدَتْ بِاللّيْلِ فَاطِمَةُ الشّرِيفَةْ

وَلِمَا حَمَتْ شَيْخَيْكُمُ عَنْ وَطْيِ حُجْرَتِهَا المُنِيفَةْ   أُوّهْ لِبِنْتِ مُحَمّدٍ مَاتَتْ بِغُصّتِهَا أَسِيفَةْ [٩٩]

وجاء في «صحيح البخاريّ» أنّ عليّاً دفن فاطمة ليلاً ، وصلّى عليها ، ولم يخبر أبا بكر . [١٠٠]

وقال عليّ بن برهان الدين حسين الشافعيّ : وقال الواقديّ : وثبت عندنا أنّ عليّاً كرّم الله وجهه دفنها رضي الله عنها ليلاً وصلّى عليها ومعه العبّاس والفضل رضى الله عنهم ولم يعلموا بها أحداً . [١٠١]

وجاء في رجال الشيخ الحرّ العامليّ عن الكشّيّ بإسناده عن زرارة ، عن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال : قَدْ ضَاقَتِ الأَرْضُ بِسَبْعَةٍ بِهِمْ تُرْزَقُونَ وَبِهِمْ تُنْصَرُونَ وَبِهِمْ تُمْطَرُونَ ؛ مِنْهُمْ سَلْمَانُ وَالمِقْدَادُ وأَبُو ذَرّ وَعَمّارٌ وَحُذَيْفَةُ رَحْمَةُ اللَهِ عَلَيْهِمْ وَأَنَا إمَامُهُمْ . وَهُمُ الّذِينَ صَلّوا عَلَى فَاطِمَةَ . [١٠٢]

تعليقات:

١) من الآية ٣ ، من سورة المائدة : . ٥

٢) قال المجلسيّ في «بحار الأنوار» : هذا الكلام يطابق رواية العامّة الذين ينقلون أنّ رسول الله توفّي في الثاني عشر من ربيع الأوّل . أقول : جاء في «تفسير ابن كثير الدمشقيّ» طبعة دار الفكر ، ج ٢ ، ص ٤٨٩ : قال ابن جرير وغير واحد : مات رسول

الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم بعد يوم عرفة بأحد وثمانين يوماً . لذلك يمكن أيضاً أن نطبّق هذه المدّة على ما جاء في روايات الشيعة .

٣) مناقب ابن شهرآشوب» ج ١ ، ص ٥٢٧ و ٥٢٨ ، الطبعة الحجريّة .

٤) شواهد التنزيل» ج ١ ، ص ١٥٧ ، الحديث ٢١١ ، طبعة مؤسّسة الأعلميّبيروت .

٥) شواهد التنزيل» ج ١ ، ص ١٥٨ ، الحديث . ٢١٢

٦) فرائد السمطين» ج ١ ، ص ٧٣ ، الباب ١٢ ، الحديث . ٣٩

٧) فرائد السمطين» ج ١ ، ص ٧٤ و ٧٥ ، الحديث . ٤٠

٨) تاريخ دمشق » تاريخ أمير المؤمنين عليه السلام ، ج ٢ ، ص ٨٥ و ٨٦ ، الحديث ٥٨٥ .

٩) الدرّ المنثور» ج ٢ ، ص . ٢٥٩

١٠) الصحيح هو يوم الثامن عشر .

١١) شواهد التنزيل» ج ١ ، ص ١٥٨ ، الحديث . ٢١٣

١٢) تاريخ بغداد» ج ٨ ، ص ٢٩٠ ، طبعة مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة سنة ١٣٤٩ه .

١٣) البداية والنهاية» ج ٧ ، ص . ٣٤٩

١٤) الدرّ المنثور» ج ٢ ، ص ٢٥٩ ، طبعة دار المعرفة ــ بيروت .

١٥) شواهد التنزيل» ج ١ ، ص ١٦٠ ، الحديث . ٢١٥

١٦) القول بأنّ الغدير كان يوم الخميس مبنيّ على رواية أُخرى جاءت في كثير من الكتب ؛ إلّا أنّ ما حلّلناه سابقاً ، هو : أنّ عيد الغدير كان في يوم الأحد بناءً على أنّ يوم عرفة كان في يوم الجمعة .

١٧) في النسخة البدل : بِالنّبِيّ .

١٨) في النسخة البدل : نَبِيّنَا .

١٩) مناقب الخوارزميّ» الطبعة الحجريّة ، ص ٨٠ و ٨١ ، وطبعة النجف ص ٨٠ و ٨١؛ ونقل في « غاية المرام » القسم الأوّل ، ص ٣٣٦ و ٣٣٧ ، الباب التاسع والعشرون، الحديث الأوّل عن الخوارزميّ بنفس السند ، ولكنّه ذكر أربعة أبيات من أبيات حسّان ؛ ونقل صاحب «الميزان» ذلك في ج ٥ ، ص ٢٠٥ و ٢٠٦ عن «غاية المرام» ؛ ورواه في «الغدير» أيضاً ج ١ ، ص ٢٣٤ عن الخوارزميّ ؛ ونقل صاحب «الغدير» نفس مضمون الحديث في ج ١ ، ص ٢٣١ و ٢٣٢ بأنّ الحافظ أبا نُعَيم الإصفهانيّ رواه في كتاب «ما نزل من القرآن في عليّ» بسنده عن أبي سعيد الخدريّ ، وذكر في ذيله أبيات حسّان كاملة ؛ وكذلك ذكر صاحب تفسير «الميزان» في ج ٦ ، ص ٦٠ آية التبليغ وآية

إكمال الدين في أمير المؤمنين عليه السلام نقلاً عن أبي نعيم في كتاب «ما نزل من القرآن في عليّ» .

٢٠) مناقب الخوارزميّ» الطبعة الحجريّة ، ص ٩٤ ، وطبعة النجف ، ص ٩٤ ؛ و «الغدير» ج ١ ، ص ٢٣٤ نقلاً عن الخوارزميّ في «المناقب» .

٢١) مناقب ابن المغازليّ» الشافعيّ ، ص ١٨ و ١٩ ، الحديث ٢٤ ؛ وتفسير «الميزان» ج ٥ ، ص ٢٠٨ ، عن «مناقب ابن المغازليّ» .

٢٢) تفسير «الميزان» ج ٥ ، ص ٢٠٨ .

٢٣) فرائد السمطين» ج ١ ، ص ٧٢ و ٧٣ ، الباب ١٢ ، الحديث ٣٩ ؛ و «غاية المرام» القسم الأوّل ، ص ٣٣٧ ، الحديث الثاني ؛ و «الغدير» ج ١ ، ص ٢٣٥ ، الحديث ١٣ ؛ وتفسير «الميزان» ج ٥ ، ص ٢٠٦ و ٢٠٧ .

٢٤) فرائد السمطين» ج ١ ، ص ٧٤ و ٧٥ ، الباب ١٢ ، الحديث ٤٠ ؛ و «غاية المرام» القسم الأوّل ، ص ٣٣٧ الحديث الثالث ؛ و «الغدير» ج ١ ، ص ٢٣٥ ؛ وتفسير «الميزان» ج ٥ ، ص ،٢٠٦ و ٢٠٧ .

٢٥) غاية المرام» القسم الأوّل ، ص ٣٣٧ ، الحديث الرابع ؛ وتفسير «الميزان» ج ٥ ، ص ٢٠٦ .

٢٦) ينبغي أن نعلم أنّ رفع رسول الله أمير المؤمنين تمّ برفع ضبعيه بواسطة قبضتيه ، إذ جاء في العبارة : فأخذ بضبعيه فرفعهما حتّى نظر الناس بياض إبطي رسول الله .

والضَبْع في اللغة : العضد أو وسط العضد . وجاء في بعض الروايات : رأي الناس بياض إبطي رسول الله وأمير المؤمنين كليهما . وفي هذه الحالة صار أمير المؤمنين أطول من رسول الله بمقدار طول يدي أمير المؤمنين من أنامله حتّى نصف عضده . وكانت قدماه مواجِهة لركبتي النبيّ أو أعلى منهما قليلاً . وعلى هذا فإنّ رسول الله رفع الإمام على يديه بتلك الطريقة ، لا أنّه رفع يديه فحسب بدون أن يُرْفَع الجسم نفسه .

٢٧) غاية المرام» القسم الأوّل ، ص ٣٣٧ ، الحديث الخامس ؛ وتفسير «الميزان» ج ٥ ، ص ٢٠٦ .

٢٨) تذكرة خواصّ الأُمّة» ص ١٨ .

٢٩) غاية المرام» القسم الأوّل ، ص ٣٣٧ ، الحديث السادس ؛ وتفسير «الميزان» ج ٥ ، ص ٢٠٧ .

٣٠) تفسير ابن كثير» ج ٢ ، ص ٤٩١ ، طبعة دار الفكر .

٣١) البداية والنهاية» ج ٥ ، ص ٢١٣ و ٢١٤ ، الطبعة الأُولى ، مطبعة السعادة ــ مصر .

٣٢) غاية المرام» القسم الأوّل ، ص ٣٣٨ إلى ٣٤١ .

٣٣) كشف الغمّة» الطبعة الحجريّة ، ص . ٩٥

٣٤) كشف الغمّة» ص ٩٤ ، وذكر صديقه الحنبليّ ، راوي الحديث في ص ٢٥ و٩٢ و . ٩٦

٣٥) كشف الغمّة» ص . ٩٤

٣٦) الإتقان» ج ١ ، ص ٢٣ ، طبعة مطبعة الموسويّة بالديار المصريّة ، سنة ١٢٧٨ه .

٣٧) تفسير ابن كثير الدمشقيّ» ج ٢ ، ص ٤٩١ ، طبعة دار الفكر .

٣٨) البداية والنهاية» ج ٥ ص ٢١٣ و . ٢١٤

٣٩) تفسير ابن كثير» ج ٢ ، ص . ٤٨٩

٤٠) تفسير «مفاتيح الغيب» ج ٣ ، ص ٥٢٩ ، طبعة دار الطباعة العامرة .

٤١) تفسير أبي السعود» في حاشية تفسير «مفاتيح الغيب» ج ٣ ، ص ٥٢٣ ، وذكره في «تفسير المنار» ج ٦ ، ص ١٥٤ عن البيهقيّ في «شعب الإيمان» ؛ وجاء في «تفسير ابن كثير» ج ٢ ، ص ٤٨٩ : قال ابن جرير وكثيرون غيره : توفّي رسول الله بعد أحد وثمانين يوماً من عرفة ؛ و «الدرّ المنثور» ج ٢ ، ص ٢٥٧ ؛ ونقل أبو الفتوح الرازيّ في تفسيره ، ج ٢ ، ص ٩٨ ، طبعة مظفّري ، عن ابن عبّاس ، والسدّيّ ، وجمع من المفسّرين أنّ رسول الله لم يبق بعد نزول الآية أكثر من سبعين يوماً .

٤٢) البداية والنهاية» ج ٦ ، ص ٣٣٢ ، ؛ و «السيرة الحلبيّة» ج ٣ ، ص ٣٩١ ؛ و «الكامل فى التاريخ» ج ٢ ، ص ٣٢٣ ، طبعة بيروت ، سنة ١٣٥٨ه ؛ و «تفسير الطنطاويّ» ج ٣ ، ص . ١٤٦

٤٣) يمكن أن يكون الحدّ الأعلى لأيّام الشهور الثلاثة المتوالية تسعة وعشرين يوماً ، والحدّ الأعلى لأيّام الشهور الأربعة المتوالية ثلاثين يوماً لا أكثر وفقاً لقواعد النجوم وحساب سير القمر . وقد تطرّقنا إلى هذا الموضوع في رسالتنا المسمّاة رسالة «حول مسألة رؤية الهلال ولزوم اشتراك الآفاق عند رؤية الهلال في دخول الشهور القمريّة» ص ٢٩ .

٤٤) روى في «تفسير الطبريّ» ج ٦ ، ص ٨٠ ، عن البراء بن عازب أنّ آخر ما نزل على النبيّ قوله : يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يفْتِيكُمفِى الْكَلَالَةِ ــ الآية .

٤٥) قال العلّامة الطباطبائيّ قدّس سرّه : المتسالم عليه عند المفسّرين وأهل النقل أنّ سورة المائدة نزلت في حجّة الوداع («الميزان» ج ٥ ، ص ٢٠٢) .

٤٦) الإتقان في علوم القرآن» ج ١ ، ص ٣٥ ، طبعة المطبعة الموسويّة ، سنة ١٢٧٨ه .

٤٧) الآية ٣٥ ، من السورة ٨ : الأنفال .

٤٨) كانت النساء في الجاهليّة يقلن : نحن نعصي الله في لباسنا ، فلهذا لا ينبغي لنا أن نحرم ونحجّ ونطوف بها . فكنّ يحججن عاريات .

٤٩) ذكر صاحب «تفسير المنار» هذا عن ابن جرير الطبريّ على نحو الاحتمالوذلك في الجزء السادس ، ص ١٥٦ من تفسيره ، واعتبره مؤيّداً للرواية الواردة عن قتادة ، وسعيد بن جبير ، ولكنّه يردّ هذا الاحتمال .

٥٠) روى الطبريّ هذا الاحتمال في تفسيره ج ٦ ، ص ٧٩ ، عن ابن عبّاس ، والسدّيّ . واعتبر الطنطاويّ في ج ٣ ، ص ١٤٥ من تفسيره هذا الاحتمال مع احتمالات أُخرى إكمالاً للدين . وذكره صاحب «المنار» أيضاً نقلاً عن الآخرين في ج ٦ ، ص . ١٥٤

٥١) روى الطبريّ هذا الاحتمال في تفسيره ج ٦ ، ص ٨٠ عن الحكَم ، وقتادة ، وسعيد بن جبير . وجاء في تفسير «الدرّ المنثور» ج ٢ ، ص ٢٥٨ عن ابن عبّاس .

٥٢) تفسير المنار» الشيخ محمّد عبده ، ج ٦ ، ص ١٥٣ و ١٥٤ ، تأليف السيّد محمّد رشيد رضا .

٥٣) الآية ٦٩ ، من السورة ٣ : آل عمران .

٥٤) الآية ١٠٩ ، من السورة ٢ : البقرة .

٥٥) الآية ٢١٧ ، من السورة ٢ : البقرة .

٥٦) الآية ١٠٠ ، من السورة ٣ : آل عمران .

٥٧) الآيتان ٨ و ٩ ، من السورة ٦١ : الصفّ .

٥٨) الآية ١٤ ، من السورة ٤٠ : غافر .

٥٩) الآية ٦ ، من السورة ٣٨ : ص .

٦٠) الآية ٩ ، من السورة ٦٨ : القلم .

٦١) الآية ٧٤ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

٦٢) الآية ٣ ، من السورة ١٠٨ : الكوثر .

٦٣) الآية ٥٣ ، من السورة ٨ : الأنفال .

٦٤) الآية ٢١١ ، من السورة ٢ : البقرة .

٦٥) الآية ١١٢ ، من السورة ١٦ : النحل .

٦٦) الآية ١٨٧ ، من السورة ٢ : البقرة .

٦٧) الآية ١١٥ ، من السورة ٦ : الأنعام .

٦٨) الآية ١٩٦ ، من السورة ٢ : البقرة .

٦٩) الآية ٣٤ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

٧٠) الآية ٢٠ ، من السورة ٣١ : لقمان .

٧١) الآية ٦٤ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

٧٢) الآيتان ١٩٦ و ١٩٧ ، من السورة ٣ : آل عمران .

٧٣) الآية ٥٦ ، من السورة ٥١ : الذاريات .

٧٤) الآية ٢٥٧ ، من السورة ٢ : البقرة .

٧٥) الآية ١١ ، من السورة ٤٧ : محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم .

٧٦) الآية ٦٥ ، من السورة ٤ : النساء .

٧٧) الآية ٥٩ ، من السورة ٤ : النساء .

٧٨) الآية ٥٥ ، من السورة ٥ : المائدة .

٧٩) تفسير العيّاشيّ» ج ١ ، ص ٢٩٣ ؛ وجاء هذا الحديث أيضاً في «تفسير البرهان» ج ١ ، ص ٤٤٤ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٩ ، ص ٣٠٦ ، طبعة كمباني .

٨٠) الدرّ المنثور» ج ٢ ، ص . ٢٥٨

٨١) الدرّ المنثور» ج ٢ ، ص ٢٥٨ ؛ و «تفسير المنار» ج ٦ ، ص . ١٥٥ ونقل أبو الفتوح الرازيّ هذه الرواية في تفسيره كما يلي : قد رووا عن طارق بن شهاب أنّه قال : جاء رجل من أحبار اليهود إلى عمر بن الخطّاب وقال له : نزلت في كتابكم آية على نبيّكم لو كانت قد نزلت علينا لاتّخذنا ذلك اليوم عيداً . قال : وأيّ آية ؟ قال : الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . قال عمر : أعلم متى وأين نزلت . وكنّا مع رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وكان ذلك اليوم عيداً لنا ، وهو عيد لنا معشر المسلمين حتّى يوم القيامة ــ انتهى . وفي ضوء هذه الرواية أنّ لفظ عرفة لم يرد فيها . وربّما يكون المراد من يوم العيد هو يوم غدير خمّ .

٨٢) نفس الهامش السابق .

٨٣) الدرّ المنثور» ج ٢ ، ص ٢٥٨ ؛ و «تفسير ابن كثير» ج ٢ ، ص ٤٨٩ ؛ و «تفسير الطبريّ» ج ٦ ، ص . ٨٠

٨٤) يستعمل الفعل (بدأ) لازماً . وقال الجوهريّ في «صحاح اللغة» : بَدَأْتُ بِالشَّيءِ بَدْءاً : ابْتَدَأْتُ بِهِ . وذكر ابن الأثير في «النهاية» قائلاً : ومنه حديث عليّ رضي الله عنه ؛ وَاللَهِ لَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ : لَيَضْرِبُنّكُمْ عَلَى الدّينِ عَوْدَاً كَمَا ضَرَبْتُمُوهُ عَلَيْهِ بَدْءاً : أي : أَوّلاً . ومنه الحديث ... وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ .

(الجَذَع : الحيوان الصغير لم تنبت أسنانه . الثني : الحيوان الصغير الذي خرجت ثناياه . الرباعيّ : الحيوان الصغير الذي خرجت رباعيّاته وهي أربعة أسنان في أطراف الثنايا . السدسيّ :الحيوان الصغير الذي لم يبلغ سنّه البازل . البازل : الحيوان الذي طلعت أنيابه .) (م)

٨٥) الدرّ المنثور» ج ٢ ، ص . ٢٥٩

٨٦) الآية ٤ ، من السورة ٦٣ : المنافقون .

٨٧) الآية ٥١ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٨٨) الآية ٩٦ ، من السورة ٩ : براءة .

٨٩) الآية ٦ ، من السورة ٦٣ : المنافقون .

٩٠) الآية ٨٠ ، من السورة ٩ : براءة .

٩١) قال في «تفسير المنار» ج ٦ ، ص ١٦٧ : إنّ قول ابن عبّاس إنّ الله أكمل الدين فلا ينقصه أبداً ، أثبت وأظهر من قول عمر رضي الله عنه : ما بعد الكمال إلّا النقص .

٩٢) الميزان في تفسير القرآن» ج ٥ ، ص ١٧٩ إلى ١٩٤ ، وص ٢٠٨ إلى ٢١٣ .

٩٣) الآية ١٧٣ ، من السورة ٢ : البقرة .

٩٤) الآية ١٤٥ ، من السورة ٦ : الأنعام .

٩٥) الآية ١١٥ ، من السورة ١٦ : النحل .

٩٦) و٢ـــ «الدرّ المنثور» ج ٢ ، ص ٢٥٨ .

٩٧) إشارة إلى الآية ٢٩ ، من السورة ٥٤ : القمر : فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ .

٩٨) كشف الغمّة» ص ١٥١ ، عن ابن القريعة ، وهو القريعيّ نفسه .

٩٩) قال في «سفينة البحار» في مادّة قَرَعَ (ج ٢ ، ص ٤٢٥) : ابن القُرَيْعَة القاضي أبو بكر محمّد بن عبد الرحمن البغداديّ ، كان قاضياً بالسّنديّة ، وهي قرية بين بغداد والأنبار . وكان رجلاً فصيحاً ، مزّاحاً ، لطيف الطبع ــ إلى أن قال ــ وله الأشعار المعروفة في مظلوميّة فاطمة عليها السلام ذكرها المجلسيّ في كتاب «بحار الأنوار» ج ١٠ ، ص ٥٤ ، الباب ٧ :

يَا مَنْ يُسَائِلُ دَائِبَاً عَنْ كُلّ مُعْضَلَةٍ سَخِيفَةْ

حتّى آخرها . ثمّ قال في السقيفة : توفّي القاضي أبو بكر بن القريعة سنة ٣٦٧ﻫ ، والقُرَيْعَة مصغّراً لقب جدّه ــ انتهى .

وأنا أقول : فهو يدعى ــ إذَن ــ القريعيّ . وهذه الأبيات ليست لأبي بكر الباقلّانيّ لأنّ القاضي الباقلّانيّ مات سنة ٤٠٣ ﻫ كما جاء في «سفينة البحار» ج ١ ، ص ٩١ . واسم القريعيّ : محمّد بن عبد الرحمن . أمّا الباقلّانيّ فاسمه : محمّد بن الطيّب . وأخطأ بعض كتّاب الفارسيّة بسبب تشابه الاسمين فنسب هذه الأبيات إلى الباقلّانيّ . وهذا الخطأ واضح . وذكر المرحوم المحدّث القمّيّ هذه الأبيات أيضاً في «بيتالأحزان» .

١٠٠) صحيح البخاريّ» ج ٣ ، ص ٥٥ ، باب غزوة خيبر .

١٠١) السيرة الحلبيّة» ص ٣٩٩ ، طبعة سنة ١٣٨٢ﻫ .

١٠٢) رسالة في معرفة الصحابة» ص ٥٤ في أحوال حذيفة بن اليمان . ولم يذكر الشخص السابع في «رجال الكشّيّ» فلهذا لم يذكره الشيخ الحرّ أيضاً . وجاء مثل هذه

الرواية في «الاختصاص» للشيخ المفيد ، ص ٥ ، بإسناده عن زرارة ، عن أبي جعفر عليه السلام .

للشيخ المفيد ، ص ٥ ، بإسناده عن زرارة ، عن أبي جعفر عليه السلام .

الدرس العاشر بعد المائة إلى الخامس عشر بعد المائة: التقديم بين يدي الله هو التخلّف نفسه

بِسْمِ اللَّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ
وصلّى الله على محمّد وآله الطّاهرين
ولعنة اللّه على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين ولا حول ولا قوّة إلّا باللّه العليّ العظيم

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

يَأَيّهَا الّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ اللَهِ وَرَسُولِهِ وَاتّقُوا اللَهَ إِنّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَأَيّهَا الّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَ تَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النّبِى وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ . (١)

إنّ الفطرة والعقل والشرع كلّ أُولئك يحكم بأنّ تدخّل الإنسان في عمل ليس من شأنه بعيد عن الصواب . أي : أنّ القوى الثلاث : القلب ، والعقل ، والدين ، كلّها تُجمع على أنّ تدخّل الإنسان في الشؤون الدينيّة والشرعيّة الخارجة عن نطاق إدراكه وقابليّته خطأ يجرّ الويلات والفساد .

إنّ تعيين الإمام ، أي : تخويل الاختيار المعنويّ : القلبيّ والروحيّ والعقليّ والطبيعيّ للمجتمع إلى إنسان أسير الآراء النفسانيّة والأفكار الشيطانيّة كما هي طبيعة الناس الملوّثين بالهوى والشهوات خروج عن منطق العقل . ذلك أنّ الحقّ في ضوء المنطق القرآنيّ ينبغي أن يكون هو المرجع والمدار في العمل ، ولا يحدّده إلّا الحقّ نفسه . ولا يمكن أن يكون انتجاب الإمام على أساس آراء وأهواء الناس المرتكزة على الميول النفسانيّة التي لا تتمسّك بالحقّ ميزاناً لتشخيص الوصول إلى الواقع واجتذاب الحقيقة . ولو قُدّر أن يكون تعيين الإمام بيد الناس وعزله وتنصيبه ــ عند استقامته أو خطأه أو عند استقامته وعدم خطأه ــ بيد الناس ، فحينئذٍ يصبح الناس أئمّة أنفسهم حقّاً . والنتيجة التي هي تابعة لأخسّ المقدّمتين تهبط بقيمة تلك الحقيقة عند الناس . أي : أنّ تلك الحقيقة والمعنى والارتباط بعالم الأمر ، كلّ ذلك يزول ويفنى ، ولا يبقى إلّا آراء الناس العاديّة دليلاً وموجّهاً للجماهير ، بينما نحن نعلم أنّ الإمامة غير منفصلة عن الولاية ، والسياسة مقترنة مع المعنويّة وحقيقة الربط بعالم الملكوت .

وقد أشار شاعر أهل البيت ابن حمّاد العَبْديّ إلى هذه الحقيقة في شعره ، وأتى بها عبر عرض الصغرى والكبرى والنتيجة المطلوبة ، فقال :

وَقَالُوا رَسُولُ اللَهِ مَا اخْتَارَ بَعْدَهُ

إِمَاماً ولَكِنّا لِاَنْفُسِنَا اخْتَرْنَا
أَقَمْنَا إِمَاماً إِنْ أَقَامَ عَلَى الهُدَى
أَطَعْنَا وَإِنْ ضَلّ الهِدَايَةَ قَوّمْنَا
فَقُلْنَا إِذَنْ أَنْتُمْ إِمَامُ إِمَامِكُمْ
بِحَمْدٍ مِنَ الرّحْمَنِ تِهْتُمْ ولَا تِهْنَا
ولَكِنّنَا اخْتَرْنَا الّذِي اخْتَارَ رَبّنَا
لَنَا يَوْمَ خُمّ مَا اعْتَدَيْنَا ولَا حِلْنَا
سَيَجْمَعُنَا يَوْمَ القِيَامَةِ رَبّنَا
فَتُجْزَوْنَ مَا قُلْتُمْ ونُجْزَى الّذِي قُلْنَا
هَدَمْتُمْ بِأَيْدِيكُمْ قَوَاعِدَ دِينِكُمْ
وَدِينٌ عَلَى غَيْرِ القَوَاعِدِ لَا يُبْنَى
وَنَحْنُ عَلَى نُورٍ مِنَ اللّهِ وَاضِحٍ
فَيَا رَبّ زِدْنَا مِنْكَ نُوراً وَثَبّتْنَا (٢)

ونقل ابن شهرآشوب قبل هذه الأبيات حواراً جرى بين أبي الحسن الرفا وابن رامين الفقيه ، قال أبو الحسن لابن رامين : لمّا خرج رسول الله صلّى الله عليه وآله من المدينة ، ما استخلف عليها أحد .

قال [ابن رامين] : بلى ؛ استخلف عليّاً .

قال [أبو الحسن] : وكيف لم يقل لأهل المدينة : اخْتَارُوا فَإِنّكُمْ لَا تَجْتَمِعُونَ عَلَى الضّلَالِ !

قال : خاف النبيّ عليهم الخلف والفتنة .

قال [أبو الحسن] : فلو وقع بينهم فساد ، لأصلحه عند عودته .

قال [ابن رامين] : هذا أوثق .

قال [أبو الحسن] : أفاستخلف أحداً بعد موته ؟!

قال [ابن رامين] : لا .

قال [أبو الحسن] : فموته أعظم من سفره . فكيف أمن على الأُمّة بعد موته ما خافه في سفره وهو حيّ عليهم ؟ فقطعه [الشاعر المعروف] العبديّ قائلاً :

وَقَالُوا رَسُولُ اللّهِ مَا اخْتَارَ بَعْدَهُ
إِمَاماً ولَكِنّا لِاَنْفُسِنَا اخْتَرْنَا (٣)

ونقل في «ريحانة الأدب» ستّة أبيات منها ، عدا البيت السادس ، عن العبديّ : سفيان بن مصعب ، عن «مناقب ابن شهرآشوب» . (٤)

بيد أنّ صاحب «الغدير» نسب هذه الأبيات إلى عليّ بن حمّاد بن عبد الله العبديّ البصريّ ، وقال : وقفنا لابن حمّاد على قصيدة في مجموعة عتيقة مخطوطة في العصور المتقادمة . وقد ذكر ابن شهرآشوب بعض أبياتها ونسبه إلى العبديّ : سفيان بن مصعب . وتبعه البياضيّ في «الصراط المستقيم» . ولكنّ هذه القصيدة لابن حمّاد . ثمّ ذكر القصيدة برمّتها ، وهي تبلغ مائة وستّة أبيات . وهذه القصيدة في غاية الروعة ، وهي في مدح أمير المؤمنين عليه السلام ومطلعها :

أَسَائِلَتِي عَمّا أُلَاقِي مِنَ الأَسَا
سَلِي اللّيْلَ عَنّي هَلْ أُجَنّ إذَا جَنّا

ومن هذه القصيدة : (البيت الخامس والخمسون حتّى البيت التاسع والخمسين) :

وَلَوْ فضّ بَيْنَ النّاسِ مِعْشَارُ جُودِهِ
لَمَا عَرَفُوا فِي النّاسِ بُخْلاً وَلَا ضَنّا
وَكُلّ جَوَادٍ جَادَ بِالمَالِ إنّمَا
قُصَارَاهُ أَنْ يَسْتَنّ فِي الجُودِ مَا سَنّا
وَكُلّ مَدِيحٍ قُلْتُ أَوْ قَالَ قَائلٌ
فَإنّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ بِهِ يُعْنَى
سَيَخْسَرُ مَنْ لَمْ يَعْتَصِمْ بِوَلَائِهِ
وَيَقْرَعُ يَوْمَ البَعْثِ مِنْ نَدَمٍ سِنّا
لِذَلِكَ قَدْ وَالَيْتُهُ مُخْلِصَ الوَلَا
وَكُنْتُ عَلَى الأَحْوَالِ عَبْدَاً لَهُ قِنّا

ثمّ يواصل القصيدة حتّى آخرها . وينقل الأبيات التي أتينا بها في البداية كشاهد ودليل على بحثنا (البيت السادس والثمانين حتّى البيت الحادي والتسعين) ويختم هذه القصيدة ذات الأُسلوب البديع بأبيات رائعة مؤثّرة . [٥]

ونقل ابن شهرآشوب في كتاب «المناقب» شرحاً مشبعاً من الأخبار والروايات والأشعار التي تتحدّث عن إقرار الشيخين واعترافهما بولاية أمير المؤمنين عليه السلام وأدّت في النهاية إلى معارضتهما ومخالفتهما .

ل قال : جاء في «فضائل أحمد بن حنبل» وأحاديث أبي بكر بن مالك ، و «إبانة» ابن بطّة ، و «كشف» الثعلبيّ ، عن البراء بن عازب ، قال : لمّا أقبلنا مع رسول الله صلّى الله عليه وآله من حجّة الوداع ، كنّا بغدير خمّ ، فنادى : الصّلَاةُ جَامِعَةٌ . [٦] وكسح رسول الله تحت شجرتين ، فأخذ بيد عليّ وقال :

أَلَسْتُ أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ؟! قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَهِ ! قَالَ : أَوَ لَسْتُ أَوْلَى مِنْ كُلّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ ؟! قَالُوا : بَلَى ! قَالَ : هَذَا مَوْلَى مَنْ أَنَا مَوْلَاهُ ! اللَهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ

، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ! فَقَالَ : فَلَقِيَهُ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ فَقَالَ : هَنِيئَاً لَكَ يَا بْنَ أَبِي طَالِبٍ ! أَصْبَحْتَ مَوْلَى كُلِّ مُؤمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ !

قال البراء : فلقي عمر بن الخطّاب عليّاً فقال له : هَنِيئاً لَكَ يَا بْنَ أَبِي طَالِبٍ ! أَصْبَحْتَ مَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ !

وقال أبو سعيد الخدريّ في خبر : ثمّ قال النبيّ صلّى الله عليه وآله : يَا قَوْمِ هَنِّئُونِي ! هَنِّئُونِي ! إنّ اللّهَ تَعَالَى خَصّنِي بِالنّبُوّةِ ، وَخَصّ أَهْلَ بَيْتِي بِالإمَامَةِ ، فَلَقِيَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ أَمِيرَ المُؤمِنِينَ عَلَيهِ السّلَامُ فَقَالَ : طُوبَى لَكَ يَا أَبَا الحَسَنِ ! أَصْبَحْتَ مَوْلَايَ وَمَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ !

وقال الخركوشيّ في كتاب «شرف المصطفى» : عن البراء بن عازب في خبر ، قال : قال النبيّ صلّى الله عليه وآله : اللّهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ، فَلَقِيَهُ عُمَرُ بَعْدَ ذَلِكَ فَقَالَ : هَنِيئَاً لَكَ يَا بْنَ أَبِي طَالِبٍ ! أَصْبَحْتَ وَأَمْسَيْتَ مَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ .

وذكر أبو بكر الباقلّانيّ في كتابه «التمهيد» هذا الحديث متأوّلاً له .

وقال السمعانيّ في «فضائل الصحابة» بإسناده عن سالم بن أبي الجعد : قيل لعمر بن الخطّاب : إنّكَ تَصْنَعُ بِعَلِيّ شَيْئَاً لَا تَصْنَعُهُ بِأَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ ! قالَ : إنّهُ مَوْلَايَ .

وقال السيّد الحميريّ :

وَقَالَ مُحَمّدٌ بِغَدِيرِ خُمّ
عَنِ الرّحْمَنِ يَنْطِقُ بِاعْتِزَامِ
يَصِيحُ وَقَدْ أَشَارَ إلَيْهِ فِيكُمْ
إشَارَةَ غَيْرَ مُصْغٍ لِلْكَلَامِ
أَلَا مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا
أَخِي مَوْلَاهُ فَاسْتَمِعُوا كَلَامِي
فَقَامَ الشّيْخُ يَقْدُمُهُمْ إلَيْهِ
وَقَدْ حَصَدَتْ يَدَاهُ مِنَ الزّحَامِ
يُنَادِي : أَنْتَ مَوْلَايَ وَمَوْلَى
الأَنَامِ فَلِمْ عَصَى مَوْلَى الأَنَامِ (٧) وأنشد الحميريّ أيضاً :
فَقُلْتِ :أَخَذْتُ عَهْدَكُمْ عَلَى ذَا
فَكُونُوا لِلْوَصِيّ مُسَاعِدِينَا
لَقَدْ أَصْبَحْتَ مَوْلَانَا جَمِيعَاً
وَلَسْنَا عَنْ وَلَائِكَ رَاغِبِينَا (٨) وقال السيّد الحميريّ أيضاً :
قَامَ النّبِيّ يَوْمَ خُمّ خَاطِبَاً

بجَانِبِ الدّوْحَاتِ أَوْ حِيَالِهَا

فقَالَ : مَنُ كُنْتُ لَهُ مَوْلَىً فذَا

مَوْلَاهُ رَبّ اشْهَدْ مِرَاراً قَالَهَا

إنّ رِجَالاً بَايَعَتْهُ إنّمَا

بَايَعَتِ اللّهَ فمَا بَدَا لَهَا

قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطِعْنَا أَجْمَعَاً

وَأَسْرَعُوا بِالْأَلْسُنِ اشْتِغَالَهَا (٩)

وَجَاءَهُمْ مَشِيخَةٌ يَقْدُمُهُمْ

شَيْخٌ يُهَنّي حَبّذَا مَنَالُهَا

قَالَ لَهُ : بَخٍ بَخٍ مَنْ مِثْلُكَ

أَصْبَحْتَ مَوْلَى المُؤْمِنِينَ يَا لَهَا (١٠)

وقال العونيّ (١١) :

حَتّى لَقَدْ قَالَ ابْنُ خَطّابٍ لَهُ

لَمّا تَقَوّضَ مِنْ هُنَاكَ وَقَامَا

أَصبَحْتَ مَوْلَايَ وَمَوْلَى كُلّ مَنْ

صَلّى لِرَبّ العَالَمِينَ وَصَامَا (١٢)

وقال العونيّ أيضاً :

نَادَى ولَمْ يَكُ كَاذِبَاً بَخْ بَخْ أَبَا

حَسَنٍ تُرِيعُ الشّيبَ وَالشّبّانِ

أَصْبَحْتَ مَوْلَى المُؤْمِنِينَ جَمَاعَةً

مَوْلَى إنَاثِهِمُ مَعَ الذّكْرَانِ (١٣)

وأنشد الخطيب المنيح :

وَقَالَ لَهُمْ : رَضِيتُمْ بِي وَلِيّاً

فَقَالُوا : يَا مُحَمّدُ قَدْ رَضِينَا

فَقَالَ : وَلِيّكُمْ بَعْدِي عَلِيّ

وَمَوْلَاكُمْ فَكُونُوا عَارِفِينَا

فَقَالَ لِقَوْلِهِ عُمَرٌ سَرِيُعَاً

وَقَالَ لَهُ مَقَالَ الوَاصِفِينَا

هَنِيئَاً يَا عَلِيّ أَنْتَ مَوْلَىً

عَلَيْنَا مَا بَقِيتَ وَمَا بَقِينَا (١٤) مَرَهُ بِهَذَا ، وَمَا هُوَ إلّا شَيءٌ يَتَقَوّلُهُ ، فَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى : «وَلَوْ تَقَوّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم

مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَجِزِينَ * وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَفِرِينَ» (١٥) (يَعْنِي مُحَمَّدَاً) «وَإِنَّهُ لَحَقّ الْيَقِينِ» (١٦) (يَعْنِي عَلِيّاً) .

وروى حسّان الجمّال في خبر عن الإمام الصادق عليه السلام : فَلَمّا رَأَوْهُ رَافِعَاً يَدَيْهِ ــ يَعْنِي رَسُول اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ ــ قَالَ بَعْضُهُمْ : انْظُرُوا إِلَى عَيْنَيْهِ تَدُورَانِ كَأَنَّهُمَا عَيْنَا مَجْنُونٍ . فَنزَلَ جَبْرَئِيلُ عَلَيْهِ السّلَامْ بِهَذِهِ الآيَةِ : «وَإِن يَكَادُ الّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمّا سَمِعُوا الذِكْرَوَيَقُولُونَ إِنّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلّا ذِكْرٌ لّلْعَلَمِينَ» . (١٧)

وأنشد السيّد الحميريّ أيضاً :

فَقَالَ : أَلَا مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ مِنْكُمْ

فَمَوْلَاهُ مِنْ بَعْدِي عَلِيّ فَأَذْعِنُوا

فَقَالَ شَقِيّ مَنْهُمْ لِقَرِينِهِ

وَكَمْ مِنْ شَقِيّ يَسْتَزِلّ وَيُفْتِنُ

يَمُدّ بِضَبْعَيْهِ عَلِيّاً وَإِنّهُ

لِمَا بِالّذِي لَمْ يُؤْتَهُ لَمُزَيّنُ

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ فِي قَلْبِهِ ثِقَةٌ بِهِ

فَيَا عَجَبَاً أَنّى وَمِنْ أَيْنَ يُوقِنُ

وقال الشريف المرتضى في «التنزيه» : إِنّ النّبِيّ لَمّا نَصّ عَلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السّلَامُ بِالإِمَامَةِ فِي ابْتِدَاءِ الأَمْرِ جَاءَهُ قَوْمٌ مِنْ قُرَيْشٍ قَالُوا لَهُ : يَا رَسُولَ اللَهِ ! إِنّ النّاسَ قَرِيبُوا عَهْدٍ بِالإِسْلَامِ وَلَا يَرْضُوا أَنْ تَكُونَ النّبُوّةُ فِيكَ وَالإِمَامَةُ فِي ابْنِ عَمّكَ ؛ فَلَوْ عَدَلْتَ بِهَا إِلَى حِينٍ لَكَانَ أَوْلَى !

فَقَالَ لَهُمُ النّبِيّ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : مَا فَعَلْتُ ذَلِكَ بِرَأْيِي فَأَتَخَيّرُ فِيْهِ ، وَلَكِنِ اللَهَ أَمَرَنِي بِهِ وَفَرَضَهُ عَلَيّ ! فَقَالُوا لَهُ : فَإِذَا لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ مَخَافَةَ الخِلَافِ عَلَى رَبّكَ فَأَشْرِكْ مَعَهُ فِي الخِلَافَةِ رَجُلاً مِنْ قُرَيْشٍ يَسْكُنُ إِلَيْهِ النّاسُ ، لِيَتِمّ الأَمْرُ وَلَا يُخَالَفَ عَلَيْكَ ! فَنَزَلَ : «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنّ مِنَ الْخَسِرِينَ» . (١٨)

وروى عبد العظيم الحسنيّ ، عن الإمام الصادق عليه السلام في خبر ، قال : قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَدِيّ : اجْتَمَعَتْ إِلَيّ قُرَيْشٌ فَأَتَيْنَا النَبِيّ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَهِ ! إِنّا كُنّا تَرَكْنَا عِبَادَةَ الأَوْثَانِ وَاتّبَعْنَاكَ فَأَشْرِكْنَا فِي وَلَايَةِ عَلِيّ فَنَكُونَ شُرَكَاءَ . فَهَبَطَ جَبْرَئِيلُ عَلَى النَبِيّ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ فَقَالَ : يَا مُحَمّدُ ! لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنّ مِنَ الْخَسِرِينَ .

قال ذلك الرجل من بني عديّ : فضاق صدري من كلام النبيّ فخرجت هارباً لما أصابني من الجهد ؛ فإذا أنا بفارس قد تلقّاني على فرس أشقر ، عليه عمامة صفراء تفوح منه رائحة المسك ، فقال : يا رجل لَقَدْ عَقَدَ مُحَمّدٌ عُقْدَةً لَا يَحُلّهَا إِلّا كَافِرٌ أَوْ مُنَافِقٌ .

قال : فأتيت النبيّ ، فأخبرته ، فقال : هل عرفت الفارس ؟! ذلك جبرئيل عليه السلام عرض عليكم عقد ولاية : إن حللتم العقد أو شكّكتم ، كنتُ خصمكم يوم القيامة .

وأنشد السيّد الحميريّ :

وَقَامَ مُحَمّدٌ بِغَدِيرِ خُمّ

فَنَادَى مُعْلِناً صَوْتاً بَدِيّا

أَلَا مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا

لَهُ مَوْلَىً وَكَانَ بِهِ حَفِيَا

إِلَهِي عَادِ مَنْ عَادَى عَلِيّاً

وَكُنْ لِوَلِيّهِ مَوْلَىً وَلِيّا

فَقَالَ مُخَالِفٌ مِنْهُمْ عُتُلّ

لأَوْلَاهُمْ بِهِ قَوْلاً خَفِيّا

لَعَمْرُ أَبِيكَ لَوْ يَسْطِعْ هَذَا

لَصَيّرَ بَعْدَهُ هَذَا نَبِيّا

فَنَحْنُ بِسُوءِ رَأْيِهِمَا نُعَادِي

بَنِي تَيْمٍ وَلَا نَهْوَى عَدِيّا (١٩)

وفي رواية عن الإمام الباقر عليه السلام قال : قام ابن هند وتمطّى وخرج مغضباً واضعاً يمينه على عبد الله بن قيس الأشعريّ ، ويساره على المغيرة بن شعبة ، وهو يقول :

وَاللَهِ لَا نُصَدِقُ مُحَمّدَاً عَلَى مَقَالَتِهِ وَلَا نَقِرّ عَلِيّاً بِولَايَتِهِ . فَنَزَلَ : «فَلَا صَدّقَ وَلَا صَلّى * وَلَكِن كَذّبَ وَتَوَلّى * ثُمّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطّى * أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى» . (٢٠)

فهمّ به رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يردّه فيقتله ؛ فهبط جبرئيل بهذه الآية : «لَا تُحَرّك بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . فلهذا سكت عنه رسول الله .

وعن الإمام عليه السلام في قوله تعالى : قَالَ الّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَآ أَوْ بَدِلْهُ (٢١) : ذلك قول أعداء الله لرسوله من خلفه وهم يرون أنّه لا يسمع قولهم : لو أنّه جلعنا أئمّة دون عليّ أو بدّلنا آية مكان آية .

قال الله عزّ وجلّ ردّاً عليهم : مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآ ِى نَفْسِى إِنْ أَتّبِعُ إِلّا مَا يُوحَى إِلَىّ إِنّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

وروي عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم دعا الناس إلى ولاية عليّ بن أبي طالب ليس إلّا فاتّهموه وخرجوا من عنده ، فأنزل الله :

قُلْ إِنّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّا وَلَا نَفْعًا * قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ اللَهِ (إِن عَصَيْتُهْ) أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا * إِلّا بَلَغًا مِّنَ اللَهِ وَرِسَلَتِهِ (فِي عَلِيّ) وَمَن يَعْصِ اللَهَ وَرَسُولَهُ (فِي وَلَايَةِ عَلِيّ) فَإِنّ لَهُ نَارَ جَهَنّمَ خَلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا . [٢٢]

وعن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام أيضاً أنّه فسّر الآية في سورة المزّمّل هكذا : وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ (فِيكَ) وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا * وَذَرْنِى وَالْمُكَذِّبِينَ (بِوَصِيّكَ) أُولِى النّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا . [٢٣]

وعن بعض المعصومين عليهم السلام أنّهم فسّروا الآية في سورة المرسلات كما يلي : وَيْلٌ يَوْمَئذٍ لّلْمُكَذِّبِينَ * (يَا مُحَمّدُ بِمَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ وَلَايَةِ عَلِيّ) أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوّلِينَ (الّذِينَ كَذّبُوا الرّسُلَ ، فِي طَاعَةِ الأَوْلِيَاءِ * كَذَ لِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (مَنْ أَجْرَمَ إِلَى آلِ مُحَمّدٍ وَرَكِبَ مِنْ وَصِيّه مَا رَكِبَ) . [٢٤]

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه فسّر الآية في سورة يونس على النحو التالي : وَيَسْتَنبُونَكَ أَحَقّ هُوَ (مَا تَقُولُ فِي عَلِيّ) قَلْ إِى وَرَبِّى إِنّهُ لَحَقّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ . [٢٥]

وأنشد العونيّ قائلاً :

أَلَيْسَ قَامَ رَسُولُ اللهِ يَخْطُبُهُمْ
يَوْمَ الغَدِيرِ وَجَمْعُ النّاسِ مُحْتَفِلُ
وَقَالَ مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَذَاكَ لَهُ
مِنْ بَعْدُ مَوْلَىً فَوَاخَاهُ وَمَا فَعَلُوا
لَوْ سَلّمُوهَا إِلَى الهَادِي أَبِي حَسَنٍ
كَفَى البَرِيّةَ لَنْ تَسْتَوحِشَ السّبُلُ
هَذَا يُطَالِبُهُ بِالضّعْفِ مُحْتَقِبَاً
وَتِلْكَ يَجدُونَهَا فِي مَحْفِلٍ جُمُلُ [٢٦]

وقال ابن حمّاد :

أَلَا إنّ هَذَا وَلِيّ لَكُمْ
أَطِيعُوا فَوَيلٌ لِمَنْ لَمْ يُطِعْ [٢٧]

ونقل ابن شهرآشوب عن العونيّ أيضاً :

يَقُولُ رَسُولُ اللهِ هَذَا لِأُمّتِي
هُوَ اليَوْمَ مَوْلَىً رَبّ مَا قُلْتُ فَاسْمَعِ
فَقَامَ جَحُودٌ ذُو شِقَاقٍ مُنَافِقٌ
يُنَادِي رَسُولَ اللهِ مِنْ قَلْبِ مُوجِعِ
أَعَنْ رَبّنَا هَذَا أَمْ أَنْتَ اخْتَرَعْتَهُ
فَقَالَ : مَعَاذَ اللهِ لَسْتُ بِمُبْدِعِ

فَقَالَ عَدُوّ اللَهِ : لَا هُمّ إن يَكُنْ
كمَا قَالَ حَقّاً بي عَذَاباً فَأوْقِعِ
فَعُوجِلَ مِنْ أُفْق السّمَاءِ بِكُفْرِهِ
بِجَنْدَلَةٍ فَانْكَبّ ثَاوٍ بِمَصْرَعِ (٢٨)

وقال ابن شهرآشوب أيضاً : «فِي الخَبَرِ أَنّ النّبِيّ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ كَانَ يُخْبِرُ عَنْ وَفَاتِهِ بِمُدّةٍ وَيَقُولُ : قَدْ حَانَ مِنّي خُفُوقٌ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ ! وَكَانَ المُنَافِقُونَ يَقُولُونَ لَئِنْ مَاتَ مُحَمّدٌ لَيَخْرَبُ دِينُهُ . فَلَمّا كَانَ مَوْقِفُ الغَدِيرِ قَالُوا : بَطَلَ كَيْدُنَا . فَنَزَلَتْ :

«الْيَومَ يَئِسَ الّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» ــ الآية . (٢٩)

ونقل عن البشنويّ أيضاً ، أنّه أنشد قائلاً :

فَقَالَ كَبِيرُهُمْ مَا الرّأْيُ فِيمَا
تَرَوْنَ يَرُدّ ذَا الأَمْرِ الجَلِيّ
سَمِعْتُمْ قَوْلَهُ قَوْلاً بَلِيغاً
وَأَوْصَى بِالخِلَافَةِ فِي عَلِيّ
فَقَالُوا حِيلَةٌ نُصِبَتْ عَلَيْنَا
وَرَأْيٌ لَيْسَ بِالعَقْدِ الوَفِيّ
نُدَبّرُ غَيْرَ هَذَا فِي أُمُورٍ
نَنَالُ بِهَا مِنَ العَيْشِ السّنِيّ
سَنَجْعَلُهَا إذَا مَا مَاتَ شُورَى
لِتَيْمِيّ هُنَالِكَ أَوْ عَدِيّ (٣٠)

وقال ابن شهرآشوب أيضاً : وروي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لمّا فرغ من غدير خمّ وتفرّق الناس ، اجتمع نفر من قريش يتأسّفون على ما جرى . فمرّ بهم ضبّ ، فقال بعضهم : ليت محمّداً أمر علينا هذا الضبّ دون عليّ .

فسمع ذلك أبو ذرّ الغفاريّ ، فحكى ذلك لرسول الله . فبعث رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إليهم وأحضرهم وعرض عليهم مقالتهم . فأنكروا وحلفوا أنّهم لم يقولوا ذلك ، فأنزل الله هذه الآية :

يَحْلِفُونَ بِاللَهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَمِهِمْ وَهَمّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلّآ أَنْ أَغْنَهُمُ اللَهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لّهُمْ وَإِن يَتَوَلّوْا يُعَذّبْهُمُ اللَهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى الدّنْيَا وَالْأَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى الْأَرْضِ مِن وَلِىٍ وَلَا نَصِيرٍ . (٣١)

فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : مَا أَظَلّتِ الخَضْرَاءُ وَمَا أَقَلّتِ الغَبْرَاءُ عَلَى ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقُ مِنْ أَبِي ذَرّ . (٣٢)

وفي رواية أبي بصير عن [الإمام] الصادق عليه السلام في خبر أنّ النّبيّ صلّى اللّهُ علَيهِ وَآلهِ قَالَ : أَمّا جَبْرَئيلُ نَزلَ عَلَيّ وَأَخْبَرَنِي أَنّهُ يُؤْتَى يَوْمَ القِيَامَةِ بِقَومٍ إمَامَهُمْ ضَبّ ؛ فَانْظُرُوا أَنْ لَا تَكُونُوا أُولَئِكَ ، فَإِنّ اللّهَ تَعَالَى يَقُولُ : «يَوْمَ نَدْعُوا كُلّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ» . (٣٣)

ونقل ابن شهرآشوب أيضاً هذه الأبيات عن ابن الطوطيّ :

وَيَوْمَ غَدِيرٍ قَدْ أَقَرّوا بِفَضْلِهِ
وَفِي كُلّ وَقْتٍ مِنْهُمُ الغَدْرَ أَضْمَرُوا
أَرَى دَوْحَ خُمّ وَالنّبِيّ مُحَمّدَاً
يُنَادِي بِأَعْلَى الصّوْتِ مِنْهُمْ وَيَجْهَرُ
أَلَسْتُ إِذَنْ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ نُفُوسِكُمْ
فَقَالُوا : بَلَى وَالقَوْمُ فِي الجَمْعِ حُضّرُ
فَقَالَ لَهُمْ : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ مِنْكُمْ
فَمَوْلَاهُ بَعْدِي حَيْدَرُ المُتَخَيّرُ
فَوَالِ مَوَالِيهِ وَعَادِ عَدُوّهُ
أَيَا رَبّ وَانْصُرْهُ لِمَنْ ظَلّ يَنْصُرُ
فَلَمّا مَضَى الهَادِي لِحَالِ سَبِيلِهِ
أَبَانُوا لَهُ الغَدْرَ القَبِيحَ وَأَظْهَرُوا (٣٤)

وروى في كتاب «ذخائر العقبى» بتخريج أحمد في مسنده عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : كنّا عند النبيّ صلّى الله عليه سلّم في سفر فنزلنا بغدير خمّ . ثمّ نقل خطبة رسول الله ، وقال في ذيلها : فَلَقِيَهُ عُمَرُ بَعْدَ ذَلِكَ فَقَالَ : هَنِيئَاً لَكَ يَا ابْنَ أَبِي طَالِبٍ ! أَصْبَحْتَ وَأَمْسَيْتَ مَوْلَى كُلّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ . (٣٥)

وأخرج أحمد بن حنبل هذا الحديث في مناقبه عن عمر . (٣٦)

وقال محبّ الدين الطبريّ أيضاً في كتاب «ذخائر العقبى» : عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ وَقَدْ جَاءَهُ أَعْرَابِيّانِ يَخْتَصِمَانِ فَقَالَ لِعَلِيّ : اقْضِ بَيْنَهُمَا يَا أَبَا الحَسَنِ . فَقَضَى عَلِيّ بَيْنَهُمَا . فَقَالَ أَحَدُهُمَا : هَذَا يَقْضِي بَيْنَنَا ؟! فَوَثَبَ إِلَيهِ عُمَرُ وَأَخَذَ بِتَلْبِيبِهِ وَقَالَ : وَيْحَكَ ! مَا تَدْرِي مَنْ هَذَا ؟! هَذَا مَوْلَايَ وَمَوْلَى كُلّ مُؤْمِنٍ ! وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مَوْلَاهُ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ . (٣٧)

وأخرج ابن السمّان هذا الحديث أيضاً في كتاب «الموافقة» .

وذكره ابن الأثير الجزريّ هكذا : فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ : يَا بْنَ أَبِي طَالِبٍ ! أَصْبَحْتَ اليَوْمَ وَلِيّ كُلّ مُؤْمِنٍ . (٣٨)

وذكرها بهذه العبارة خواندمير : غياث الدين بن همام الدين الحسينيّ ، وهو من أهل السنّة في تأريخه بعد عرض واقعة الغدير ونزول آية التبليغ وتبيان حديث الولاية : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذا عَلِيّ مَوْلَاهُ . اللّهُمّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ ،

وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ ، وَأَدِرِ الحَقّ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ . ثمّ جلس أمير المؤمنين كرّم الله وجهه بأمر من النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم في خيمة ليزوره الناس ويهنّئوه ، وفيهم أمير المؤمنين عُمَرُ بْنُ الخَطّاب رَضِيَ اللَهُ عَنْهُ فَقَالَ : بَخٍّ بَخٍّ يَا بْنَ أَبِي طَالِبٍ ! أَصْبَحْتَ مَوْلَائي وَمَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ . (٣٩)

ثمّ أمر النبيّ أُمّهات المؤمنين بالدخول على أمير المؤمنين وتهنئته . (٤٠)

ونقل مير محمّد بن خاوند شاه المعروف بمير خواند في تأريخه هذه العبارات نفسها باللغة الفارسيّة . (٤١)

وخصوص حديث تهنئة الشيخين (أبي بكر وعمر) رواه ، مضافاً إلى علماء الشيعة رضوان الله عليهم من أئمّة التأريخ والتفسير والحديث من رجال السنّة كثير لا يستهان بعدّتهم بين راوٍ أيّاه بمسانيد صحاح برجال ثقات تنتهي إلى ابن عبّاس ، وأبي هريرة ، وزيد بن أرقم ، والبراء بن عازب ، وبين راوٍ مرسلاً له إرسال المسلّمات .

وذكره بعض العامّة بلفظ : بَخٍّ بَخٍّ يَا عَلِيّ ، وبعضهم بلفظ هَنِيئَاً لَكَ ، وبعضهم بلفظ طُوبَى لَكَ ؛ ومن جهة أُخرى ، نقله بعضهم بلفظ أَصْبَحْتَ ، وبعضهم بلفظ وَأَمْسَيْتَ ، وبعضهم بلفظ أَصْبَحْتَ وَأَمْسَيْتَ . ورواه جماعة عن عمر ، وجماعة عن أبي بكر وعمر كليهما . ومفاد متن الحديث متباين أيضاً ، فبعضهم رواه بلفظ مَوْلَايَ وَمَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ ، وبعضهم بلفظ مَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ ، وبعضهم بلفظ مَوْلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ، وبعضهم بلفظ مَوْلَايَ وَمَوْلَى كُلِّ مُسْلِمٍ . أذكر فيما يلي زبدة ما ذكره العلّامة الأمينيّ رحمة الله عليه ولكن بترتيب وأُسلوب خاصّ بنا .

الأوّل : الحافظ أحمد بن عقدة في كتاب «الولاية» ، والحافظ أبو عبد الله المرزبانيّ في كتاب «سرقات الشعر» ، والحافظ عليّ بن عمر الدارقطنيّ بناءً على نقل ابن حَجَر في «الصواعق» ، وأبي محمّد العاصميّ في كتاب «زَيْن الفتى» ، والحافظ أبو عبد الله الكنجيّ في كتاب «كفاية الطالب» ، وابن حجر العسقلانيّ الهيتميّ في كتاب «الصواعق المحرقة» ، وشمس الدين المناويّ الشافعيّ في كتاب «فيض القدير» وأبو عبد الله الزرقانيّ في كتاب «شرح المواهب» ، وسيّد أحمد زَيني دَحْلان في كتاب «الفتوحات الإسلاميّة» . أخرجه هؤلاء بالعبارة التالية : «قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ : أَمْسَيْتَ يَا بْنَ أَبِي طَالِبٍ ! مَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ» .

الثاني : الحافظ أبو عبد الله ابن بطّة في كتاب «الإبانة» ، والقاضي أبو بكر الباقلّانيّ في كتاب «تمهيد الأُصول» ، ذكراه هكذا : إنّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ لَمّا سَمِعَا قَالَا : يَا بْنَ أَبِي طَالِبٍ ! أَنْتَ مَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ !

الثالث : الحافظ أبو بكر ابن شيبة في كتاب «المُصَنّف» ، وأحمد بن حنبل في مسنده ، والحافظ أبو عبّاس الشيبانيّ ، والحافظ أبو يعلى الموصليّ في مسنده ، والحافظ أبو سعد

السمعانيّ في «فضائل الصحابة» ، وأبو الفرج ابن الجوزيّ الحنبليّ في مناقبه ، وأبو المظفّر سبط ابن الجوزيّ الحنفيّ في «تذكرة خواصّ الأُمّة» ، وعمر بن محمّد الملّا في «وسيلة المتعبّدين» . والحافظ محبّ الدين الطبريّ في «الرياض النضرة» ، وشيخ الإسلام «الحمّوئيّ» في «فرائد السمطين» ، ووليّ الدين الخطيب في «مشكاة المصابيح» ، وجمال الدين الزرنديّ في «نظم درر السمطين» وأبو الفداء ابن كثير الشاميّ الشافعيّ في «البداية والنهاية» ، وتقي الدين المقريزيّ المصريّ في «الخطط» ، ونور الدين بن صبّاغ المالكيّ في «الفصول المهمّة» وكمال الدين الميبديّ في «شرح الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين» ، وجلال الدين السيوطيّ في «جمع الجوامع» بناءً على نقل «كنز العمّال» ، ونور الدين السمهوديّ الشافعيّ في «وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى» ، وسيّد عليّ بن شهاب الدين الهمدانيّ في «مودّة القربى» ، وسيّد محمود الشيخانيّ القادريّ في «الصراط السويّ في مناقب آل النبيّ» ، والشيخ أحمد با كثير المكّيّ في «وسيلة المآل في عَدّ مناقب الآل» ، والميرزا محمّد البدخشانيّ في «مفتاح النجا في مناقب آل العبا» ، والشيخ محمّد صدر العالم في «معارج العلى في مناقب المرتضى» ، وأبو وليّ الله العُمَريّ الدهلويّ ، وسيّد محمّد الصنعانيّ في «الروضة النديّة شرح التحفة العلويّة» ، والمولويّ محمّد مبين اللكهنويّ في «وسيلة النجاة» ، والشيخ محمّد حبيب الله الشنقيطيّ المالكيّ في «كفاية الطالب في حياة عليّ بن أبي طالب» . نقله هؤلاء كلّهم بالعبارة التالية : «قَالَ عُمَرُ : هَنِيئاً لَكَ يَا بْنَ أَبِي طَالِبٍ ! أَصْبَحْتَ وَأَمْسَيْتَ مَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ !

الرابع : الحافظ أبو جرير الطبريّ في تفسيره ، والحافظ أبو سعيد الخركوشيّ في «شرف المصطفى» ، وأبو حامد الغزاليّ في «سرّ العالمين» ، وأخطب خطباء خوارزم موفّق بن أحمد الحنفيّ في مناقبه ، وفخر الدين الرازيّ الشافعيّ في تفسيره ، ونظام الدين القمّيّ النيسابوريّ ، وسيّد عبد الوهّاب الحسينيّ البخاريّ ، ومحمّد محبوب العالم في «تفسير شاهي» . نقله هؤلاء بالعبارة التالية : فَلَقِيَهُ عُمَرُ فَقَالَ : هَنِيئاً لَكَ يَا بْنَ أَبِي طَالِبٍ ! أَصْبَحْتَ وَأَمْسَيْتَ مَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ .

الخامس : الحافظ ابن سمّان الرازيّ بناءً على نقل محبّ الدين الطبريّ في «الرياض النضرة» ، والشنقيطيّ في «حياة عليّ بن أبي طالب» ، وحُسام الدين بايزيد السّهَانبوريّ في «مرافض الروافض» . ذكره هؤلاء العبارة التالية : فَلَقِيَ عَلِيّاً عَلِيهِ السَّلَامُ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ بَعْدَ ذَلِكَ فَقَالَ : هَنِيئاً يَا بْنَ أَبِي طَالِبٍ ! أَصْبَحْتَ وَأَمْسَيْتَ مَوْلَايَ وَمَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ .

السادس : أبو إسحاق الثعلبيّ في تفسيره «الكشف والبيان» ، والحافظ أبو بكر البيهقيّ بناءً على نقل «الفصول المهمّة» ، والحافظ أبو بكر الخطيب البغداديّ ، والفقيه أبو الحسن ابن المغازليّ في «المناقب» ، وأبو الفتح الأشعريّ الشهرستانيّ في «الملل والنحل» ،

والقاضي نجم الدين الأذرعيّ الشافعيّ في «بديع المعاني» . نقله هؤلاء بالعبارة التالية : فَلَقِيَهُ عُمَرُ فقَالَ : هَنِيئاً لَكَ يَا بْنَ أَبِي طَالِبٍ ! أَصْبَحْتَ مَوْلَى كُلّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ .

السابع : الفقيه ابن المغازليّ في «المناقب» بسند آخر ، والخطيب الخوارزميّ في «المناقب» ، بسند آخر ، نقلاه هكذا : بَخٍّ بَخٍّ يَا أَبَا الحَسَنِ ! أَصْبَحْتَ مَوْلَايَ وَمَوْلَى كُلّ مُسْلِمٍ !

الثامن : أبو الفتح محمّد بن عليّ النطنزيّ في «الخصائص العلويّة» ، والشيخ الحمّوئيّ بسند آخر ، روياه كالآتي : قَالَ عُمَرُ : بَخٍّ بَخٍّ يَا بْنَ أَبِي طَالِبٍ ! أَصْبَحْتَ مَوْلَايَ وَمَوْلَى كُلّ مُسْلِمٍ !

التاسع : أبو محمّد العاصميّ في «زين الفتى» بسند آخر ، قال فيه : قَالَ عُمَرُ : هَنِيئاً لَكَ يَا أَبَا الحَسَنِ ! أَصْبَحْتَ مَوْلَى كُلّ مُسْلِمٍ !

العاشر : أبو السعادات ابن الأثير الشيبانيّ في «النهاية» ، وشهاب الدين القسطلانيّ في «المواهب اللّدُنّيّة» ، أورداه بهذه العبارة : قَوْلُ عُمَرُ لِعَلِيّ : أَصْبَحْتَ مَوْلَى كُلّ مُؤْمِنٍ .

الحادي عشر : عزّ الدين بن الأثير الشيبانيّ ، ذكره بهذه العبارة : قَالَ عُمَرُ : يَا بْنَ أَبِي طَالِبٍ ! أَصْبَحْتَ اليَوْمَ مَوْلَى كُلّ مُؤْمِنٍ . (٤٢)

فهذه بعض الأحاديث والروايات الدالّة على أنّ الشيخين قد أقرّا واعترفا بولاية أمير المؤمنين عليه السلام إلّا أنّهما حملا الولاية على معنى آخر غير الإمامة والإمارة والخلافة لئلّا تصطدم بإمارتهما وحكومتهما . وهذا الحمل غير صحيح لأنّ ما نصّ عليه أهل اللغة والشعراء ، وما عُرفَ من المعنى الأصليّ للولاية ــ كما ذكرنا في المباحث المتقدّمة ــ هو أنّ الولاية بمعنى الأولويّة من جميع الوجوه ، والقُرب بكلّ ما للكلمة من معنى ، وهو ما يستلزم الرئاسة والحكومة والخلافة وحقّ التصرّف في الدين والدنيا .

إنّ أُولئك ينكرون هذه الحقيقة مع أنّها أظهر من الشمس ، ويتشبّثون بأدلّة واهية كقولهم : إنّ الحكومة منفصلة عن الولاية ، وإنّ على الناس أن ينهضوا لتعيين الإمام ؛ كما نلاحظ أنّ كثيراً من العامّة يقولون في كيفيّة الاستدلال : إنّ الحديث المعروف : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ حديث صحيح وأنّه ثابت الصدور عن رسول الله ، ومتواتر ، بيد أنّ الولاية لا تعني الحكومة والخلافة . إنّهم يقولون : إنّ أفضل دليل على هذا الموضوع هو أنّ الشيخين هنّئا أمير المؤمنين عليه السلام بعدما سمعا هذا الحديث من رسول الله واعترفا به ، بيد أنّهما اجتمعا في سقيفة بني ساعدة ومعهما جماعة وأبو بكر .

يقول السيّد محمّد رشيد رضا : «يقول أهل السنّة : إنّ الحديث لا يدلّ على ولاية السلطة التي هي الإمامة أو الخلافة . ولم يستعمل هذا اللفظ في القرآن بهذا المعني . بل المراد بالولاية فيه ولاية النصرة والمودّة التي قال الله فيها في كلّ من المؤمنين والكافرين : «بعضهم أولياء بعض» . ومعنى الحديث : «من كنت ناصراً ومواليًا له فعليّ ناصره

ومواليه» ؛ أو «من والاني ونصرني فليوال عليّاً وينصره» . وحاصل معناه أنّه يقفو أمر النبيّ فينصر من ينصر النبيّ . وعلى من ينصر النبيّ أن ينصره [عليّ عليه السلام] .

وهذه مزية عظيمة . وقد نصر كرّم الله وجهه أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ووالاهم . فالحديث ليس حجّة على من والاهم مثله ، بل حجّة له على من يبغضهم ويتبرّأ منهم . وإنّما يصحّ أن يكون حجّة على من والى معاوية ونصره عليه .

فهو لا يدلّ على الإمامة بل يدلّ على نصره إماماً ومأموماً ، ولو دلّ على الإمامة عند الخطاب ، لكان إماماً مع وجود النبيّ ؛ والشيعة لا تقول بذلك .

وللفريقين أقوال في ذلك لا نحبّ استقصاءها والترجيح بينها ، لأنّها من الجدل الذي فرّق بين المسلمين ، وأوقع بينهم العداوة والبغضاء . وما دامت عصبيّة المذاهب غالبة على الجماهير ، فلا رجاء في تحرّيهم الحقّ في مسائل الخلاف ، ولا في تجنّبهم ما يترتّب على الخلاف من التفرّق والعداء .

ولو زالت تلك العصبيّة ونبذها الجمهور ، لما ضرّ المسلمين حينئذٍ ثبوت هذا القول أو ذاك ، لأنّهم لا ينظرون فيه حينئذٍ إلّا بمرآة الإنصاف والاعتبار ، فيحمدون المحقّين ، ويستغفرون للمخطئين .

رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَ نِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ . (٤٣)

أمّا نحن فقد أبنّا بحول الله وقوّته إبانة الشمس الساطعة أنّ معنى الولاية هو مقام العبوديّة المحضة ورفع الحجاب بين المعبود وعبده ، وشرط ذلك القُرب الملازم للسيطرة التكوينيّة على عالم الملك والملكوت ، الذي لا تبارحه الرئاسة والإمارة والإمامة ، إذ هي من شؤونه ولوازمه التي لا تنفصل عنه ؛ والفصل بينهما، بخاصّة في خطبة رسول الله ومع هذه القرائن والشواهد الجمّة ، أمر لا يقرّه العقل .

فالحديث يدلّ على الولاية المتمثّلة بإمارة أمير المؤمنين ، كما يدلّ على وجوب موالاة مواليه كسلمان ، وأبي ذرّ ، والمقداد ، وعمّار وَمَنْ يَحْذُو حَذْوَهُمْ ؛ وعلى وجوب معاداة أعدائه أيّاً كانوا . ذلك أنّ التّوَلّي والتّبَرّي ركنان من الأركان الثابتة للمذهب من وحي هذا المنطلق . أمّا النقاشات المتحيّزة فهي خاطئة وعقيمة دائماً ، بيد أنّ النقاش الذي يتوخّى تقصّي الحقائق واستنتاج الرأي الصحيح ، ومعرفة المحقّ من المفسد والمنصف من المُدغِل المكابر لتشييد الآراء على أساس مذهب صحيح ، واتّباع الحقّ دون الباطل فهو ممدوح ولازم بل وضروريّ . وأنّى لنا معرفة المذهب الصحيح من غير الصحيح ما لم نتوفّر على بحث دقيق وصحيح في التأريخ التحليليّ للصحابة في صدر الإسلام ؟

وحينئذٍ على أيّ منهج من المناهج نرسّخ آراءنا وعقائدنا وأخلاقنا وأعمالنا ؟ فمعرفة الصحابة وأُسلوب تفكيرهم ضروريّ لنا . وكلّ من كان من أهل التمحيص والتنقيب

والبحث عن المذهب الصحيح ، لا يمكنه أن يتملّص من هذه المسألة ، فيتّبعهم اتّباعاً أعمى بلا معرفة تَقْلِيدَاً لِبَعْضِ السّلَفِ ؛ وهذا خلاف الدعوة الإسلاميّة . وسنتحدّث عن هذا الموضوع إن شاء الله .

وأمّا ما قاله إنّنا لا نحبّ استقصاء آراء الفريقين : الشيعة والسنّة والترجيح بينهما ؛ فالواضح أنّ هذا الاستقصاء سيؤدّي إلى بروز أعراض الخجل على وجوه أنصار الصحابة ؛ ويبلغ بنا في البحث الكلاميّ نقطة تستبين فيها الحقيقة كالشمس في رائعة الضحى ، أنّ تلك الشرذمة قد غصبت حقّ عليّ بن أبي طالب غصباً لا مراء فيه ، وسجّرت النار في باب بضعة الرسول . وحينئذٍ فمن الطبيعيّ أنّ مصلحة المتمسّكين بهذا الرأي تتطلّب أن لا يستقصوا ولا يرجّحوا !

أمّا مهمّة الباحث النزيه فتتمثّل في أنّه يتابع الموضوع متابعة دقيقة ويستوفيه حقّه في أيّ بحث ، ويعرض الحقّ بلا تحيّز لفرقة من الفرق ، ويضعه في متناول أيدي الباحثين والقرّاء ؛ وحينئذٍ سيتعرّف الناس على الحقيقة ويختارون طريقهم ، فلا يتحمّل الباحث مسؤوليّة ذلك . والإنسان الكاتب بخاصّة في المسائل الكلاميّة التي تمسّ عقائد الناس في الصميم ينبغي أن يكون أميناً ، ذلك أنّه يكون مرجعاً لأجيال تتّخذ رأيه حجّة بوصفه مستشاراً وَالمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ .

إنّ عليّ بن أبي طالب الذي يقرّ المخالفون بأنّه الوحيد رجل الحقّ والاستقامة الحقيقيّ ، والأعلم والأفضل والأورع والأشجع والأعرف بكتاب الله وسنّة رسوله ، ومع سابقته في التوحيد والإخلاص والإيمان والإيقان والإيثار والعبوديّة المحضة للّه ، وتضحيته الخالصة لرسوله الأكرم في السرّاء والضرّاء واليسر والعسر ، قد أُقصي من القيادة بلا دليل مقنع ، فَلِمَ حدث ذلك ؟ وبأيّ دليل ... ؟

وإذا كانت الإمامة والحكومة بتعيين وانتخاب الناس وبوجوب الرجوع إلى أهل الخبرة وأصحاب الحلّ والعقد ، فلماذا بادر القوم سرّاً وعلى عجل وبسرعة تفوق الحدّ باتّجاه السقيفة دون أن يعلموا عليّاً وشيعته من كبار أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار ودون أن يخبروا العبّاس عمّ النبيّ وأولاده ، ودون أن يشترك أحد من بني هاشم ، وتخلّف جمع كثير من المهاجرين والأنصار بينما لا يزال جثمان رسول الله ملقى على الأرض وعليّ مشغول بغسله وتكفينه ؟ ونقل المؤرّخون من العامّة أنّ الشيخين (أبو بكر وعمر) أسرعا إلى سقيفة بني ساعدة وهما يتسابقان . وبعد محادثات دارت في السقيفة خفية ، وهي تحوم حول أفضليّة قريش على الأنصار ، صوّتوا وبايعوا أبا بكر .

وإذا كان الانتماء إلى قريش معياراً للإمامة ، فعليّ أفضل قريش وأعلمهم وأقربهم من رسول الله ، فكيف استدلّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة ؟

يقول ابن قتيبة الدينوريّ : لمّا أُخذ عليّ إلى المسجد للبيعة ، وأُمر بها قال : اللَهَ اللَهَ يَا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ ! لَا تُخْرِجُوا سُلْطَانَ مُحَمّدٍ فِي العَرَبِ عَنْ دَارِهِ وَقَعْرِ بَيْتِهِ إِلَى دُورِكُمْ وَقُعُورِ بُيُوتِكُمْ ! وَلَا تَدْفَعُوا أَهْلَهُ عَنْ مَقَامِهِ فِي النّاسِ وَحَقِّهِ ! فَوَ اللَهِ يَا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ ! لَنَحْنُ أَحَقّ النّاسِ بِهِ ، لِأنّا أَهْلُ البَيْتِ ، وَنَحْنُ أَحَقّ بِهَذَا الأَمْرِ مِنْكُمْ !

مَا كَانَ فِينَا القَارِئُ لِكِتَابِ اللَهِ ، الفَقِيهُ فِي دِينِ اللَهِ ، العَالِمُ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَهِ ، المُضْطَلِعُ بِأَمْرِ الرّعِيّةِ ، المُدَافِعُ عَنْهُمُ الأُمُورَ السّيّئَةَ ، القَاسِمُ بَيْنَهُمْ بِالسّوِيّةِ ، وَاللَهِ إِنّهُ لَفِينَا ؛ فَلَا تَتّبِعُوا الهَوَى فَتَضِلّوا عَنْ سَبِيلِ اللَهِ ! فَتَزْدَادُوا مِنَ الحَقّ بُعْدَاً .

فَقَالَ بَشِيرُ بْنُ سَعْدٍ الأَنْصَارِيّ : لَوْ كَانَ هَذَا الكَلَامُ سَمِعَتْهُ الأَنْصَارُ مِنْكَ يَا عَلِيّ قَبْلَ بَيْعَتِهَا لِأَبِي بَكْرٍ مَا اخْتَلَفَ عَلَيْكَ اثْنَانِ ! (٤٤)

ينبغي أن نعلم أنّ بشير بن سعد المذكور هو بَشِيرُ بْنُ سَعْد بْن ثَعْلَبَةَ بْن جُلَاس الأَنْصَارِيّ الخَزْرَجِيّ من سادات الخزرج وكبارها . (٤٥) وهو الذي تنافس في السقيفة مع سعدبن عبادة رئيس الأوس حسداً ، وقد سبق إلى بيعة أبي بكر حتّى بادر إليها قبل عمر وأبي عبيدة بن الجرّاح ، فاقتفى الأنصار أثره في البيعة .

وفي هذه الحالة فإنّه نفسه يعترف أنّ الأنصار لو كانت سمعت كلام عليّ قبل بيعة أبي بكر ، لما تخلّف أحد عن بيعته . ويستبين هنا أنّ سقيفة بني ساعدة كان يسودها ذلك الوضع إذ لم تشهد حضور أهمّ مرشّح للخلافة له كلّ هذه الامتيازات ، ولو كان حاضراً ، فلا جرم يتّخذ المجلس طابعاً آخر . فلا شأن إذَن لذلك الاختيار ، ولا قيمة لذلك الاجتماع السرّيّ الذي عقد خفية بغياب عليّ وبني هاشم وكبار المهاجرين والأنصار .

ومن المؤاخذات التي أُثيرت حول خلافة أمير المؤمنين عليه السلام هي حداثة سنّه . فقد كانوا يقولون : عليّ حَدَث . وأسمعه أبو عبيدة الجرّاح ذلك عندما أُخذ للبيعة فقال له :

يَا بْنَ عَمّ ! إنّكَ حَدِيثُ السّنّ وَهَؤُلَاءِ مَشِيخَةُ قَوْمِكَ ، لَيْسَ لَكَ مِثْلُ تَجْرِبَتِهِمْ وَمَعْرِفَتِهِمْ بِالأُمُورِ ؛ وَلَا أَرَى أَبَا بَكْرٍ إلّا أَقْوَى عَلَى هَذَا الأَمْرِ مِنْكَ وَأَشَدّ احْتِمَالاً وَاضْطِلَاعَاً بِهِ ، فَسَلّمْ لأَبِي بَكْرٍ هَذَا الأَمْرَ ! فَإنّكَ إنْ تَعِشْ وَيَطُلْ بِكَ بَقَاءٌ فَأَنْتَ لِهَذَا الأَمْرِ خَلِيقٌ وَبِهِ حَقِيقٌ فِي فَضْلِكَ وَدِينِكَ وَعِلْمِكَ وَفَهْمِكَ وَسَابِقَتِكَ وَنَسَبِكَ وَصِهْرِكَ ! (٤٦)

نلاحظ في هذه العبارات المدروسة الصادرة عن أبي عبيدة الجرّاح ، ثالث من بايع أبا بكر ، وأحد المخطّطين للسقيفة ، والباذلين قصارى جهودهم في دعم الشيخين ، كيف يحذّر عليّ من الخلافة وولاية أُمور المسلمين مع اعترافه بأفضليّته على الشيخين ديناً وعلماً وفهماً وسابقة ونسباً ومصاهرة ، ولا مبرّر لتحذيره إلّا حداثة السنّ يقول له : لا يهمّك فإنّ الخلافة ستصير إليك عند شيخوختك إن بقيت حيّاً !

أوّلاً : لم يكن أمير المؤمنين عليه السلام حدثاً عند وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله بل كان له من العمر ثلاث وثلاثون سنة ؛ وكان في تلك المدّة يحظى برعاية خاصّة يوليها

له رسول الله منذ ولادته ، وكان ملازماً له في السرّ والعلن ، وواقفاً على أسرار الدين ، وكان الحامي الوحيد للرسول الأعظم باعتراف الصديق والعدوّ . وهو عيبة علمه ، العارف بكتاب الله وسنّة رسول الله ، والنازل الفريد في ساحات الوغى ، والحاصد لجذور الكفر والشرك والعناد والتكبّر ، والملقّن كفّار قريش دروساً مرّة في شتّى المعارك والغزوات .

وكان أمير المؤمنين ابن الدين المدرّب على مفاهيمه ، والعالم برموزه ، والواقف على أسراره . وكان يعيش في روح الدين وقلب الأحداث وزيراً ووليّاً ومولىً ووصيّاً وأخاً وخليفة وقائماً بالأمر بعد رسول الله بنصّ رسول الله .

وما جدوى الشيخوخة إن لم تكن قرينة للعلم والإيمان والإيثار والتضحية والتحمّس والاستقامة والتقوى ؟ أليست قيمة الحبّة الواحدة من الدرّ والجوهر المتألّق تفوق قيمة الجبل العظيم من الحجر ؟ ألم يكن الطفل اليافع أغلى قيمة من الفيل المسنّ ؟ ألم يتفوّق الشابّ القويّ العليم المدبّر على الشيخ الضعيف ذي الفهم القليل ؟

وحينئذٍ ، ماذا تعني هذه الفضوليّة في الدين ؟ فعندما يعيّنه رسول الله ويسمّيه خليفة ووليّاً ومولىً ، ويدعوه وزيراً ووصيّاً ، وخاتم الأوصياء ، (٤٧) وخاتم الوصيّين ، (٤٨) فمن تكونون أنتم حتّى تتدخّلوا في هذه الأُمور ؟ ألم يكن هذا تدخّلاً منكم في المعنويّات وحقيقة الأسرار الإلهيّة والرموز النبويّة إذ أبديتم آراءكم مع عدم خبرتكم ، وقصر باعكم في هذه المسائل الإلهيّة ، وهذه المراحل من التجرّد وعالم الأنوار ، فقدّمتم أبا بكر للحيته البيضاء وأُبوّته لزوجة رسول الله ؟!

ألم يكن رسول الله أعرف منكم في تعيين عليّ وصيّاً له وتفويض أُمور المسلمين بالولاية الكلّيّة الإلهيّة إليه ؟ ألم يلقّبه أميرَ المؤمنين ، ويأمر أُمّته وشيوخ قريش وحتّى زوجاته بعد فراغه من خطبة الغدير أن يسلّموا عليه ويهنّئوه بإمرة المؤمنين قائلين : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ؟ وهل علمتم أنتم عدم كفاءته للحكومة ولم يعلم الله ورسوله ذلك ؟

ألم ترووا في كتبكم أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : مَا أَنْزَلَ اللَهُ آيَةً فِيهَا «يَأَيّهَا الّذِينَ ءَامَنُوا» إلّا وَعَلِيّ رَأْسُهَا وَأَمِيرُهَا . (٤٩)

وسمّى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عليّاً : أَمِيرَ البَرَرَةِ وَإمَامَ البَرَرَةِ .

وروى الحمّوئيّ بسنده عن عبد الرحمن بن بَهْمان قال : سمعت جابر بن عبد الله [الأنصاريّ] قال : سمعت النبيّ صلّى الله عليه وآله وهو آخذ بضبع عليّ يوم الحديبيّة وهو يقول : هَذَا أَمِيرُ البَرَرَةِ ، قَاتِلُ الفَجَرَةِ ، مَنْصُورٌ مَنْ نَصَرَهُ ، مَخْذُولٌ مَنْ خَذَلَهُ [قَالَ جَابِرٌ] مَدّ بِهَا صَوْتَهُ . (٥٠)

وروى موفّق بن أحمد الخوارزميّ ، عن ابن منصور شهردار بن شيرويه الديلميّ بسنده عن الأصبغ بن نباتة قال : لَمّا أُصِيبَ زَيْدُ بْنُ صُوحَان يَوْمَ الجَمَلِ أَتَاهُ عَلِيّ عَلِيهِ

السَّلَامُ وَبِهِ رَمَقٌ ؛ فَوَقَفَ عَلَيهِ وَهُوَ لِمَا بِهِ فَقَالَ : رَحِمَكَ اللَّهُ يَا زَيْدُ ، فَوَ اللَّهِ مَا عَرَفْنَاكَ إلَّا خَفِيفَ المَؤُونَةِ كَثِيرَ المَعُونَةِ ! قَالَ : فَرَفَعَ إِلَيهِ رَأْسَهُ وَقَالَ :

أَنْتَ مَوْلَايَ يَرْحَمُكَ اللهُ ، فَوَ اللَّهِ مَا عَرَفْتُكَ إِلَّا بِاللَّهِ عَالِماً ، وَبِآيَاتِهِ عَارِفاً ! وَاللَّهِ مَا قَاتَلْتُ مَعَكَ مِنْ جَهْلٍ وَلَكِنِّي سَمِعْتُ حُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : عَلِيٌ أَمِيرُ البَرَرَةِ ، وَقَاتِلُ الفَجَرَةِ ، مَنْصُورٌ مَنْ نَصَرَهْ ، مَخْذُولٌ مَنْ خَذَلَهُ أَلَا وَإِنّ الحَقّ مَعَهُ وَيَتْبَعُهُ . أَلَا فَمِيلُوا مَعَهُ . (٥١)

وفي رواية ابن عساكر أن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : عَلِيٌّ إِمَامُ البَرَرَةِ ، وَقَاتِلُ الفَجَرَةِ ، مَنْصُورٌ مَنْ نَصَرَهْ ، مَخْذُولٌ مَنْ خَذَلَهُ . (٥٢)

وروى أبو نعيم الإصفهانيّ عن معاذ بن جبل أنّه قال : قَالَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلَّمَ : يَا عَلِيّ ! أَخْصِمُكَ بِالنُّبُوَّةِ وَلَا نُبُوَّةَ بَعْدِي ! وَتَخْصِمُ النَّاسَ بِسَبْعٍ ! وَلَا يُحَاجُّكَ فِيهَا أَحَدٌ مِنْ قُرَيْشٍ ! أَنْتَ أَوَّلُهُمْ إِيمَاناً ، وَأَوْفَاهُمْ بِعَهْدِ اللَّهِ ، وَأَقْوَمُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ ، وَأَقْسَمُهُمْ بِالسَّوِيَّةِ ، وَأَعْدَلُهُمْ فِي الرَّعِيَّةِ ، وَأَبْصَرُهُمْ بِالقَضِيَّةِ ، وَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَزِيَّةً . (٥٣)

فكيف يكون موقفنا من هذه النصوص التي أُثرت عن رسول الله ومنحت عليّ بن أبي طالب عنوان الإمارة ، وجعلته أميراً ورئيساً وقائداً للمسلمين ، وعدّته أبصر الناس في كلّ أمر وأقومهم به ؟ أليس من المخجل أن يُقصى بذريعة حداثة السنّ ، وينصّب بدله شيوخ لا يقاسون به أبداً ؟

ولو كانت حداثة السنّ حائلاً دون الإمارة والحكومة ، فلماذا أمّر رسول الله أُسامة بن زيد على الجيش ؟ وكان شابّاً قد بلغ العشرين من عمره أو أقلّ ، وفي الجيش مشيخة قريش وكبارها كأبي بكر ، وعمر ، جعلهم رسول الله تحت إمرته ، (٥٤) وأمر أن يتحرّك الجيش ويعجّلوا في إنفاذه .

فكيف يجوز أن يُعَيّن حدث في العشرين من عمره رئيساً وأميراً على أبي بكر وعمر ؟

ومن هذا المنطلق ، عندما غصب أبو بكر خلافة رسول الله بعد وفاته لم يعزل أُسامة عن إمارة الجيش ، ومع أنّ أُسامة كان حدثاً ، إلّا أنّ أبا بكر قال : لا أعزله عن الإمارة لأنّ رسول الله نصبه ، ولا أُخالف أمر رسول الله . وحتّى أنّه أخذ بلحية عمر وجرّها غاضباً عندما أصرّ على عزله ، وهدّده قائلاً : كيف أُخالف رسول الله ؟! استعمله رسول الله وأنا أعزله (٥٥) ؟!

بيد أنّه خالف رسول الله في أصل الخلافة ، وتربّع على أريكة الخلافة بلا مجوّز شرعيّ ، مخالفاً النصوص الصريحة الدالّة على خلافة أمير المؤمنين عليه السلام .

كان يقول : أُقاتل أهل الردّة ؛ ولو منعوني عقالاً كانوا يعطونه رسول الله لقاتلتهم . غير أنّه أخذ فدكاً من الزهراء عليها السلام علناً ، ولم يجد في ذلك مخالفة لحكم رسول الله .

والأحاديث المتواترة التي رواها الفريقان كثيرة ، منها قوله : أَنَا مَدِينَةُ العِلْمِ وَعَلِيّ بَابُهَا ، وَمَنْ أَرَادَ مَدِينَةَ العِلْمِ فَلْيَأْتِهَا مِنْ بَابِهَا . (٥٦)

وقوله : أَنَا دَارُ الحِكْمَةِ وَعَلِيّ بَابُهَا . (٥٧)

وقوله : أَنَا مَدِينَةُ الجَنَّةِ وَعَلِيّ بَابُهَا . كَذَبَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ غَيْرِ بَابِهَا . (٥٨)

ينبغي الدخول ــ إذَنْ ــ من باب الجنّة والعلم والحكمة ، وذلك الباب هو باب بيت عليّ . فلو دخلتَ أيّها الداخل من باب أبي بكر فسوف لا تجني إلّا الخيبة والخسران . ما أجمل هذا البيت الذي نقله القاضي نور الله الشوشتريّ :

هست بى شبهه خَطَا چون بربُتَان نام خدا

بر كسى غير از تو اطلاقِ أمير المؤمنين (٥٩)

وروى ابن عساكر عن أبي المحاسن عبد الرزّاق بن محمّد في كتابه بسنده المتّصل عن العلاء بن المُسَيّب ، عن أبي داود ، عن بُرَيدة الأسلميّ قال : أَمَرَنَا رَسُولُ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ أَنْ نُسَلّمَ عَلَى عَلِيّ بِإمْرَةِ المُؤْمِنِينَ ؛ وَنَحْنُ سَبْعَةٌ وَأَنَا أَصْغَرُ القَوْمِ يَوْمَئِذٍ . (٦٠)

وروى محمّد بن عليّ بن شهرآشوب في كتاب «المناقب» عن طريق العامّة بقوله : في تفسير مجاهد قال : ما كان في القرآن «يَأَيّهَا الّذِينَ ءَامَنُوا» فإنّ لعليّ [بن أبي طالب] سابقة في تلك الآية ، لأنّه سبقهم إلى الإسلام . [وعلى هذا] سمّاه الله في تسعة وثمانين موضعاً : أمير المؤمنين ، وسيّد المخاطبين إلى يوم الدين . ثمّ قال : الخبر الذي يتضمّن بالتسليم على أمير المؤمنين متواتر عند الشيعة ، ورواه أكثر العامّة من طرق مختلفة ، فلم نجد أحداً من رواتهم طعن فيها أو من علمائهم دفعها ، قوله عليه السلام : سَلّمُوا عَلَى عَلِيّ بِإمْرَةِ المُؤْمِنِينَ ، روى ذلك علماؤهم كالمنقريّ بإسناده إلى عمران عن بريدة الأسلميّ .

وروى يوسف بن كُلَيب المسعوديّ بإسناده عن أبي داود السبيعيّ ، [قال] إنّه دخل أبو بكر على رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال [له رسول الله] : اذْهَب فَسَلّمْ عَلَى إمِيرِ المُؤْمِنِينَ ! فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَهِ ! وَأَنْتَ حَيّ ؟! قَالَ : وَأَنَا حَيّ ! ثُمّ جَاءَ عُمَرُ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ .

وفي رواية السبيعيّ أنّه قال عمر : ومَن أمير المؤمنين ؟! قال [رسول الله] : عليّ بن أبي طالب . قال [عمر] : عن الله وأمر رسوله ؟! قال [النبيّ] : نعم !

[وروى] إبراهيم الثقفيّ عن عبد الله بن جَبَلَة الكنانيّ ، عن ذُرَيح المحاربيّ ، عن الثّماليّ ، عن [الإمام] الصادق عليه السلام [قال] : إنّ بريدة كان غائباً بالشام [عند بيعة أبي بكر] فقدم وقد بايع الناس أبا بكر ، فأتاه في مجلسه ، فقال : يَا أَبَا بَكْرٍ ! هَلْ نَسِيتَ تَسْلِيمَنَا عَلَى عَلِيّ بِإمْرَةِ المُؤْمِنِينَ ؟!

قَالَ : يَا بُرَيْدَةُ ! إنّكَ غِبْتَ وَشَهِدْنَا ، وَإِنّ اللَهَ يُحْدِثُ الأَمْرَ بَعْدَ الأَمْرِ ، ولَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَجْمَعَ لأَهْلِ هَذَا البَيْتِ النّبُوّةَ وَالمُلْكَ .

[وذكر إبراهيم] الثقفيّ ، والسرّيّ بن عبد الله بإسنادهما عن عِمْران بن حَصين ، وأبي بريدة أنّهما قالا لأبي بكر : قَدْ كُنْتَ أَنْتَ يَوْمَئذٍ فِيمَنْ سَلّمَ عَلَى عَلِيّ بِإمْرَةِ المُؤْمِنِينَ ، فَهَلْ تَذْكُرُ ذَلِكَ اليَوْمَ أَمْ نَسِيتَهُ ؟! قَالَ : بَلْ أَذْكُرُهُ ! فَقَالَ بُرَيْدَةُ : فَهَلْ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ أَنْ يَتَأَمّرَ عَلَى إمِيرِ المُؤْمِنِينَ ؟

فَقَالَ عُمَرُ : إنّ النّبُوّةَ وَالإمَامَةَ لَا تُجْمَعُ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ . فَقَالَ لَهُ بُرَيْدَةُ : قَالَ اللَهُ تَعَالَى : «أَمْ يَحْسُدُونَ النّاسَ عَلَى مَآ ءَاتَهُمُ اللَهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَ هِيمَ الْكِتَبَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا» (٦١) فَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ النّبُوّةِ وَالمُلْكِ . قَالَ : فَغَضِبَ عُمَرُ ، وَمَا زِلْنَا نَعْرِفُ فِي وَجْهِهِ الغَضَبَ حَتّى مَاتَ . (٦٢)

ونقل سُلَيم بن قيس الهلاليّ أُموراً عن أمير المؤمنين عليه السلام قبل واقعة صفّين ، منها : إنّ العَجَبَ كُلّ العَجَبِ مِنْ جُهّالِ هَذِهِ الأُمّةِ وَضُلّالِهَا وَقَادَتِهَا وَسَاقَتِهَا إلَى النّارِ إنّهُمْ قَدْ سَمِعُوا رَسُولَ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ يَقُولُ عَوْدَاً وَبَدْءاً : مَا وَلّتْ أُمّةٌ رَجُلاً قَطّ أَمْرَهَا وَفِيهِمْ أَعْلَمُ مِنْهُ إلّا لَمْ يَزَلْ أَمْرُهُمْ يَذْهَبُ سَفَالاً حَتّى يَرْجِعُوا إلَى مَا تَرَكُوا .

فَوَلّوا أَمْرَهُمْ قَبْلِي ثَلَاثَةَ رَهْطٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ جَمَعَ القُرْآنَ ، وَلَا يَدّعِي أَنّ لَهُ عِلْمَاً بِكِتَابِ اللَهِ وَلاَ سُنّةِ نَبِيّهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَقَدْ عَلِمُوا أَنّي أَعْلَمُهُمْ بِكِتَابِ اللَهِ وَسُنّةِ نَبِيّهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَأَفْقَهُهُمْ لِكِتَابِ اللَهِ وَأَقْضَاهُمْ بِحُكْمِ اللَهِ ــ إلى آخره . (٦٣)

أجل ، إنّنا لم نجد في آية أو خبر عن رسول الله أو في سيرة عقلائيّة أنّ حداثة سنّ إنسان في الثالثة والثلاثين من عمره تحول دون الحكومة ، وهي التي حملت القوم على إبعاده عن بيت النبوّة وهجره . وأنّ معيار الإمامة هو العلم والتقوى والبصيرة والدراية والمعرفة بكتاب الله وسنّة نبيّه والنصوص التي منحت أمير المؤمنين عليه السلام الصدارة والوزارة والإمامة والخلافة . وَإِنّهُ بِذَلِكَ لَخَلِيقٌ وَبِهِ حَقِيقٌ . صلّى الله عليك يا أبا الحسن ورحمة الله وبركاته .

وأمّا المؤاخذة الأُخرى التي سجّلوها على الإمام فهي أنّه يريد الإمامة والحكومة . وتلاحظ هذه المؤاخذة في كلام عمر أيضاً . فعندما طعنه أبو لؤلؤة بخنجره ، ودنا أجله ، طلبوا منه أن يستخلف ، فعيّن شورى تتأ لّف من ستّة أشخاص وطلب منهم أن يختاروا من بينهم أحداً للخلافة . وهؤلاء الستّة هم : عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، عُثْمَانُ بْنُ عَفّانٍ ، طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَهِ ، الزّبَيْرُ بْنُ العَوّامِ ، سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقّاصٍ ، وَعَبْدُ الرّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ .

ثمّ طلبوا منه أن يبدي رأيه فيهم حتّى يعرفوا منزلتهم ويفيدوا من رأيه في هذا المجال فيتّبعوه .

وكان هؤلاء الستّة حاضرين في المجلس إلّا طلحة . فذكر عمر سبب عدم تعيين أحد منهم بالتخصيص ، وقال : واللَهِ مَا يَمْنَعَنِي مِنْكَ أَنْ أَسْتَخْلِفَكَ يَا سَعْدُ إلّا شِدّتُكَ وَغِلْظَتُكَ مَعَ أَنّكَ رَجُلٌ حَرْبٌ . وَمَا يَمْنَعنِي مِنكَ يَا عَبْدَ الرّحْمَنِ إلّا أَنّكَ فِرْعَوْنُ هَذِهِ الأُمّةِ . وَمَا يَمْنَعَنِي مِنْكَ يَا زُبَيْرُ إلّا أَنّكَ مُؤْمِنُ الرّضَا كَافِرُ الغَضَبِ . وَمَا يَمْنَعنِي مِنْ طَلْحَةَ إلّا نَخْوَتَهُ وَكِبْرُهُ ، وَلَوْ وَلِيَهَا وَضَعَ خَاتَمَهُ فِي إصْبَعِ امْرَأَتِهِ ، وَمَا يَمْنَعَنِي مِنْكَ يَا عُثْمَانُ إلّا عَصَبِيّتُكَ وَحُبّكَ قَوْمَكَ وَأَهْلَكَ ، وَمَا يَمْنَعَنِي مِنْكَ يَا عَلِيّ إلّا حِرْصُكَ عَلَيْهَا ، وَأَنّكَ أَحْرَى القَوْمِ إنْ وَلِتَهَا أَنْ تُقِيمَ عَلَى الحَقّ المُبِينِ وَالصّرَاطِ المُسْتَقِيمِ . (٦٤)

نلحظ في كلام عمر أنّه ذكر لكلّ واحد من هؤلاء صفة مذمومة إلّا عليّ بن أبي طالب . والحقّ هو أنّ الرئيس ينبغي أن يكون منزّهاً من هذه الصفات . أمّا أمير المؤمنين عليه السلام فإنّه يقرّ بأحقّيّته وأولويّته وجدارته في هداية الناس إلى الصراط المستقيم والحقّ المبين ، غير أنّه يراه ــ بزعمه ــ حريصاً على الإمارة ، بيد أنّنا نسأل : هل هذا الحرص مذموم كما خيّل إلى عمر ، أو ممدوح كما سنبيّنه ؟ فالموضوع جدير بالبحث والدراسة . وتوضيحاً لهذه الحقيقة نقول : إنّ الحرص على الرئاسة ، وبعامّة حبّ الرئاسة على ضربين :

الأوّل : اتّخاذ الرئاسة هدفاً ، والسعي إلى بلوغها حبّاً للتحكّم في الناس والتسلّط على الضعفاء لا غير ، بحيث إنّ الإنسان يحلو له أن تكون أوامره ونواهيه نافذة ، وكلامه مطاعاً ، ويكون بعض الناس عبيداً له ، فيشعر بالسرور من أجل ذلك . ويغترّ ويتباهى عندما يشاهد أنصاراً يلتفّون حوله . ويرى أنّ فقد هذه الرئاسة يمثّل ضعفاً ونقصاً .

هذا الضرب من الرئاسة ناتج عن الحسّ الاستكباريّ وحبّ الجاه ممّا يسفر عن الحجاب بين العبد وربّه ، ويبعث على بروز القوّة الفرعونيّة ، والتغافل عن مبدأ واجب الوجود ، وظهور الظلم والعدوان ؛ سواء ظلم الناس ، أو ظلم النفس التي يحملها صاحب هذه القوّة . وبعبارة واضحة : خروج من القيم الإنسانيّة ، وتعدّي حدود الله التي عيّنها لكلّ شخص .

الثاني : اتّخاذها وسيلة للنظر في أُمور العباد ، وإقامة الحقّ ودفع الباطل ، وترسيخ أحكام الله بين الناس ، وبسط العدل في ربوع الأرض ، وإغاثة المظلومين ، وقمع الظالمين والمعتدين ، وتطهير الأرض من الفحشاء والمنكر ، وفسح المجال للناس كي ينعموا بالحرّيّات التي يرضاها الله ، وعبادة الله عبادة خالصة لذاته المقدّسة تعالى شأنه ، وتمتّع عامّة الناس بالمواهب الإلهيّة : المادّيّة والروحيّة ، الدنيويّة والأُخرويّة ، الظاهريّة والباطنيّة ، بحيث إنّهم يعيشون منعّمين تحت راية العدل والتوحيد ، وفي ظلّ الهدوء والسكينة والطمأنينة ، وهم يقضون أعمارهم التي تمثّل أفضل تحفة إلهيّة ، ثمّ ينتقلون من هذه الدار الفانية إلى تلك الدار الباقية وهم مسرورون بتحقّق طموحاتهم .

وهذا الضرب من حبّ الرئاسة ــ عندما لا يتوفّر أفضل من الإنسان ، ينظر في أُمور الناس ، ويقوم بهذه الأُمور على أحسن وجه ــ حسن ومحمود ، بل هو من الصفات الحميدة والطباع الفطريّة التي وهبها الله ، ويبعث على الكمال ، ويرفع الإنسان من حضيض المادّة إلى عالم التجرّد والملكوت . ذلك أنّ شرط هذه الرئاسة ، التحرّر من هوى النفس ، والاتّصاف بالصفات والأسماء الإلهيّة .

وهذا الضرب يماثل صفة الرحمة التي أودعها الله في الأب تماماً ، فيسعى في تربية ابنه ، ويبذل قصارى جهده في سبيل حفظه من الآفات والعاهات ، ولا يضنّ عليه بمساعيه الجميلة بغية تنميته وترقيته . وإذا لم يمارس مثل هذه الرئاسة بحقّه ، وبالتالي يهمل ولده ولا يعتني به ، فإنّه يجني عليه بتعريضه للأمراض ، والهلاك ، والنقص العلميّ والروحيّ ، ونضوب القيم الإنسانيّة الرفيعة . ويكون مسؤولاً ومؤاخذاً على ذلك في حساب العقل والضمير من جهة ، وحساب العقلاء من جهة أُخرى ، وحساب الشرع من جهة ثالثة .

فالإمامة والرئاسة على الناس إذا مارسها إنسان كفوء قد عبر من هوى النفس . والجزئيّة والتحق بالكلّيّة ، فهي على هذه الشاكلة . إذ إنّ الرئيس بهذه المواصفات أب للأُمّة . وهو مديرها ومربّيها والمشرف على شؤونها ، والمتحمّس من أجل مصلحة أفرادها جميعهم ، لا يخلد إلى الراحة لحظة واحدة ، ولا يغفل عن تدبير شؤون الناس آناً واحداً .

وهو يرى أنّ الإمامة والرئاسة مهمّة وجدانيّة وعقليّة وشرعيّة ، فيسعى إلى بلوغها ، ولا يقرّ له قرار ، ولا يمكن أن يقرّ له قرار إلّا بتحقيق ذلك .

وكان نبيّنا الأكرم ، وأمير المؤمنين عليهما الصلاة والسلام أبَوَي هذه الأُمّة . أَنَا وَعَلِيّ أَبَوَا هَذِهِ الأُمّةِ . وكما أنّ الرسول الأعظم كان بنصّ القرآن الكريم حريصاً على هداية الناس وإرشادهم إلى التوحيد حريصاً على إقرار العدل بين الناس ، فكذلك صنوه ونظيره ووزيره وأخوه عليّ بن أبي طالب . فليس له أن يخلد إلى الدعة والسكون ، تاركاً حبلها على غاربها .

قال تبارك وتعالى في نبيّه الأكرم ، مخاطباً الناس :

لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رّحِيمٌ . (٦٥)

وهل يمكن الحرص على هداية الناس بدون اتّباعهم أحداً ؟ وهل الإطاعة والاقتداء متيسّران بدون رئاسة ولزوم المتابعة ؟ ومن هذا المنطلق ، كان المشركون والكافرون يؤذون النبيّ ويتهكّمون به ويتّهمونه . ذلك أنّ النبوّة تستلزم الرئاسة . فكانوا يرون أنّ

رئاسة النبيّ تهدّد مناصبهم وتنغّص عليهم حياتهم . فلهذا كانوا ينكرون نبوّته حفظاً لرئاستهم التي تتعارض مع رئاسة النبيّ ، وإطاحةً برئاسة النبيّ نفسه .

أمّا النبيّ الرحيم فقد كان دائم الحرص على إخراج هؤلاء المساكين من ربقة أفكارهم الجاهليّة ، وآدابهم وعاداتهم البهيميّة . لم يكن له ليل ونهار ؛ ولم يسترح لحظة واحدة ، كان يتضوّر جوعاً وعطشاً ، ويشدّ حجر المجاعة على بطنه . وكان دائماً موجوداً في ميادين القتال وأقرب المسلمين إلى العدوّ . وهاجر إلى الطائف لشدّة العنف والأذى والعذاب الذي لاقاه بمكّة . ولم يستقبلوه هناك ، فقفل راجعاً إلى مكّة خائباً حيث لم يؤويه أحد فيها ، إذ كانوا كلّهم أعداءه ، ومصمّمون بأجمعهم على قتله وسفك دمه ؛ فاضطرّ إلى الاحتماء بأحد المشركين . وقضى في شعب أبي طالب ثلاث سنين سجيناً معذّباً ومعه بنو هاشم وبعض المسلمين ، حيث حرّموا عليهم الطعام ، وحظروا الزواج والتعامل معهم . وكان صراخ جوع الأطفال يصل إلى مكّة ليلاً والمشركون يسمعون إلى أن اضطرّ للهجرة هارباً من مكّة . ومكث في غار ثور ثلاثة أيّام كي لا يتمكّن المشركون أن يتقصّوا طريقه . ووحده أمير المؤمنين رجل الساحة الذي سار على هديه في الحرص على إيمان الناس ، وقدّم نفسه بكلّ إخلاص قرباناً للّه ، ورقد في فراش النبيّ مطمئنّاً .

ومن الواضح أنّ هذه المشاكل كلّها ، وهذه المعاناة والمقاسات كانت دعوة إلى الرئاسة ، أي : وجوب طاعة الناس طاعة مطلقة لأُولئك الأشخاص . أمّا الرئاسة الإلهيّة والمعنويّة فحليفتها الهموم ، وقرينها التشرّد ، ولا تعني الجلوس على العرش ورفع تاج الاستكبار ، واستعباد الناس الأبرياء ، وجرّهم ليكونوا تحت مطرقة الطغاة .

ز عشق تا به صبورى هزار فرسنگ است (٦٦)

إنّ مؤاخذة عمر أميرَ المؤمنين عليه السلام بحرصه على الرئاسة تتمثّل في الرئاسة بمنظاره الضيّق والمظلم . لقد قاس ذلك على نفسه وممارساته ، ناسياً الوصايا والتأكيدات والآيات القرآنيّة ، وباع ذلك كلّه بثمن بخس من أجل الرئاسة ، بيد أنّ منظار أمير المؤمنين عليه السلام للرئاسة شيء آخر ، ويشغل أُفقها مساحة شاسعة لا تجد الأهواء إليها سبيلاً .

كار پاكان را قياس از خود مگير
گر چه باشد در نوشتن شير شير (٦٧)

لو كان أمير المؤمنين عليه السلام طالب لرئاسة غير إلهيّة ، لامتشق حسامه منذ اليوم الذي قبض فيه رسول الله صلّى الله عليه وآله وأخذ حقّه بقمع المتآمرين وتأديبهم . وكان قادراً على ذلك ، بيد أنّه لمّا رأى الخطر محدقاً بالإسلام ، تنازل عن تلك الرئاسة ، عاضّاً على الألم ، متدرّعاً بالصبر ، وفي عينه قذى ، وفي حلقه شجى .

ونقل ابن أبي الحديد : لمّا اجتمع المهاجرون على بيعة أبي بكر ، أقبل أبو سفيان [إلى المدينة] وهو يقول : أَمَا وَاللَهِ إِنّي لَأَرَى عَجَاجَةً لَا يُطْفِئُهَا إِلّا الدّمُ ؛ يَا لِعَبْدِ مَنَافٍ ! فِيمَ أَبُو بَكْرٍ مِنْ أَمْرِكُمْ ؟! أَيْنَ المُسْتَضْعَفَانِ ؟ أَيْنَ الأَذَلّانِ ؟ ــ يعني عليّاً والعبّاس ــ مَا بَالُ هَذَا فِي أَقَلّ حَيّ مِنْ قُرَيْشٍ ؟

ثمّ قال لعليّ [عليه السلام] : ابْسُطْ يَدَكَ أُبَايِعْكَ ، فَوَ اللَهِ إِنْ شِئْتَ لَأَمْلَأَنّهَا عَلَى أَبِي فُضَيْلٍ ــ يعني أبا بكر ــ خَيْلاً وَرَجِلاً ! فَامْتَنَعَ عَلِيّ عَلَيهِ السّلَامُ . فَلَمّا يَئِسَ مِنْهُ قَامَ عَنْهُ وَهُوَ يُنْشِدُ شِعْرَ المُتَلَمّسِ :

وَلَا يُقِيمُ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ
إِلّا الأَذَلّانِ غَيْرُ الحَيّ وَالوَتَدُ
هَذَا عَلَى الخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمّتِهِ
وَذَا يُشَجّ فَلَا يَرْثَى لَهُ أَحَدُ (٦٨)

ونقل الطبريّ ، وابن الأثير أنّ أمير المؤمنين عليه السلام زجر أبا سفيان ، وقال له : إنّكَ وَاللَهِ مَا أَرَدْتَ بِهَذَا إِلّا الفِتْنَةَ ! وَإِنّكَ وَاللَهِ طَالَمَا بَغِيتَ لِلإِسْلَامِ شَرّاً ! لَا حَاجَةَ لَنَا فِي نَصِيحَتِكَ ! (٦٩)

مضافاً إلى أبي سفيان ، جاء العبّاس عمّ رسول الله إلى أمير المؤمنين عليه السلام وقال له : جئت أُبايعك ؛ فقال : عمّ رسول الله بايع ابن عمّ رسول الله ، فلا يختلف عليك اثنان .

وقال ابن قتيبة الدينوريّ : قَالَ العَبّاسُ لِعَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرّمَ اللَهُ وَجْهَهُ : ابْسُطْ يَدَكَ أُبَايِعْكَ ، فَيُقَالُ : عَمّ رَسُولِ اللَهِ بَايَعَ ابْنَ عَمّ رَسُولِ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ ، وَيُبَايِعُكَ أَهْلُ بَيْتِكَ فَإِنّ هَذَا الأَمْرَ إِذَا كَانَ لَمْ يُقَلْ .

فَقَالَ عَلِيّ كَرّمَ اللَهُ وَجْهَهُ : وَمَنْ يَطْلُبُ هَذَا الأَمْرَ غَيْرُنَا ؟! (٧٠)

وعلى الرغم من أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يعلم أنّ الخلافة والإمارة له لا لغيره ، بيد أنّه تنازل عن حقّه المسلّم به إرضاءً للّه وعملاً بوصيّة رسول الله ، وتفادياً لوقوع الفتنة والفساد ، وحفظاً للإسلام الفتي من السقوط والتداعي .

وهذه هي حقيقة التنازل ونكران الذات ، والتضحية والعبوديّة ؛ وهذا هو مفاد الشهامة والشجاعة والمروءة والعظمة والكرامة ؛ وهذا هو معنى الولاية والإشراف والرعاية . وهذه هي حقيقة السعة والإطلاق والتجرّد .

يقول ابن قتيبة : لمّا أُخذ عليّ كرّم الله وجهه إلى المسجد للبيعة ، كان يقول :

أَنَا عَبْدُ اللَهِ وَأَخُو رَسُولِهِ . فَقِيلَ لَهُ : بَايِعْ أَبَا بَكْرٍ ! فَقَالَ : أَنَا أَحَقّ بِهَذَا الأَمْرِ مِنْكُمْ ! لَا أُبَايِعُكُمْ وَأَنْتُمْ أَوْلَى لِي ! أَخَذْتُمْ هَذَا الأَمْرَ مِنَ الأَنْصَارِ ؛ وَاحْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ بِالقَرَابَةِ مِنَ النّبِيّ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ وَتَأْخُذُونَهُ مِنّا أَهْلَ البَيْتِ غَصْبَاً .

أَلَسْتُمْ زَعَمْتُمْ لِلأَنْصَارِ أَنّكُمْ أَوْلَى بِهَذَا الأَمْرِ مِنْهُمْ ، لِمَا كَانَ مُحَمّدٌ مِنْكُمْ ؛ فَأَعْطُوكُمُ المَقَادَةَ ، وَسَلّمُوا إِلَيْكُمُ الإِمَارَةَ ؟ وَأَنَا أَحْتَجّ عَلَيْكُمْ بِمِثْلِ مَا احْتَجَجْتُمْ بِهِ عَلَى الأَنْصَارِ . نَحْنُ أَوْلَى بِرَسُولِ اللَهِ حَيّاً وَمَيّتاً ؛ فَأَنْصِفُونَا إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ ؛ وَإِلّا فَبُوءُوا بِالظّلْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

فَقَالَ عُمَرُ : إِنّكَ لَسْتَ مَتْرُوكاً حَتّى تُبَايِعَ ! فَقَالَ لَهُ عَلِيّ : احْلُبْ حَلْباً لَكَ شَطْرُهُ ! وَاشْدُدْ لَهُ اليَوْمَ أَمْرَهُ يَرْدُدْهُ عَلَيْكَ غَداً . ثُمّ قَالَ : وَاللَهِ يَا عُمَرُ ! لَا أَقْبَلُ قَوْلَكَ وَلَا أُبَايِعُهُ . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَإِنْ لَمْ تُبَايِعْ فَلَا أُكْرِهَكَ ! (٧١)

(٧١)

أجل ، لا يغيب على المؤرّخين والباحثين في السير أنّ مير المؤمنين عليه السلام لو كان قبل بيعة العبّاس وأبي سفيان ، ورفع لواء المعارضة للسقيفة مع الثلّة التي كانت معه من المهاجرين والأنصار وبني هاشم ، فلا جرم كان يتسلّم مقاليد الأُمور ، بيد أنّ هذا العمل ما كان يتحقّق سلمياً ونقيّاً من شوائب الفتنة وإراقة الدماء . ذلك أنّ الطرف المقابل الذي يمثّل الحزب المعارض كان يعتزم التآمر ، ولو نشبت نار المواجهة ، لأُريقت الدماء ، وقُتِلَ حفظة القرآن الذين كانوا يحفظونه في صدورهم ؛ فلهذا تنازل أمير المؤمنين عليه السلام عن حقّه الثابت والأكيد للّه وفي الله ، وتجرّع الغصص والهموم لوجه الله ، وتحمّل ما تحمّل من فقدان العزّ الظاهريّ ، وكسر ضلع السيّدة الزهراء ، ووفاتها مهضومة ، ويُتم الأطفال ، وغير ذلك ، لئلّا تذهب جهود النبيّ على امتداد ثلاث وعشرين سنة أدراج الرياح ، ولا تستبدل الرئاسة الظاهريّة بالحقائق .

ويستبين هدفه صلوات الله عليه مشرقاً من الخطبة التي ألقاها إبّان وفاة النبيّ الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وذلك في جواب أبي سفيان والعبّاس اللذين دَعَواه إلى قبول بيعتهما له . قال عليه السلام فيها :

أَيّهَا النّاسُ ! شُقّوا أَمْوَاجَ الفِتَنِ بِسُفُنِ النّجَاةِ ! وَعَرّجُوا عَنْ طَرِيقِ المُنَافَرَةِ ! وَضَعُوا عَنْ تِيجَانِ المُفَاخَرَةِ ! أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ ، أَوِ اسْتَسْلَمَ فَأَرَاحَ ! هَذَا مَاءٌ آجِنٌ ، وَلُقْمَةٌ يَغَصّ بِهَا آكِلُهَا ! وَمُجْتَنِي الثّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِينَاعِهَا كَالزّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ .

فَإِنْ أَقُلْ يَقُولُوا : حَرَصَ عَلَى المُلْكِ ؛ وَإِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا جَزِعَ مِنَ المَوْتِ ؛ هَيْهَاتَ بَعْدَ اللّتَيّا وَالّتِي ؛ وَاللَّهِ لَابْنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ بِالمَوْتِ مِنَ الطّفْلِ بِثَدْيِ أُمّهِ ؛ بَلِ انْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لَاضْطَرَبْتُمُ اضْطِرَابَ الأَرْشِيَةِ فِي الطّوِيّ البَعِيدَةِ . (٧٢)

نرى هنا أنّ الإمام عليه السلام مع اندماجه على حكم مكنون وبحر عميق من العلم الإلهيّ ، يشير إلى الحرص على الخلافة ، الذي يتّهمه به ذوو الأُفق الضيّق ، دون الالتفات إلى حقيقة ذلك .

ونلحظه في الخطبة الشقشقيّة عندما ينقل الأحداث بشكل واضح ، يقسم بالله الذي فلق الحبّة ، وبرأ النسمة ، إنّ هدفه الوحيد من قبول الخلافة هو دفع الظلم ، وقمع الظالمين ، والنظر في شؤون المظلومين والفقراء والضعفاء والجياع ، وإحقاق الحقوق المشروعة للناس ، ويلوح من مضامين هذه الخطبة أنّه خطبها في أيّام خلافته بعد الأحداث التي جرت في عصر من سبقوه من الخلفاء الثلاثة :

أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمّصَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَإِنّهُ لَيَعْلَمُ أَنّ مَحَلّي مِنْهَا مَحَلّ القُطْبِ مِنَ الرّحَى ؛ يَنْحَدِرُ عَنّي السّيْلُ وَلَا يَرْقَى إِلَيّ الطّيْرُ . فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً ، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً ، وَطَفِقْتُ أَرْتَأِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذّاءَ أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طِخْيَةٍ عَمْيَاءَ يَهْرَمُ فِيهَا الكَبِيرُ ،

وَيَشِيبُ فِيْهَا الصّغِيرُ ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتّى يَلْقَى رَبّهُ ؛ فَرَأَيْتُ أَنّ الصّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى ؛ فَصَبَرْتُ وَفِي العَيْنِ قَذَىً وَفِي الحَلْقِ شَجَىً . أَرَى تُرَاثِي نَهْبَاً . حَتّى مَضَى الأَوّلُ لِسَبِيْلِهِ ، فَأَدْلَى بِهَا إِلَى ابْنِ الخطّابِ بَعْدَهُ (ثُمّ تَمَثّلَ بِقَوْلِ الأَعْشَى) :

شَتّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا

وَيَوْمُ حَيّانَ أَخِي جَابِرِ

فَيَا عَجَبَاً بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ــ لَشَدّ مَا تَشَطّرَا ضَرْعَيْهَا ــ فَصَيّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ كُلَامُهَا ، وَيَخْشُنُ مَسّهَا ، وَيَكْثُرُ العِثَارُ فِيهَا وَالاعْتِذَارُ مِنْهَا ، فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ الصّعْبَةِ إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحّمَ فَمُنِيَ النّاسُ لَعَمْرُ اللهِ بِخَبْطٍ وَشِمَاسٍ وَتَلَوّنٍ وَاعْتِرَاضٍ .

فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ المُدّةِ وَشِدّةُ المِحْنَةِ حَتّى إِذَا مَضَى لِسَبِيْلِهِ ، جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ وَزَعَمَ أَنّي أَحَدُهُمْ . فَيَا لَلّهِ وَلِلشّورَى ! مَتَى اعْتَرَضَ الرّيْبُ فِيّ مَعَ الأَوّلِ مِنْهُمْ حَتّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النّظَائِرِ ، لَكِنّي أَسْفَفْتُ إِذَا أَسَفُّوا وَطِرْتُ إِذَا طَارُوا .

فَصَغَى رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ ، وَمَالَ الآخَرُ لِصِهْرِهِ ، مَعَ هَنٍ وَهَنٍ . إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ القَوْمِ نَافِجَاً حَضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ ؛ وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضِمُونَ مَالَ اللهِ خَضْمَةَ الإِبِلِ نِبْتَةَ الرّبِيعِ . إِلَى أَنْ انْتَكَثَ فَتْلُهُ ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ ، وَكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ فَمَا رَاعَنِي إِلّا وَالنّاسُ كَعُرْفِ الضّبْعِ إِلَيّ ، يَنْثَالُونَ عَلَيّ مِنْ كُلّ جَانِبٍ ، حَتّى لَقَدْ وُطِئَ الحَسَنَانِ ، وَشُقّ عِطْفَايَ ، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الغَنَمِ . فَلَمّا نَهَضْتُ بِالأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ وَمَرَقَتْ أُخْرَى وَقَسَطَ آخَرُونَ ؛ كَأَنّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا كَلَامَ اللهِ حَيْثُ يَقُولُ :

تِلْكَ الدّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّا فِى الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَقِبَةُ لِلْمُتّقِينَ . (٧٣)

بَلَى وَاللهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعُوهَا وَلَكِنّهُمْ حَلِيَتْ الدّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا . أَمَا وَالّذِي فَلَقَ الحَبّةَ وَبَرَأَ النّسْمَةَ لَوْلَا حُضُورُ الحَاضِرِ ، وَقِيَامُ الحُجّةِ بِوُجُودِ النّاصِرِ ، وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَى العُلَمَاءِ أَنْ لَا يُقَارّوا عَلَى كِظّةِ ظَالِمٍ وَلَا سَغَبِ مَظْلُومٍ لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا ، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوّلِهَا ، وَلَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدُ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ !

(قَالُوا) وَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ السّوَادِ عِنْدَ بُلُوغِهِ إِلَى هَذَا المَوْضِعِ مِنْ خُطْبَتِهِ فَنَاوَلَهُ كِتَابَاً فَأَقْبَلَ يَنْظُرُ فِيهِ .

قَالَ ابْنُ عَبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ لَوِ اطّرَدْتَ خُطْبَتَكَ مِنْ حَيْثُ أَفْضَيْتَ ! فَقَالَ : هَيْهَاتَ يَا بْنَ عَبّاسٍ ! تِلْكَ شِقْشِقَةٌ هَدَرَتْ ثُمّ قَرّتْ !

قَالَ ابْنُ عَبّاسٍ : فَوَ اللهِ مَا أَسِفْتُ عَلَى كَلَامٍ قَطّ كَأَسَفِي عَلَى هَذَا الكَلَامِ أَنْ لَا يَكُونَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السّلَامُ بَلَغَ مِنْهُ حَيْثُ أَرَادَ . (٧٤)

إنّ من الإشكالات التي أُثيرت حول خلافة أمير المؤمنين عليه السلام هو أنّها مدعاة لاجتماع النبوّة والخلافة في بيت واحد . فلهذا لا يتسنّى ــ بزعمهم ــ لرسول الله وأمير المؤمنين عليهما الصلاة والسلام وهما من بيت واحد أن يجمعا بين النبوّة والخلافة . ولمّا كانت نبوّة النبيّ ثابتة ، فليس لعليّ بن أبي طالب أن يتسلّم مقاليد الخلافة .

يقول ابن أبي الحديد : «وتعلّلت طائفة أُخرى منهم بكراهيّة الجمع بين النبوّة والخلافة في بيت واحد يجفخون على الناس» . (٧٥)

ونحن قمنا بالتنقيب في كتب التأريخ والحديث فوجدنا أنّ جذور هذا الرأي نابتة في كلام أبي بكر وعمر . فهما أوّل من نطق بهذه الأُحدوثة . بينما هما أنفسهما احتجّا على الحباب بن المنذر في السقيفة بقربهما من رسول الله بعد أن تكلّم الحباب في فضل الأنصار وشرفهم وأولويّتهم ، ومع ذلك قالا : لا يعقل أن تكون النبوّة والخلافة في بيتين ؛ فحيثما كانت النبوّة ، كانت الخلافة . وخطب الحباب بن المنذر في السقيفة فتحدّث عن أولويّة الأنصار وأفضليّتهم بحضور بعض المهاجرين وأبي بكر ، وأبي عبيدة الجرّاح ، ومعاذ بن جبل ، وجميع الأنصار ، ومنهم سعد بن عبادة رئيس الأوس ، وبشير بن سعد رئيس الخزرج . وقال في آخر كلامه : فَأَنْتُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ نَصِيباً فِي هَذَا الأَمْرِ ، وَإنْ أَبَى القَوْمُ فَمِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْهُمْ أَمِيرٌ .

فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ : هَيْهَاتَ لَا يَجْتَمِعُ سَيْفَانِ فِي غِمْدٍ وَاحِدٍ ، وَإنَّهُ وَاللَهِ لَا يَرْضَى العَرَبُ أَنْ نُؤَمِّرَكُمُ وَنَبِيُّهَا مِنْ غَيْرِكُمْ ؛ وَلَكِنَّ العَرَبَ لَا يَنْبَغِي أَنْ تُوَلِّيَ هَذَا الأَمْرَ إلَّا مَنْ كَانَتِ النُّبُوَّةُ فِيهِمْ وَأُولُوا الأَمْرِ مِنْهُمْ .

لَنَا بِذَلِكَ عَلَى مَنْ خَالَفَنَا مِنَ العَرَبِ الحُجَّةُ الظَّاهِرَةُ وَالسُّلْطَانُ المُبِينُ . مَنْ يُنَازِعُنَا سُلْطَانَ مُحَمَّدٍ وَمِيرَاثَهُ ــ وَنَحْنُ أَوْلِيَاؤُهُ وَعَشِيرَتُهُ ــ إلَّا مُدْلٍ بِبَاطِلٍ ، أَوْ مُتَجَانِفٍ لإثْمٍ ، أَوْ مُتَوَرِّطٍ فِي هَلَكَةٍ ! (٧٦)

استدلّ عمر بهذا النحو على مرأى ومسمع من أبي بكر ، وعلى هذا النهج لفت نظر الأنصار إلى بيعة قريش التي ينتسب إليها هو وأبو بكر معتبراً نفسه ورفيقه من أقرباء النبيّ وعشيرته . بينما نجد أنّ عمر وأبا بكر أنفسهما عندما يتواجهان مع أمير المؤمنين عليه السلام ويقول لهما : لقد خنتما ، واستدللتما بالشجرة ، وأضعتما الثمرة ، ودعوتما الناس إلى البيعة بالمكر والخديعة محتجّين بأنّكما شجرة رسول الله ، ونحن ثمرة هذه الشجرة ، ونحن أهل بيت رسول الله الذين أنزل الله فينا آية التطهير ، ونزل علينا القرآن ، يجيبان قائلين : لا تجتمع النبوّة والخلافة في مكان واحد ، والعرب تكره اجتماعهما في بيت واحد .

ويضع أبو بكر أيضاً حديثاً في هذا المجال ينسبه إلى النبيّ ، ويُشهد عليه عمر وأعوانه : أبا عبيدة ، وسالماً مولى أبي حذيفة ، ومعاذاً . أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ

اللَهِ ، وَأُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَكْذِبُونَ عَلَى رَسُولِ اللَهِ مُتَعَمِّداً ؛ وَقَدْ قَالَ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : مَنْ كَذَبَ عَلَيّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوّءْ مَقْعَدُهُ مِنَ النّارِ . (٧٧)

ويذكر السيّد هاشم البحرانيّ نقلاً عن كتاب «سليم بن قيس الهلاليّ» الذي يعتبر من الكتب المشهورة والموثّقة ، ومن المصادر التأريخيّة التي ينقل عنها الكبار والموثّقون من أصحاب السير ، يذكر في حديث كثير التفاصيل قصّة أخذ أمير المؤمنين عليه السلام إلى أبي بكر في المسجد لبيعته ومحاججة الإمام ضدّه ، ويقول : وكان عليّ عليه السلام مشغولاً في الكلام فقال : يا معاشر المسلمين والمهاجرين والأنصار ! أنشدكم الله : أسمعتم رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول يوم غدير خمّ كذا وكذا ؟! وفي غزوة تبوك كذا وكذا ؟!

فلم يدع [عليّ عليه السلام] شيئاً قاله رسول الله صلّى الله عليه وآله علانية للعامّة إلّا ذكّرهم إيّاها . قالوا : اللهمّ نعم . فلمّا أن تخوّف أبو بكر أن تنصره الناس وأن يمنعوه منه ، بادرهم فقال له :

كلّما قلتَ حقّ قد سمعناه بآذاننا وعرفناه ووعته قلوبنا ؛ ولكن سمعت رسول الله يقول بعد هذا :

إنّا أَهْلُ بَيْتٍ اصْطَفَانَا اللَهُ تَعَالَى وَاخْتَارَ لَنَا الآخِرَةَ عَلَى الدّنْيَا ؛ فَإنّ اللَهَ لَمْ يَكُنْ لِيَجْمَعَ لَنَا أَهْلَ البَيْتِ النّبُوّةَ وَالخِلَافَةَ .

فقال [أمير المؤمنين] عليّ عليه السلام [لأبي بكر] : هل أحد من أصحاب رسول الله شهد هذه معك ؟! فقال عمر : صدق خليفة رسول الله ؛ قد سمعته منه . وقال أبو عبيدة ، وسالم مولى أبي حذيفة ، ومعاذ بن جبل : قد سمعنا ذلك من رسول الله ، فقال : لهم عليّ : لقد وفيتم بصحيفتكم التي تعاهدتم عليها في الكعبة : إن مات محمّد أو قتل لتزوون هذا الأمر عنّا أهل البيت . (٧٨)

ولا يمكن أن نجد راوياً لهذه الأحاديث الموضوعة التي يختلقونها ويرجعون إليها عندما يدانون غير أبي بكر الذي غصب فدكاً من السيّدة فاطمة الزهراء سلام الله عليها واختلق هذا الحديث القائل : نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لَا نُوَرّثُ دِرْهَمَاً وَلَا دِيْنَاراً ؛ مَا تَرَكْنَاهُ فَهُوَ صَدَقَةٌ .

والحديث المفترى : أَصْحَابِي كَالنّجُومِ بِأَيّهِمُ اقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ ، الذي يكذّب مضمونه سَنَدَهُ ونسبته إلى رسول الله .

ومن المصاديق الواضحة لذلك ، هذا الحديث الموضوع القائل بعدم اجتماع النبوّة والخلافة في بيت واحد ، إذ اختلقوه ونسبوه إلى رسول الله على خلاف كتاب الله والأحاديث المتواترة والإجماع وحكم العقل .

يقول الطبريّ في سيرة عمر ضمن نقل وقائع السنة الثالثة والعشرين من الهجرة : (في سفر عمر إلى الشام ، واصطحابه كبار الصحابة وبينهم عبد الله بن عبّاس . علماً أنّ أمير المؤمنين عليه السلام استنكف عن الذهاب معه وردّ دعوته) عن رجل من ولد طلحة : عن ابن عبّاس ، قال : خرجت مع عمر في بعض أسفاره ؛ فإنّا لنسير ليلة ، وقد دنوت منه ، إذ ضرب مقدّم رحله بسوطه ، وقال :

كَذَبْتُمْ وبَيْتِ اللّهِ يُقْتَلُ أَحْمَدُ
ولَمّا نُطَاعِنْ دُوْنَهُ وَنُنَاضِلُ
وَنُسْلِمُهُ حَتّى نُصَرّعَ حَوْلَهُ
وَنَذْهَلَ عَنْ أَبْنَائنَا وَالحَلَائِلُ

(هذان البيتان لأبي طالب عليه السلام الوالد الماجد للإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام خاطب بهما كفّار قريش الذين كانوا ينوون قتل النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فأنشدهما لرسول الله صلّى الله عليه وآله) .

ثمّ قال أَسْتَغْفِرُ اللّهَ ؛ ثمّ سار فلم يتكلّم قليلاً ، ثمّ قال :

وَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا
أَبَرّ وَأَوْفَى ذِمّةً مِنْ مُحَمّدِ
وَأَكْسَى لِبُرْدِ الخَالِ (٧٩) قَبْلَ ابْتِذَالِهِ
وَأَعْطَى لِرَأْسِ السّابِقِ المُتَجَرّدِ

ثمّ قال : أَسْتَغْفِرُ اللّهَ ، يا بن عبّاس ! ما منع عليّاً من الخروج معنا ؟ قلت : لا أدري . قال : يا بن عبّاس ! أبوك عمّ رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ، وأنت ابن عمّه ، فما منع قومكم منكم ؟! قلتُ : لا أدري . قال : لكنّي أدري ؛ يكرهون ولايتكم لهم . قلتُ : لِمَ ، ونحن لهم كالخير ؟ قال : اللّهُمّ غفْرَاً ، يُكْرَهُونَ أَنْ تَجْتَمِعَ فِيكُمُ النّبُوّةُ وَالخِلَافَةُ فَيَكُونَ بَجَحَاً بَجَحَاً . (٨٠)

لعلّكم تقولون : إنّ أبا بكر فعل ذلك ، لا والله ولكن أبا بكر أتى أحزم ما حضره . ولو جعلها بكم ما نفعكم مع قربكم ، أنشدني لشاعر الشعراء زهير قوله :

إِذَا ابْتَدَرَتْ قَيْسُ بْنُ عَيْلَانَ غَايَةً
مِنَ المَجْدِ مَنْ يَسْبِقْ إِلَيْهَا يُسَوّدُ

[يقول ابن عبّاس] : فأنشدته [هذه القصيدة] ، وطلع الفجر . فقال : اقرأ سورة الواقعة ؛ فقرأتها ، ثمّ نزل فصلّى ، وقرأ بالواقعة . (٨١)

وروى الطبريّ أيضاً عن عكرمة ، عن ابن عبّاس قال : بينما عمر بن الخطّاب وبعض أصحابه يتذاكرون الشعر ، قال بعضهم : فلان أشعر ؛ وقال بعضهم : بل فلان أشعر ؛ قال : فأقبلت . فقال عمر : قد جاءكم أعلم الناس بها .

فقال عمر : مَن شاعر الشعراء يا بن عبّاس ؟ قال : فقلتُ : زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلْمَى فقال عمر : هلمّ من شعره ما نستدلّ به على ما ذكرت ! فقلتُ : امتدح قوماً من بني عبد الله بن غطفان ، فقال :

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ
قَوْمٌ بِأَوَّلِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا
قَوْمٌ أَبُوهُمْ سَنَانٌ حِينَ تَنْسُبُهُمْ
طَابُوا وَطَابَ مِنَ الأَوْلَادِ مَا وَلَدُوا
إِنْسٌ إِذَا أَمِنُوا جِنّ إِذَا فَزَعُوا
مُرَزّؤونَ بَهَالِيلٌ إِذَا حَشَدُوا
مُحَسّدُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نِعَمٍ
لَا يَنْزِعُ اللَهُ مِنْهُمْ مَا لَهُ حُسِدُوا

ولمّا سمع عمر هذه الأبيات ، قال : أحسن ؛ وما أعلم أحداً أولى بهذا الشعر من هذا الحيّ من بني هاشم ، لفضل رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم وقرابتهم منه .

[يقول ابن عبّاس] : فقلتُ : وفّقت يا أمير المؤمنين ، ولم تزل موفّقاً ! فقال [عمر] : يا بن عبّاس ! أتدري ما منع قومكم منهم بعد محمّد ؟! فكرهت أن أُجيبه ؛ فلهذا قلتُ : إن لم أكن أدري ، فأمير المؤمنين يدريني !

فَقَالَ عُمَرُ : كَرِهُوا أَنْ تَجْمَعُوا لَكُمُ النّبُوّةَ وَالخِلَافَةَ فَتَبَجّحُوا عَلَى قَوْمِكُمْ بَجَحَاً بَجَحَاً ؛ فَاخْتَارَتْ قُرَيْشٌ لِأَنْفُسِهَا ؛ فَأَصَابَتْ وَوُفّقَتْ .

[قال ابن عبّاس] : فقلتُ : يا أمير المؤمنين ! إن تأذن لي في الكلام ، وتُمِط عنّي الغضب ، تكلّمتُ . فقال عمر : تكلّم يا بن عبّاس ! فقلتُ : أمّا قولك يا أمير المؤمنين : اختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفّقت : فلو أنّ قريشاً اختارت لأنفسها حيث اختار الله عزّ وجلّ لها ، لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محمود . وأمّا قولك : إنّ قريشاً كرهت أن تكون لنا النبوّة والخلافة ، فإنّ الله عزّ وجلّ وصف قوماً بالكراهيّة ، فقال : ذَلِكَ بِأَنَهُمْ كَرِهُوا مَآ أَنزلَ اللَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ . (٨٢)

فقال عمر : هيهات ! والله يا بن عبّاس قد كانت تبلغني عنك أشياء كنت أكره أن أفرّك (٨٣) عنها ، فتزيل منزلتك منّي ! فقلتُ : وما هي يا أمير المؤمنين ؟! فإن كانت حقّاً ، فما ينبغي أن تزيل منزلتي منك ! وإن كانت باطلاً ، فمثلي أماط الباطل عن نفسه .

فقال عمر : بلغني أنّك تقول : إنّما صرفوها عنّا حسداً وظلماً ! فقلتُ : أمّا قولك يا أمير المؤمنين : ظلماً ، فقد تبيّن للجاهل والحليم ! وأمّا قولك : حسداً ، فإنّ إبليس حسد آدم ؛ فنحن ولده المحسودون !

فقال عمر : هيهات ، أبت والله قلوبكم يا بني هاشم إلّا حسداً ما يحول ، وضغناً وغشّاً ما يزول ! فقلتُ : مهلاً يا أمير المؤمنين ! لا تصف قلوب قوم أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً بالحسد والغشّ ! فإنّ قلب رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم من قلوب بني هاشم !

فقال عمر : إليك عنّي يا بن عبّاس ! فقلتُ : أفعل . فلمّا ذهبت لأقوم ، استحيا منّي ، فقال : يا بن عبّاس ، مكانك ! فو الله إنّي لراعٍ لحقّك ، محبّ لما سرّك !

فقلتُ : يا أمير المؤمنين إنّ لي عليك حقّاً وعلى كلّ مسلم ! فمن حفظه فحظّه أصاب ، ومن أضاعه فحظّه أخطأ . ثمّ قام عمر فمضى . (٨٤)

والشاهد الآخر على ما نقول كلام ابن عبد ربّه القرطبيّ الأندلسيّ المتوفّى سنة ٣٢٨ ه ، قال فيه :

وَقَالَ ابْنُ عَبّاسٍ : مَاشَيْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطّابِ يَوْمَاً فَقَالَ لِي : يَا بْنَ عَبّاسٍ ! مَا يَمْنَعُ قَوْمَكُمْ مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ أَهْلُ البَيْتِ خَاصّةً ؟ قُلْتُ : لَا أَدْرِي ! قَالَ : لَكِنّنِي أَدْرِي ؛ إنّكُمْ فَضَلْتُمُوهُمْ بِالنّبُوّةِ ؛ فَقَالُوا إنْ فَضَلُوا بِالخِلَافَةِ مَعَ النّبُوّةِ لَمْ يُبْقُوا لَنَا شَيْئَاً ؛ وَإنّ أَفْضَلَ النّصِيبَيْنِ بِأَيْدِيكُمْ ، بَلْ مَا أَخَالُهَا إلّا مُجْتَمِعَةً لَكُمْ وَإنْ نَزَلَتْ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ قُرَيْشٍ . (٨٥)

وقال ابن خلدون عند بحثه في بداية دولة الشيعة : وفيما نقله أهل الآثار أنّ عمر قال يوماً لابن عبّاس : إنّ قومكم ــ يعني قريشاً ــ ما أرادوا أن يجمعوا لكم ــ يعني بني هاشم ــ بين النبوّة والخلافة فتحموا عليهم ! وأنّ ابن عبّاس نكر ذلك وطلب من عمر إذنه في الكلام ، فتكلّم بما غضب له . وظهر من محاورتهما أنّهم كانوا يعلمون أنّ في نفوس أهل البيت شيئاً من أمر الخلافة والعدول عنهم بها . (٨٦)

وقال جرجي زيدان : والظاهر من أقوال عمر وغيره في مواقف مختلفة أنّهم رأوا بني هاشم قد اعتزّوا بالنبوّة لأنّ النبيّ منهم ، فلم يستحسنوا أن يضيفوا إليها الخلافة . (٨٧)

فهذه مستمسكات حول عدم الجمع بين النبوّة والخلافة في بني هاشم نقلناها عن لسان عمر وأبي بكر . وممّا نقلناه في هذا الكتاب حتّى الآن من كلامهم فإنّ فساده واضح جدّاً ، ونحن في غنى عن ردّه مستقلّاً ، بيد أنّا نتمسّك بالأدلّة الأربعة : الكتاب ، والسنّة ، والعقل ، والإجماع ، من وحي أن يكون جوابه واضحاً بعينه .

أمّا الكَتَابُ : فقد رأينا أخيراً أنّ بريدة الأسلميّ كان في الشام عندما غصب أبو بكر الخلافة . ولمّا رجع إلى المدينة ، ورأى أبا بكر على رأس الأُمور ، اعترض وقال له : ألم تكن قد سلّمت على عليّ بن أبي طالب بوصفه أمير المؤمنين بأمر النبيّ ؟ ... ولمّا قيل له : لا تجتمع النبوّة والخلافة في بيت واحد ، قرأ هذه الآية في المسجد :

أَمْ يَحْسُدُونَ النّاس عَلَى مَآ ءَاتَهُمُ اللَهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَ هِيمَ الْكِتَبَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَهُم مّلْكًا عَظِيمًا . (٨٨)

يلاحظ في هذه الآية بوضوح أنّ الله أتى إبراهيم الكتاب والحكمة ، وهما يمثّلان النبوّة ، وكذلك آتاهم الملك العظيم الذي يمثّل الخلافة والحكومة .

وَأَمّا السّنّةُ : فقد روى أبو نعيم الإصفهانيّ بسنده عن حذيفة اليمانيّ أنّه قال : قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَهِ أَلَا تَسْتَخْلِفُ عَلِيّاً ؟ قَالَ : إنْ تُوَلّوا عَلِيّاً تَجِدُوهُ هَادِيَاً مَهْدِيّاً يَسْلُكُ بِكُمُ الطّرِيقَ المُسْتَقِيمَ . (٨٩)

وكذلك روى أبو نعيم بسند آخر عن حذيفة أنّه قال : قَالَ رَسُولُ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ : إنْ تَسْتَخْلِفُوا عَلِيّاً ــ وَمَا أَرَاكُمْ فَاعِلِينَ ــ تَجِدُوهُ هَادِيَاً مَهْدِيّاً يَحْمِلُكُمْ عَلَى المَحَجّةِ البَيْضَاءِ . (٩٠)

وجاء في الصحيحين («صحيح البخاريّ» و «صحيح مسلم») عن ابن عبّاس ، قال : لَمّا احْتَضَرَ رَسُولُ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ وَفِي البَيْتِ رِجَالٌ ، مِنْهُمْ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ ؛ قَالَ النّبِيّ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ : هَلُمّ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابَاً لَا تَضِلّونَ بَعْدَهُ . فَقَالَ عُمَرُ : إنّ رَسُولَ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ الوَجَعُ ؛ وَعِنْدَكُمُ القُرْآنُ ، حَسْبُنَا كِتَابُ اللَهِ !

فَاخْتَلَفَ القَوْمُ وَاخْتَصَمُوا ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : قَرّبُوا إلَيْهِ يَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابَاً لَنْ تَضِلّوا بَعْدَهُ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : القَوْلُ مَا قَالَهُ عُمَرُ .

فَلَمّا أَكْثَرُوا اللّغْوَ وَالاخْتِلَافَ عِنْدَهُ عَلَيْهِ السّلَامُ قَالَ لَهُمْ : قُومُوا ، فَقَامُوا . فَكَانَ ابْنُ عَبّاسٍ يَقُولُ : إنّ الرّزِيّةَ كُلّ الرّزِيّةِ مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَبَيْنَ أَنْ يَكْتُبَ لَكُمْ ذَلِكَ الكِتَابَ . (٩١)

وجاء في بعض الروايات أنّ عمر قال : لَا تَأْتُوهُ بِشَيءٍ أو إنّ الرّجُلَ لَيَهْجُرُ ! (٩٢)

وفي رواية عن ابن عبّاس جاء فيها : فَقَالَ بَعْضُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ : إنّ نَبِيّ اللَهِ لَيَهْجُرُ . (٩٣)

ونحن نريد أن نثبت هنا أنّ طلب الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله الكتف والدواة في ساعة الاحتضار هو من أجل أن يكتب ويختم للمسلمين عهداً بخلافة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام لا غير ، لأنّه مضافاً إلى النصوص الثابتة ، مثل : آية الولاية ، وحديث الغدير ، وحديث الثقلين ، وحديث الحقّ ، وحديث المنزلة ، وحديث السفينة ، وحديث دعوة العشيرة الأقربين ، وكثير من الأحاديث الأُخرى التي بيّنت إمامة الإمام وخلافته على نحو اليقين ، فإنّ تلوّث الجوّ في المدينة نتيجة لوجود معارضي الولاية فيها كعمر ، وأبي بكر ، وأبي عبيدة الجرّاح ، والمغيرة بن شعبة وأمثالهم ، ممّا دعا إلى الترغيب في تجهيز جيش أُسامة ، وجعل هؤلاء المذكورين في الجيش ليخلو الجوّ في المدينة منهم لأمير المؤمنين عند موت النبيّ ، وبسبب ما كان يستشرفه نور النبوّة وعلمها بالأضغان والأحقاد التي كانت تعتمل في صدور البعض ، وأرهقت أمير المؤمنين عليه السلام وأضنته ؛ وكذلك بسبب الأخبار التي كانت تتسرّب من بيت النبيّ

إلى الخارج بواسطة حفصة وعائشة وحزبهما ، ممّا أدّى إلى إباحة أسرار البيت النبويّ ، وكانت قضيّة الولاية من أهمّ تلك الأسرار ، إذ كان النبيّ يعلم بعزم المعارضين على المواجهة بكلّ قواهم ، وكان النبيّ يريد أن يضبط الأُمور ويركّز الموضوع أكثر ويرفع الحواجز والعقبات ، ولكن وبسبب إفشاء هذه الأسرار ، حالوا دون تحرّك جيش أُسامة ، وكانوا يؤجّلون كلّ يوم بمعاذير واهية ، وتخلّف عمر وأبو بكر عن الجيش . ولمّا آخذهما النبيّ على ذلك ، جاءا بأعذار تافهة .

فمن وحي هذه الأعراض كلّها ، طلب النبيّ الأكرم في اللحظات الأخيرة من حياته الشريفة دواة وورقة بحضور جمع من الصحابة ليكتب لهم شيئاً إذا رعوه حقّ رعايته ، فلن يضلّوا بعده أبداً . فقال عمر : غلبه الوجع ، وإنّه ليهجر ، وحسبنا كتاب الله . ولمّا علا الضجيج واللغط ، وارتفعت الأصوات في ذلك المجلس ، قال صلّى الله عليه وآله : قوموا ، لا ينبغي عند نبيّ نزاع . (٩٤)

وبالنظر إلى الموضوعات المتقدّمة ، والالتفات إلى أنّ الذين حالوا بين الرسول الأعظم وبين طلبه المتمثّل بعزمه على كتابة شيء يشهده الجميع ولن يضلّوا بعده ، هم الذين أصابوا حظّاً من الحكومة في غد ذلك اليوم ، بخاصّة وأنّهم اختاروا خليفتهم من غير أن يُطلِعوا أمير المؤمنين وأصحابه وخاصّته وأقاربه من بني هاشم على ذلك ، فهل يرتاب أحد في أنّ قصد النبيّ الأكرم من الكتابة كان شيئاً آخر غير خلافة أمير المؤمنين ؟

وما هو القصد من قولهم : الرجل يهجر ، وقولهم : غلبه الوجع ؟ أليس قصدهم من ذلك إثارة الجلبة والضجيج ، وصرف النبيّ عن عزمه ؟ وهل يتصوّر أحد أنّهم أرادوا المعنى الحقيقيّ للهجر الناتج عن غلبة الوجع ؟

ذلك أنّه أوّلاً : مضافاً إلى أنّ التأريخ لم ينقل أنّ أحداً سمع من النبيّ الأكرم كلاماً اعتباطيّاً عابثاً طيلة فترة النبوّة وقبلها ، فإنّ أيّ مسلم لا يستطيع ــ في ضوء الموازين الدينيّة ــ أن ينسب إلى النبيّ الأعظم الذي ضمن الله تعالى في القرآن الكريم عصمته وحفظه ، هجراً وعبثاً .

وثانياً : لو كان القصد من هذا الكلام معناه الحقيقيّ والجادّ ، فلا معنى لقول عمر : حَسْبُنَا كِتَابُ اللَهِ ؛ عِنْدَنَا كِتَابُ اللَهِ . وينبغي الاستدلال على هجر النبيّ بسبب الوجع ، لا أنّ وجود القرآن الكريم يغني عن كلام النبيّ .

وثالثاً : أنّ كتاب الله هو الذي فرض طاعة النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله على المسلمين ، واعتبر كلامه كلام الله ، وصرّح بعد خِيَرَة الناس حيال حكم الله ورسوله . فحجّيّة كتاب الله نفسها هي حجّيّة كلام رسول الله . ولا مجال لاحتمال الهجر فيه ، وأنّ

نسبة الهجر إلى رسول الله لا تستهدف شيئاً في قاموس ذلك الصحابيّ غير إثارة الضجيج والضوضاء .

ورابعاً : لقد حدث مثل هذا الأمر في المرض الذي مات فيه الخليفة الأوّل أبو بكر ، وأوصى بخلافة عمر . وكان عثمان حاضراً عند أبي بكر ، وكلّف من قبلة بكتابة الوصيّة . وكان قد أُغمي على أبي بكر أثناء الكتابة ، ثمّ استفاق ؛ ومع ذلك فلم ينسب الخليفة الثاني إليه الهجر الذي نسبه إلى رسول الله ، بل اعتبر وصيّته نافذة ، إذ جلس على كرسي الخلافة بعد موت أبي بكر ، وتسلّم زمام الأُمور . فيستبين ــ إذَن ــ أنّ ذلك الهجر المزعوم لم يكن هجراً جدّيّاً يحول دون الإقرار والاعتراف والوصيّة ، بل هو الهجر الذي تقوّله أصحابه لإثارة التشويش والاضطراب في مجلس الرسول الأعظم ، وبالتالي عزوف الرسول القائد صلّى الله عليه وآله عن الكتاب .

ونقرأ في حديث ابن عبّاس مع عمر الذي يدور حول الخلافة أنّ عمر قال بصراحة : إنّ قومكم (قريشاً) كرهوا أن تكون لكم الخلافة ، فأقصوا عليّاً عنها .

ونقل ابن أبي الحديد وقائع هذا الحوار ، وذكر أنّ عمر قال لابن عبّاس : يَا بْنَ عَبّاسٍ ! إنّ أوّلَ مَنْ رَيّثَكُمْ عَنْ هَذَا الأَمْرِ أَبُو بَكْرٍ ! إنّ قَوْمَكُمْ كَرِهُوا أَنْ يَجْمَعُوا لَكُمُ الخِلَافَةَ وَالنّبُوّةَ . (٩٥)

وروى ابن أبي الحديد أيضاً بسنده عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال : مَرّ عُمَرُ بِعَلِيّ وَعِنْدَهُ ابْنُ عَبّاسٍ بِفِنَاءِ دَارِهِ ، فَسَلّمَ ، فَسَأَلَاهُ : أَيْنَ تُرِيدُ ؟ فَقَالَ : بِيَنْبُعٍ ، (٩٦) قَالَ عَلِيّ : أَفَلَا نَصِلُ جَنَاحَكَ وَنَقُومُ مَعَكَ ؟! فَقَالَ : بَلَى ! فَقَالَ لِابْنِ عَبّاسٍ : قُمْ مَعَهُ . قَالَ : فَشَبّكَ أَصَابِعَهُ فِي أَصَابِعِي وَمَضَى ، حَتّى إذَا خَلّفْنَا البَقِيعَ ، قَالَ : يَا بْنَ عَبّاسٍ ، أَمَا وَاللَهِ أَنْ كَانَ صَاحِبُكَ هَذَا أَوْلَى النّاسِ بِالأَمْرِ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَهِ ، إلّا أنّا خِفْنَاهُ عَلَى اثْنَتَيْنِ .

قَالَ ابْنُ عَبّاسٍ : فَجَاءَ بِمَنْطِقٍ لَمْ أَجِدْ بُدّاً مَعَهُ مِنْ مَسْأَلَتِهِ عَنْهُ ، فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ! مَا هُمَا ؟! قَالَ : خَشِينَاهُ عَلَى حَدَاثَةِ سِنّهِ وَحُبّهِ بَنِي عَبْدِ المُطّلِبِ . (٩٧)

وبعد أن استبان أنّ عمر وأعوانه كانوا يقرّون بأنّ عليّ بن أبي طالب كان أولى وأحقّ بالخلافة ؛ ففي ضوء الموازين الدينيّة ، ينبغي الوقوف بوجه المتخلّف وإبعاده عن الساحة . وينبغي إرغامه على الحقّ ، لا أن يُترك الحقّ تطييباً لخاطره . ولو لم يكن أُولئك المنتخبون للخلافة هم أنفسهم من أقطاب المعارضة ضدّ عليّ بن أبي طالب ، لكان واجبهم الشرعيّ والعقليّ بعد وفاة الرسول الأعظم التشمير عن ساعد الجدّ والتأهّب عن الحقّ وإرجاعه إلى أهله ، والانضواء تحت راية عليّ عليه السلام طوعاً . فهذا هو الصراط السوي . لا أنّهم ، مضافاً إلى عدم إرجاعهم الحقّ إلى أهله ، يتواطؤون مع قريش ، ويتكتّلون ضدّ الإمام ، ويشغلون منصبه عنوة ، ويقسرونه على بيعة رجل لم يؤمنوا بكفاءته وكانت بيعته فلتة ، (٩٨) ويكسرون ضلع الزهراء إمضاءً لقريش وجذباً

لقلوبهم ، ويضرب قنفذ غلام أبي بكر عضدها بأمر عمر ضرباً ترك أثره كالدمّل حتّى وفاتها !

وأشخص أبو بكر عمر وخالد بن الوليد إلى دار الإمام لجلبه ، وأمرهما أن لو تعلّقت فاطمة بعليّ وحالت دون مجيئه ، فافصلوها عنه ؛ فلهذا فصلوا فاطمة بهذا الأُسلوب ، وأخذ عمر سيف عليّ ورماه ، وأوكل أمره إلى خالد بن الوليد ليقتاده إلى المسجد بمؤازرة أعوانه . وامتنع أمير المؤمنين من الذهاب إلى المسجد ؛ فدفعوه بقبضاتهم حتّى أوصلوه .(٩٩)

فهذه أحداث نقلتها لنا كتب التأريخ ، ويا ليتها كانت مثبّتة في تأريخ الشيعة وحدها حتّى يتسنّى إزالة وصمة العار من جبين جناتها إلى حدّ ما ، فتواريخ العامّة مشحونة بها ، وكلّ من نظر في «تاريخ الطبريّ» وابن الأثير ، و «الإمامة والسياسة» لابن قتيبة ، و «شرح النهج» لابن أبي الحديد ، وغيرها ، يجدها حافلة بهذه المصائب التي حلّت بالإسلام .

ولمّا كان واضحاً كالشمس في كبد النهار أنّ العامّة ألّفوا كلّ هذه الكتب وتمسّكوا بالآراء الفاسدة والأهواء الكاسدة في الأُصول والفروع ، حفظاً للحكومات الاستبداديّة التي انتهت بالحكومة الأمويّة والعبّاسيّة ، واستعبدت الناس وأخضعتهم لقبضتها الحديديّة ، وبسطت نفوذها الفرعونيّ بأعنف الأساليب السلطويّة طيلة ستّة قرون باسم الإسلام والقرآن وتحت غطاء الخلافة الإسلاميّة . واليوم حيث أُطيح بالحكومات الاستبداديّة القائمة على مثل تلك الدعامة الفرعونيّة التي أرساها الأوّلون ، فمن المناسب أن يغيّروا خطّهم بالرجوع إلى التأريخ الصحيح ، ولا يغالطوا أكثر من ذلك ، ويتركوا التعسّف في تبرير وتأويل الأحاديث الصحيحة التي زخرت بها كتبهم كحديث الثقلين ، والغدير ، والعشيرة ، والولاية ، والمنزلة ، وكثير من الأحاديث الأُخرى ، ويرفعوا الستار عن الحقائق ، ويجمعوا على عدم فصل سبيل الشريعة عن سبيل الولاية في ضوء القرآن الكريم والسنّة النبويّة ، ويختاروا المذهب الجعفريّ المقدّس .

وإنّي أُشهد الله أنّ نصيحتي هذه هي نصيحة الشفيق المخلص الذي سبر غور الكتب سنيناً من عمره ، وبحث ونقّب وحقّق ودقّق حتّى ظفر باللباب ، وها هو يسعى بإخلاص لتقديم ما ظفر به إلى الإخوة الأعزّاء من شباب العامّة الذين ليس لهم علم بهذه الأُمور ، حتّى يتألّق نور الحقيقة في قلوبهم بحول الله وقوّته ، وأن يتّبعوا مذهب أهل البيت ، ذلك المذهب الحنيف الحقّ والسبيل القويم للولاية العلويّة بمجرّد قراءة هذه السطور . وَفّقَهُمُ اللَهُ جَمِيعاً وَهَدَاهُمْ إلىَ صِرَاطِهِ المُسْتَقِيمِ وَمَنْهَجِهِ القَوِيمِ ، آمِينَ يا رَبّ العَالَمِينَ .

قال سيّدنا أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة الثانية من خطب «نهج البلاغة» : زَرَعُوا الفُجُورَ ، وَسَقَوْهُ الغُرُورَ ، وَحَصَدُوا الثّبُورَ . لَا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمّدٍ صلّى اللّهُ عَلَيهِ

وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ أَحَدٌ ، ولَا يُسَوّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نَعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَداً . هُمْ أَسَاسُ الدّينِ ، وَعِمَادُ اليَقِينِ ؛ إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الغَالِي ، وَبِهِمْ يُلْحَقُ التّالِي ، وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقّ الوِلَايَةِ ، وَفِيهِمُ الوَصِيّةُ وَالوِرَاثَةُ . الآنَ إِذْ رَجَعَ الحَقّ إِلَى أَهْلِهِ ، وَنُقِلَ إِلَى مُنْتَقَلِهِ . (١٠٠)

نرى في هذه الخطبة التي خطبها أمير المؤمنين عليه السلام في أوّل خلافته ، أنّه يؤكّد على أنّ أيّ فرد من أفراد الأُمّة المسلمة لا يمكن أن يوازَن بأهل البيت النبويّ الكريم . وبعد أن يسرد صفاتهم وآثارهم ، يركّز على أنّ الحقّ قد آبَ إلى أهله ، وعاد إلى نصابه .

ألم تصرّح هذه الفقرات بلزوم اجتماع النبوّة والخلافة في بيت بني هاشم ؟ ثمّ ألم تنصّ على فساد الأوضاع في عصر من سبقه من الحكّام ، وقد تحسّنت في عهده ووقرت على أساس صحيح ؟

أوَ لم يكن أمير المؤمنين عليه السلام جامعاً لبيت النبوّة والخلافة ؟

وقال عليه السلام في الخطبة السادسة من خطب «نهج البلاغة» : وَاللَهِ لَا أَكُونُ كَالضّبُعِ تَنَامُ عَلى طُولِ اللّدْمِ ، حَتّى يَصِلَ إِلَيْهَا طَالِبُهَا ، وَيَخْتِلُهَا رَاصِدُهَا ، وَلَكِنّي أَضْرِبُ بِالمُقْبِلِ إِلَى الحَقّ المُدْبِرَ عَنْهُ ، وَبِالسّامِعِ المُطِيعِ العَاصِيَ المُرِيبَ أَبَداً حَتّى يَأْتِيَ عَلَيّ يَوْمِي . فَوَ اللَهِ مَا زِلْتُ مَدْفُوعَاً عَنْ حَقّي مُسْتَأْثَراً عَلَيّ مُنْذُ قَبَضَ اللَهُ نَبِيّهُ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ حَتّى يَوْمِ النّاسَ هَذَا . (١٠١)

ينصّ الإمام صلوات الله عليه في هذه الخطبة على أنّ الخلافة كانت حقّه منذ وفاة الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله .

وقال رونالدسن في كتاب له نُقل إلى العربيّة : وَيَرْوِي أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ أَنّهُ بَعْدَ مَقْتَلِ عَلِيّ ، خَطَبَ الحَسَنُ بِالنّاسِ ، فَقَالَ : لَقَدْ قُبِضَ فِي هَذِهِ اللّيْلَةِ رَجُلٌ لَمْ يَسْبِقْهُ الأَوّلُونَ بِعَمَلٍ ، وَلَا يُدْرِكُهُ الآخِرُونَ بِعَمَلٍ ، وَقَدْ نَصَبَهُ رَسُولُ اللَهِ . (١٠٢)

ثمّ قال : وَقَدْ نَاقَشْنَا صِحّةَ هَذِهِ القَضِيّةِ آنِفَاً . بَيْدَ أنّ هذه المناقشة لا تضرّ بقصدنا المتمثّل بنقل رواية أحمد بن حنبل وكلام الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ، لأنّها تعكس رأيه الخاصّ ولا تمتّ بصلة إلى الرواية .

فهذا عدد من الأحاديث التي تدلّ على اجتماع النبوّة والخلافة في بيت بني هاشم . وكلّ من نظر في كتب التأريخ والحديث الموثوقة ، فسيجدها زاخرة بمسائل تعضد هذا الموضوع .

وأمّا العقل : أي حكم العقل ببطلان لزوم عدم الجمع بين النبوّة والخلافة في بيت واحد . فنقول : يحكم العقل بأنّ كلّ من يستطيع أن يدير شؤون الأُمّة أفضل من غيره ، وكان أخلص وأشجع وأكثر تحمّساً وإيثاراً ، وأعلم ، وأعرف بمبادئ الأحكام والشرائع والسنن والآداب ، وتوحيد ذات الحقّ المتعال ، وكان متحرّراً من هوى النفس ، وملتحقاً بكلّيّة

مقام الإطلاق والتجرّد ، وكان أعرف من غيره بعالم الأنوار ، هذا من جهة ، ومن جهة أُخرى ، كان أكثر بصيرة وخبرة بالمصالح الاجتماعيّة من غيره ، فهذا الشخص ينبغي أن يكون الأمير المطاع ورئيس الأُمّة وقائدها بلا ترديد ، وتجري شؤون الأُمّة بمشورة الكبار ، وأهل الحلّ والعقد ، ويُستهدَى عند اتّخاذ القرار برأيه الحصيف ، وذهنه الرائق ، وروحه النقيّة ، وعلمه العظيم ، ويُؤْثَر رأيه على آراء الآخرين ، ويُجْعَل مصدراً للأمر والنهي ، والسلم والحرب ، والسكون والحركة ، وغير هذه الأشياء . ولا فرق في هذا الحكم العقليّ أن يكون ذلك الشخص من بيت شعّ فيه نور النبوّة ، أم من غيره ، فالميزان هو الأعلم ، والأكثر معرفة ، والأشجع الأورع ، والأفقه ، والأكثر بصيرة بالأُمور ، والأحرص على شؤون الأُمّة والمحافظة عليها من صروف الدهر ، واقتيادها نحو الكمال المعنويّ والروحيّ ، وطيّ المعارج والمراقي الإنسانيّة ، ورعاية الشؤون الاجتماعيّة ، وجعل الناس يتمتّعون بالنعم الإلهيّة الموهوبة . وفي هذه الحالة لو توفّرت هذه كلّها في شخص عاش في بيت أشرق فيه نور النبوّة ، كأمير المؤمنين عليه أفضل صلوات المصلّين فإنّ العقل يقضي بلزوم إمارته وحكومته وخلافته ؛ أمّا إذا لم تتوفّر في شخص عاش في بيت النبوّة كابن نوح نبيّ الله على نبيّنا وآله وعليه صلوات الله فالعقل لا يقضي باتّباع من حاز تلك الشروط والكمالات .

وعندما نرى أنّ عليّ بن أبي طالب يُقصى من القيادة بسبب المناقب والفضائل التي كانت عنده ، لا المثالب والمساوئ التي يتنزّه عنها ، ويقول أقطاب المعارضة أيضاً إنّه أحقّ من غيره بالخلافة بعد رسول الله ، إلّا أنّ قريشاً كرهت اجتماع النبوّة والخلافة في بيت واحد ، وإنّ عليّاً كان معروفاً بحبّه بني عبد المطّلب ، أو إنّه كان حَدَثَاً ، فإنّ أُولئك المتقوّلين قد تصرّفوا خلاف حكم العقل ومصالح الأُمّة . ومع وجود الأعلم والأورع والأتقى والأشجع والأعرف بكتاب الله وسنّة نبيّه ، لكنّهم سلّموا زمام الأُمور إلى من هو دون عليّ باعتراف الصديق والعدوّ ، وبمراجعة التأريخ الصحيح .

ومن الواضح في هذه الحالة أنّ الأُمّة الإسلاميّة لم تواصل تصعيد مستواها ، بل انحدرت وهوت لأنّه «ما ولّت أُمّة أمرها رجلاً وفيهم من هو أعلم منه إلّا لم يزل أمرهم يذهب سَفالاً حتّى يرجعوا إلى ما تركوا» . (١٠٣) ونحن نلاحظ أنّ تقدّم الإسلام بعد النبيّ لم يلمس إلّا في أُمور ظاهريّة كفتح البلدان ؛ بينما لو فُوّضت شؤون الأُمّة إلى أمير المؤمنين عليه السلام لسارت الفتوحات بنحو أفضل ، وكانت قرينة بالمعنويّات والدعوة إلى الله ، مستضيئة بسيرة النبيّ الأكرم ، ولو تحقّق ذلك لما استبدلت السلطة بالخلافة ، ولاستمتع الناس بالإسلام الحقيقيّ حتّى يوم القيامة . بَيْدَ أنّه لمّا تغيّر مجرى الدعوة ، وانحرف مسير التبليغ ، ولم يذق الناس طعم الإسلام الحقيقيّ ومعنويّته ومساواته ومواساته وإيثاره وعدم تفريقه بين الأجناس والقبائل ، لذلك ظلّ الناس على سيرتهم

الأُولى من البهيميّة والشرك ، وتأخّر موكب الإسلام عن التطوّر والتوحيد والعدل ، وأُجّل ذلك إلى عصر الإمام المهديّ قائم آل محمّد الحجّة بن الحسن العسكريّ أرواحنا له الفداء وعجّل الله تعالى فرجه الشريف .

وما هم إلّا أتباع أهل البيت الشيعة الذين يتواجدون هذا اليوم في أنحاء العالم ، وعددهم ملحوظ بين المسلمين ، استطاعوا أن يقيموا حكومة مستقلّة ببركة دماء سيّد الشهداء عليه السلام وجهود صادق آل محمّد عليه السلام ، وسائر الأئمّة الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين ، إذ إنّ كلّ إمام ــ بدوره ــ يبذل قصارى جهوده في سبيل إيصال حقيقة الولاية ، وذلك بغية إحياء الأرواح وإبقاء مدرسة التشيّع منفتحة نابضة بالحياة ، فلهذا نلحظ منذ ذلك الزمان حتّى يومنا هذا أنّ عدد أتباع أهل البيت الشيعة في تصاعد وتزايد ، وعدد غيرهم من أتباع المذاهب الأُخرى في تنازل وتناقص ، وما هذا إلّا بسبب سريان الولاية في قلوب الناس ، وإدراك معناها الحقيقيّ على حسب الظروف ، وبالتناسب مع استعدادات الناس في كلّ زمان .

وكلّاً ، فإنّ نتيجة هذا البحث العقليّ هي أنّ كلام عمر الذي جاء في مواطن مختلفة ، واعترف هو بنفسه بصراحة إذ قال بأنّ سبب إقصاء أمير المؤمنين عليه السلام عن الخلافة هو كراهة اجتماع النبوّة والخلافة في بيت واحد هو كلام مبتذل ولا يرتكز على حجّة شرعيّة ، ولا يقوم على حكم عقليّ ، وإنّما هو كلام موضوع مختلق أملته الأهواء ، وغذّاه الهوَس . وهو مدان شرعاً وعقلاً .

وأمّا الإجماع : أي : اتّفاق الأُمّة الإسلاميّة برمّتها على بطلان قاعدة لزوم عدم الجمع بين النبوّة والخلافة في بيت واحد ، فهو من البديهيّات ؛ ذلك أنّنا لم نر في كتب السيرة والتأريخ منذ عصر صدر الإسلام إلى يومنا هذا أنّ أحداً قد أثار إشكالاً في هذه المسألة ، أعني : عدم التنافي والتضادّ بين النبوّة والخلافة ، فيبطل أحقّيّة أئمّة الدين وقادة المسلمين عليهم السلام بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله تعويلاً على التنافي بين هاتين المسألتين ، بل إنّنا نستطيع أن نثبت ــ عند قراءتنا تأريخ ما قبل الإسلام ــ أحقّيّة الأنبياء ورئاستهم الدنيويّة بالإجماع على عدم التنافي . وبعامّة ، يمكننا أن نقول كما قلنا في الموضوع الآنف (العقل) إنّ هذا الإجماع ثابت على أساس دليل العقل ، وإنّ الأنبياء الذين بعثوا لإرشاد الناس وهدايتهم كانت لهم زعامة الشؤون المادّيّة والخلافة الدنيويّة الإلهيّة ؛ وإلّا فلا أثر للنبوّة في تطوير الفرد أو المجتمع ما لم تكن لها ولاية وإمارة . ولقد أرسل الله أنبياءه ليقوم الناس بالقسط ، ويحافظوا على ميزان الحقوق البشريّة مقاماً على التقوى والعدل ؛ وهذا لا يعقل بغير إمارة ورئاسة . قال تعالى : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَـٰبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ

اللَهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنّ اللَهَ قَوِىّ عَزِيزٌ . (١٠٤) أي : هم أُولو قدرة ويعتمدون على أنفسهم .

نلاحظ هنا أنّ الله جعل من منافع الحديد صنع الأسلحة التي يقوى بها المؤمنون لينهضوا بها مع أنبيائهم في مواجهة المعارضين ، ومعاقبة المعتدين .

وهل يتيسّر للنبيّ أن يقاتل وهو لا حقّ له في التدخّل في الشؤون الدنيويّة ، والأمر والنهي في تنظيم المجتمع ؟!

وكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَهُ يُحِبّ الصّبِرِينَ . (١٠٥)

وقال تعالى : فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَ هِيمَ الْكِتَبَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَهُمْ مّلْكًا عَظِيمًا . (١٠٦)

وقال جلّ من قائل : فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَءَاتَهُ اللَهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلّمَهُ مِمّا يَشَآءُ . (١٠٧)

وقال جلّ شأنه : قَالَ رَبِ اغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لّا يَنبَغِى لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِى إِنّكَ أَنتَ الْوَهّابُ . (١٠٨)

نلاحظ في هذه الآيات أنّ الله جعل للأنبياء ولاية على الناس وفوّض إليهم أُمورهم . ونحن لا نريد أن نستدلّ بالآيات على هذا الرأي ، بل إنّ ما نريده هو أن نتّخذ من هذه الآيات دليلاً على الإجماع ، والتسليم بعدم تنافر هذين المنصبين في كلّ زمان بما فيه زمان الأنبياء .

ومحصّلة الكلام أنّه يتعذّر إرسال الرسل ودعوة المجتمع بلا ضمانة تتكفّل تطبيق الخلافة والرئاسة الإلهيّة ؛ وأنّ جميع الأنبياء المرسلين لإقرار النظام الاجتماعيّ والحؤول دون اعتداء المعتدين كانت لهم ولاية وخلافة .

وهل يتسنّى لأحد أن يتصوّر انفصال النبوّة عن الإمارة والحكومة في ضوء منطق الشريعة الإسلاميّة المقدّسة ؟ والدين الإسلاميّ هو الدين الجامع لكافّة الجهات والأبعاد ، وقوانينه وأحكامه كلّها تلبّي حاجات الإنسان جميعها ، الماديّة والروحيّة ، الدنيويّة والأُخرويّة ، الظاهريّة والباطنيّة ، مضافاً إلى أنّها منسجمة متوائمة لا تعارض ولا تناقض بينها ، بل هي في ذروة الانسجام والتلاءم . والدين يدعو إلى المحافظة على الدنيا ، وتعرض الدنيا نفسها بوصفها مقدّمة الوصل بالمعنى . والباطن يحفظ الظاهر . والظاهر آية الباطن ومرآته . والأمر واحد في الحقيقة ، بَيْدَ أنّ له ظهورات مختلفة بهذه الدرجات والمراتب ؛ فلهذا ، أنّ الدعوة إلى عزل العلماء عن السياسة التي تعتبر أخطر حربة يستخدمها الاستعمار الناهب لإقصاء الأديان السماويّة عن الحياة ، وإبعاد الحقّ والعدل والقسط عن مسرح الوجود دعوة ذميمة تستمدّ وجودها من كلام عمر وتنتهل منه .

وهل يمكن أن يكون لفصل الخلافة عن النبوّة وعدم اجتماعهما في بيت واحد معنى آخر غير هذا ؟

قال عمر : النبوّة لكم يا بني هاشم ، وعميدكم بعد النبيّ : عليّ بن أبي طالب ، ولا يهمّنا هذا أبداً . والإلهامات والحالات والمعنويّات والعلاقات المُلكيّة والملكوتيّة كلّها لكم ، ولا تخصّنا هذه الأُمور أبداً ، بل هي لكم فبوركتم بها ؛ بَيْدَ أنّ الإمارة والحكومة ليسا من شأنكم . بل من شأن غير بيت النبوّة لمن هو أعرف وأعلم بكتاب الله وسنّة نبيّه .

ومع أنّ أهل البيت هم أعرف بالكتاب والسنّة ، إلّا أنّهم لا يَجْدوننا نفعاً . عندنا كتاب الله وهو حسبنا . وبه ندير شؤوننا الظاهريّة والاجتماعيّة . وإذا بدر خطأ من الأخطاء ، فليس مهمّاً ، وأهل بيت النبوّة المتحقّقون بحقيقة القرآن الذي لَا يَمَسّهُ إِلّا الْمُطَهّرُونَ ، (١٠٩) والذي جعلّهم في الأُفق الأعلى من التوحيد ، ونمير الشريعة ، ومعدن الأحكام ، هم لأنفسهم ولأتباعهم . ولا شغل لنا بذلك . بَيْدَ أنّ الرئاسة والتصرّف وحركة المجتمع وسيره نحو السلم والحرب والعلم والجهل وغيرها ، كلّ ذلك بأيدينا . وهذا أجلى مظهر لفصل الشؤون المعنويّة عن الشؤون السياسيّة .

لقد طرح عمر قضيّة فصل الخلافة عن بيت النبوّة المتمثّل ببني هاشم ، وهي لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام بلا مراء ، وذلك بذريعة أنّ قريش لا تخضع لبني هاشم ، وأنّ بني هاشم لا حقّ لهم بالرئاسة على قريش . ونحن لم نجد أحداً يضرب على هذا الوتر غير أبي بكر وعمر . وقصده من قريش شخصه بالذات ، لأنّه من قريش وليس من بني هاشم . ودأب الرجال الذين يخالون أنفسهم كباراً أن يعبّروا عن مطالبهم الشخصيّة باسم الشعب أو الدولة التي يحكمونها ، وإن عارض جميع أفراد الشعب تلك المطالب . ونحن نقرأ أنّ رئيس الولايات المتّحدة الأميركيّة يقول مثلاً : لا تتنازل واشنطن عن موقفها بسبب التصريح الفلاني . أو تقول إليزابيث ملكة انجلترا : هذا هو ما تريده لندن ، أو يقول رئيس الاتّحاد السوفيتي [سابقاً] : موسكو لها نفس الرأي . ذلك أنّ هؤلاء المستكبرين يرون أنّ الدولة كلّها خاضعة لسيطرتهم وذائبة فيهم . وكان أحد حكّام فرنسا يقول : فرنسا يعني أنا .

إنّ خطّة عزل علماء الدين عن السياسة التي طرحت في البلدان الإسلاميّة ، وكان أشدّ المتحمّسين لتنفيذها مصطفى كمال أتاتورك ، ويتلوه رضا خان بهلوي ، اللذين نفّذاها بأعنف الأساليب ؛ فمسخا صورة بلديهما بإلغاء الإسلام ، وفوّضا شؤونهما المختلفة من لباس وقبّعة ، واقتصاد ، وسياسة ، وجيش ، وثقافة ، وآداب إلى الأجانب ، هي خطّة عمر نفسها التي مهّدت له السبيل إلى حكومة المسلمين ، وإقصاء أمير المؤمنين عليه السلام الذي يمثّل أوّل قائد علميّ وميدانيّ عظيم في الإسلام ، وكذلك إقصاء أبنائه ،

وأتباعه الأوفياء المخلصين الذين كانوا من أشرف الصحابة وأعزّهم ، أمثال : عمّار بن ياسر ، والمقداد ، وسلمان ، وأبي ذرّ ، وأمثالهم .

وأُلقي علماء الإسلام الكبار في البحر ، ونزعوا العمائم من رؤوسهم ووضعوا بدلها القبّعات الأجنبيّة التي أنزلوها في رؤوسهم بالمسامير ، ومنهم من فارق الحياة إثر التعذيب الوحشيّ في السجون . وكان ذلك كلّه امتداداً للأحداث الدامية المؤسفة التي شهدها عصر صدر الإسلام .

إذ عاش أمير المؤمنين وقتذاك عناءً لم يشهده أحد ، وهو رجل العلم والفضيلة ، والمستوعب للقرآن ، والحافظ لسنّة رسول الله وسيرته ، والعارف بمناهج الحرب والسلم ، وتقسيم بيت المال ، وإقرار العدالة . حمل مسحاته خمس وعشرين سنة ، وانشغل بالزراعة وإجراء القنوات . وقام جلاوزة عثمان بجرّ ابن مسعود على الأرض وإخراجه من المسجد بأمر عثمان ، وكسروا عظامه حتّى فارق الحياة . ورُفس عمّار بن ياسر حتّى ابتلي بالفتق ، ومات أبو ذرّ الغفاريّ غريباً في منفاه القاحل الجديب ، وليس معه أنيس . وقتلوا بنت رسول الله وحبيبته وبضعته وروحه التي بين جنبيه وسرّه وهي بنته الوحيدة التي كان يحبّها . وبذلك غيّروا مجرى التأريخ الإسلاميّ ، وساقوا الأُمّة الإسلاميّة في طريق غير طريق رسول الله وأمير المؤمنين عليهما الصلاة والسلام . ولم يبق من العمل بالقرآن إلّا لفظه واسمه ، وأحكموا قبضتهم الاستكباريّة على الأُمّة ، وتركوا الجميع يئنّون تحت سياطهم القاسية .

وحُكِمَ على الأئمّة الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين بالسجن والتعذيب والنفي والقتل عبر تلك الخطّة الجهنّميّة بعزل العلماء عن السياسة التي تبنّاها حكّام الجور ، لأنّ أُولئك كانوا يقولون : تستلزم روح الإمامة والولاية الإلهيّة الحقيقيّة الحكومة على الناس ومسك أُمورهم في أفضل طريق الرقيّ والكمال . وكان حكّام الجور يقولون : الولاية المعنويّة لكم ، والحكومة الظاهريّة لنا .

جاء في كتاب «ربيع الأبرار» للزمخشريّ أنّ هارون الرشيد كان يقول للإمام موسى [بن جعفر عليه السلام] : خذ فدكاً ! وهو يمتنع . فلمّا ألحّ عليه . قال : ما آخذها إلّا بحدودها . قال : وما حدودها ؟! قال : الحدّ الأوّل عَدَن . فتغيّر وجه الرشيد . وقال : والحدّ الثاني ؟! قال : سمرقند ، فأربد وجهه . قال : والحدّ الثالث ؟ قال : إفريقية ، فاسودّ وجهه . قال : والحدّ الرابع ؟ قال : سيف البحر ممّا يلي الخزر وأرمينية . فقال هارون : فلم يبق لنا شيء ! فتحوّل في مجلسي ! فقال الإمام : قد أعلمتك أنّي إن حدّدتها لم تردّها ! فعند ذلك عزم هارون على قتله ، واستكفى أمره . (١١٠)

لقد مرّ على خطّة فصل الدين عن السياسة زهاء قرن من الزمان . وأوّل من دعا إليها هم العرب النصارى الذين رفعوا عقيرتهم عالياً لميلهم إلى الميوعة والانفلات في النظام الاجتماعيّ ، وهما محظوران في الإسلام .

واقتدى بهم أكثر المثقّفين المتديّنين الملتزمين من العرب ، لا رغبة في فصل الدين عن السياسة ، بل ردّ فعل لسلوك السلاطين العثمانيّين وحكّام مصر الذين كانوا يتظاهرون بالدين ، وقد استغلّوه وسيلة لخدمة سياساتهم ومآربهم الخاصّة ، وضيّقوا الخناق على الشعب ورجاله المتلزمين فلا أحد له حقّ الاعتراض أو التعبير عن الرأي . فلهذا نادى أُولئك المثقّفون بهذه الخطّة لإخراج الدين من قبضة هؤلاء المستغلّين ، وجعل السياسة تحت لوائه .

وبصورة عامّة ، لمّا كان المسلمون من غير أتباع أهل البيت جميعهم يرون السلاطين والأُمراء خلفاء الله وأُولي الأمر ، ويرون وجوب طاعتهم ، لذلك يلحظ في هذه المدرسة أنّ الناس كلّهم ضعفاء ، وأنّ الدين ليس إلّا كياناً مفروضاً من قبل الجهاز الحاكم .

وهذا من أهمّ أسباب تخلّف أهل السنّة وبلدانهم وشعوبهم إذ يرون وجوب طاعة الظالمين والجائرين على أساس تعاليم مدرستهم . وعلى هذا فسبيل النجاة موصد بوجوههم ، إلّا أن ينضووا تحت لواء التشيّع ، ويتّبعوا الصالحين من أولياء الله ، ويعتقدوا أنّ أُولي الأمر الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم هم الأئمّة الاثنا عشر .

بَيدَ أنّ الدعوة إلى فصل الدين عن السياسة في بلاد الشيعة اتّخذت طابعاً آخر . فإنّ المنادين بها يريدون القضاء على نفوذ العلماء والفقهاء الذين يحظون بمنزلة معنويّة وروحيّة بين الناس . ويبغون إقصاءهم وعزلهم عن الشؤون السياسيّة والاجتماعيّة . أو بعبارة أُخرى : يخضعون الدين للسياسة ، ويسيّرونه حسب أهوائهم ومشتهياتهم . وهذا خطر عظيم ، لأنّه يستهدف نسخ الدين ، وطمس الحقيقة والمعنويّة والضمير والعاطفة ، وطمس معانيها في بوتقة الدمار والفناء ، وإحلال الاستكبار والتغطرس والتعظّم وظواهر المدنيّة الغربيّة الضالّة وثقافتهم وعاداتهم محلّها ، وإغراق الشعب في مستنقع الذنوب والآثام والهوس والغفلة ، وبالتالي استغلاله وإنهاكه بأقصى ما يمكن .

وأساساً أنّ تعبير (الروحانيّة) يمثّل ظاهرة من ظواهر الكفر الضالّة ، إذ يطلقون على علماء الإسلام : الروحيّين بينما هم ليسوا روحيّين فحسب ، بل هم مسلمون روحيّون ومادّيّون ، دنيويّون وأُخرويّون ، من أهل العبادة والشؤون الروحيّة ، كما أنّهم من أهل الشؤون الاجتماعيّة والسياسيّة ، وأهل التعامل مع المسائل المادّيّة والطبيعيّة والدنيويّة .

ولم يرد لفظ الروحيّ والروحانيّ والروحيّة في مفردات القرآن الكريم والسنّة النبويّة ، والدين الإسلاميّ ليس دين الروح فحسب ، بل هو دين الجسم ، والروح ، والعقيدة ،

والفكر ، والعمل ، والعبادة ، والجهاد ، ولا يختصّ ببعد واحد . وهذه الحقيقة هي اندكاك مفهوم السياسة والروحيّة بعضها في البعض الآخر .

علماً أنّ لفظ الروحيّ والروحانيّ جاءنا من النصارى الذين يعتبرون عيسى أباهم الروحيّ . ويطلقون على الرهبان : الآباء الروحانيّين . فسرى هذا اللفظ من النصارى إلى المسلمين ، فجاء في كلماتهم وكتبهم ومحاوراتهم . ويا للأسف فقد ترسّخ هذا المفهوم من خلال غفلة كثير من العلماء بحيث إنّنا نرى أنّ علماء الإسلام وفقهاءه يطلقون على أنفسهم : روحانيّين . أي : أنّهم بقبولهم هذا اللقب تبرّعوا لعدوّهم طوعاً بنصف سعادتهم المتمثّلة بحرّيّتهم في الحقوق السياسيّة . ولعلّهم يقولون : نحن روحانيّون ، فما لنا نتدخّل في الشؤون الاجتماعيّة ؟

وهذا المعني في الحقيقة مَسْخ ونسخ للإسلام . أَعَاذَنَا اللَهُ مِنَ الغَفْلَةِ .

ويتحتّم علينا أن نستخدم لفظ العالِم والفقيه دائماً بدل لفظ (الروحانيّ) ؛ ونطلق لفظ العلماء والفقهاء بدل الروحانيّين ؛ ونستخدم كلمتي الفقاهة والعلم محلّ كلمة الروحانيّة ؛ لأنّ هذه المفردات من المصطلحات التي وضعها الشارع المقدّس ، ولها معنى صحيح وشامل .

وتماثل هذه المفردات مفردات أُخرى أدخلها الاستعمار المتيقّظ في مصطلحات المسلمين ، فنتج عن ذلك أنّه عرض شرفهم وحياتهم وولاءهم وبراءتهم واتّحادهم بأشكال ممسوخة منكرة . مثلاً ، نُسخ لفظ الكفر والإيمان ، والكافر والمسلم وحلّ محلّه لفظ الخارج والداخل ، والخارجيّ والداخليّ (١١١) ، فكلّ من كان داخل البلد يسمّى داخليّاً وإن كان مشركاً وكافراً . وكلّ من كان خارجه ، يسمّى خارجيّاً وإن كان مسلماً وملتزماً . وهذا التعبير خاطئ تماماً مائة بالمائة .

ونتيجة الكلام : لا إجماع عندنا على لزوم الفصل بين الخلافة والنبوّة ، بل الإجماع قائم على عدم لزوم ذلك ، بل لو لم تكن بيعة أبي بكر في السقيفة خفيةً ، لما ارتاب أحد في بيعة عليّ بن أبي طالب . وبدا بعد حادثة السقيفة أنّ بيعة أبي بكر كانت منكرة وغير معروفة ، ولم يتوقّع العامّة ذلك ، وكانوا يرون الأجواء مهيّأة لأمير المؤمنين عليه السلام .

وعندما تحدّث أبو عبيدة الجرّاح ، وعبد الرحمن بن عوف في السقيفة عن فضل قريش والمهاجرين أمام الأنصار ، قام المنذر بن الأرقم فقال : مَا نَدْفَعُ فَضْلَ مَنْ ذَكَرْتَ وَإِنّ فِيهُمْ لَرَجُلاً لَوْ طَلَبَ هَذَا الأَمْرَ لَمْ يُنَازِعْهُ أَحَدٌ ، يَعْنِي عَلِيّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ . (١١٢)

(١١٢)

قال ابن أبي الحديد : قال البراء بن عازب : لم أزل لبني هاشم محبّاً . فلمّا قبض رسول الله صلّى الله عليه وآله [وسلّم] ، خفت أن تتمالأ قريش على إخراج هذا الأمر عنهم ، فأخذني ما يأخذ الوالهة العَجُول ، مع ما في نفسي من الحزن لوفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله .

فكنت أتردّد إلى بني هاشم وهم عند النبيّ في الحجرة ، وأتفقّد وجوهَ قريش ، فإنّي كذلك إذ فقدت أبا بكر وعمر . وإذا قائل يقول : القوم في سقيفة بني ساعدة . وإذا قائل آخر يقول : قد بويع أبا بكر .

فلم ألبث ، وإذا أنا بأبي بكر قد أقبل ومعه عمر ، وأبو عبيدة ، وجماعة من أصحاب السقيفة . وهم محتجزون بالأُزُر الصنعانيّة لا يمرّون بأحد إلّا خبطوه ، وقدّموه فمدّوا يده فمسحوها على يد أبي بكر يبايعه ؛ شاء أم أبي .

فأنكرتُ عقلي ، وخرجت أشتدّ حتّى انتهيت إلى بني هاشم وكانوا مشغولين بتجهيز النبيّ والباب مغلق . فضربت عليهم الباب ضرباً عنيفاً ، وقلت : قد بايع الناس لأبي بكر بن أبي قُحافة .

فقال العبّاس [بن عبد المطّلب] : تَرِبَتْ أيديكم إلى آخر الدهر يا بني هاشم ! أما إنّي قد أمرتكم ، فعصيتموني !

فمكثتُ أُكابد ما في نفسي ، ورأيت في الليل المقداد ، وسلمان ، وأبا ذر ، وعُبَادَة بن الصامت ، وأبا الهيثم بن التّيّهان ، وحذيفة ، وعماراً ، وهم يريدون أن يردّوا بيعة أبي بكر ، ويعيدوا الأمر شورى بين المهاجرين . (١١٣) وبلغ ذلك أبا بكر ، وعمر ، فأرسلا إلى أبي عبيدة ، وإلى المغيرة بن شعبة ، فسألاهما عن الرأي . فقال المغيرة : الرأي أن تلقوا العبّاس فتجعلوا له ولولده في هذه الإمرة نصيباً ، ليقطعوا بذلك ناحية عليّ بن أبي طالب !

فانطلق أبو بكر ، وعمر ، وأبو عبيدة ، والمغيرة حتّى دخلوا على العبّاس . وذلك في الليلة الثانية من وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله . فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه ، وقال :

إنّ الله ابتعث لكم محمّداً نبيّاً ، وللمؤمنين وليّاً . فمنّ الله عليهم بكونه بين ظهرانيهم . حتّى اختار له ما عنده . فخلّى على الناس أُمورهم ليختاروا لأنفسهم متّفقين غير مختلفين ، فاختاروني عليهم وليّاً ، ولأُمورهم راعياً ؛ فتولّيت ذلك . وما أخاف بعون الله وتسديده وهناً ولا حيرة ولا جبناً . وما توفيقي إلّا بالله عليه توكّلت وإليه أُنيب .

وما أنفكّ يبلغني عن طاعن يقول بخلاف قول عامّة المسلمين ، يتّخذكم ملجأً فتكونون حصنه المنيع وخطبه البديع ! فأمّا دخلتم فيما دخل الناس ، أو صرفتموهم عمّا مالوا إليه !

فقد جئناك ، ونحن نريد أن نجعل لك في هذا الأمر نصيباً ، ولمن بعدك من عقبك ؛ إذ كنتَ عمّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ! وإن كان المسلمون قد رأوا مكانك من النبيّ ، ومكان أهلك ، ثمّ عدلوا بهذا الأمر عنكم !

وعلى رِسلِكم بني هاشم ! فإنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم منّا ومنكم !

فاعترض كلامه عمر ، وخرج إلى مذهبه في الخشونة والوعيد وإتيان الأمر من أصعب جهاته ، فقال : إي والله . وأُخرى : إنّا لم نأتكم حاجةً إليكم ، ولكن كرهنا أن يكون الطعن فيما اجتمع عليه المسلمون منكم ، فيتفاقم الخطب بكم وبهم . فانظروا لأنفسكم ولعامّتهم . ثمّ سكت .

فتكلّم العبّاس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

إنّ الله ابتعث محمّداً نبيّاً كما وصفت ، ووليّاً للمؤمنين ، فمنّ الله به على أُمّته حتّى اختار له ما عنده . فخلّى الناس على أمره ليختاروا لأنفسهم ، مصيبين للحقّ ، مائلين عن زيغ الهوى .

فإن كنتَ برسول الله طلبتَ ، فحقّنا أخذت ! وإن كنت بالمؤمنين ، فنحن منهم ! ما تقدّمنا في أمركم فرطا ، ولا حللنا وسطا ، ولا نزحنا شحطا . فإن كان هذا الأمر يجب لك بالمؤمنين ، فما وجب إذ كنّا كارهين ! وما أبعد قولك : إنّهم طعنوا من قولك إنّهم مالوا إليك !

وأمّا ما بذلت لنا ، فإن يكن حقّك أعطيتناه ، فأمسكه عليك ! وإن يكن حقّ المؤمنين ، فليس لك أن تحكم فيه ! وإن يكن حقّنا ، لم نرض لك ببعضه دون بعض !

وما أقول هذا أروم صرفك عمّا دخلت فيه ، ولكنّ للحجّة نصيبها من البيان .

وأمّا قولك : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله منّا ومنكم ، فإنّ رسول الله من شجرة نحن أغصانها ، وأنتم جيرانها .

وأمّا قولك يا عمر : إنّك تخاف الناس علينا ؛ فهذا الذي قدّمتموه أوّل ذلك ؛ وبالله المستعان . (١١٤)

ونقل الكاتب العبّاسيّ أحمد بن أبي يعقوب المعروف باليعقوبيّ هذا المضمون في تأريخه . إلّا أنّ البراء بن عازب لمّا جاء إلى البيت الذي كان فيه بنو هاشم ، وضرب الباب ، وقال : بويع أبو بكر ؛ قال بعضهم : ما كان المسلمون يحدثون حدثاً نغيب عنه ، نحن أولى بمحمّد . فقال العبّاس : فَعَلُوهَا وَرَبّ الكَعْبَةِ .

وكان المهاجرون والأنصار لا يشكّون في خلافة عليّ . فلمّا خرجوا من الدار ، قال الفضل بن العبّاس ، وكان لسان قريش : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ! إنَّهُ مَا حَقّتْ لَكُمُ الخِلَافَةُ بِالتّمْوِيهِ ، وَنَحْنُ أَهْلُهَا دُونَكُمْ ، وَصَاحِبُنَا أَوْلَى بِهَا مِنْكُمْ ! وقام عُتْبَة بْنُ أَبِي لَهَبٍ ، وقال :

مَا كُنْتُ أَحْسِبُ أَنّ الأَمْرَ مُنْصَرِفٌ

عَنْ هَاشِمٍ ثُمّ مِنْهَا عَنْ أَبِي الحَسَنِ
عَنْ أَوّلِ النّاسِ إيمَاناً وَسَابقةً
وَأَعْلَمِ النّاسِ بِالقُرْآنِ وَالسّنَنِ
وَآخِرِ النّاسِ عَهْداً بِالنّبِيّ وَمَنْ
جبْرِيلُ عَوْنٌ لَهُ فِي الغسْلِ وَالكَفَنِ
مَنْ فِيهِ مَا فِيهِمْ لَا يَمْتَرُونَ بِهِ
وَلَيْسَ فِي القَوْمِ مَا فِيهِ مِنَ الحَسَنِ (١١٥)
(١١٦)

فبعث إليه أمير المؤمنين عليه السلام فنهاه عن هذا الكلام .

ومن الموضوعات المذكورة في «تاريخ اليعقوبيّ» تخلّف أبي سفيان بن حرب عن بيعة أبي بكر وقوله : أَرَضِيتُمْ يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْ يَلِي هَذَا الأَمْرَ عَلَيْكُمْ غَيْرُكُمْ ؟! وَقَالَ لِعَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ : امْدُدْ يَدَكَ أُبَايِعْكَ ــ وَعَلِيّ مَعَهُ قَصَيّ ــ وَقَالَ :

بَنِي هَاشِمٍ لَا تُطْمِعُوا النّاسَ فِيكُمْ
وَلَا سِيّمَا تَيْمَ بْنَ مُرّةَ أَوْ عَدِي
فَمَا الأَمْرُ إلّا فِيكُمْ وَإِلَيْكُمْ
وَلَيْسَ لَهَا إلّا أَبُو حَسَنٍ عَلِي
أَبَا حَسَنٍ فَاشْدُدْ بِهَا كَفّ حَازِمٍ
فَإِنّكَ بِالأَمْرِ الّذِي يُرْتَجَى مَلِي
وَإِنّ امْرَءاً يَرْمِي قُصَيّ (١١٧) وَرَاءَهُ
عَزِيزُ الحِمَى وَالنّاسُ مِنْ غَالِبِ (١١٨) قَصِي (١١٩)

وذكر الشيخ المفيد الذي روى هذه الأبيات عن أبي سفيان في آخر هذه القضيّة قائلاً :

ثُمّ نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ : يَا بَنِي هَاشِمٍ ! يَا بَنِي عَبْدَ مَنَافٍ ! أَرَضِيتُمْ أَنْ يَلِي عَلَيْكُمْ أَبُو فَصِيلٍ : الرّذْلُ بْنُ الرّذْلِ ؟! أَمَا وَاللهِ لَوْ شِئْتُمْ لأَمْلأَنّهَا عَلَيْهِمْ خَيْلاً وَرَجِلاً !

فَنَادَاهُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السّلَامُ : ارْجِعْ يَا أَبَا سُفْيَانَ ! فَوَ اللهِ مَا تُرِيدُ اللهَ بِمَا تَقُولُ ! وَمَا زِلْتَ تَكِيدُ لِلإِسْلَامِ وَأَهْلَهُ ! وَنَحْنُ مَشَاغِيلُ بِرَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ ؛ وَعَلَى كُلّ امْرِئٍ مَا اكْتَسَبَ ؛ وَهُوَ وَلِيّ مَا احْتَقَبَ !

فانصرف أبو سفيان إلى مسجد رسول الله ، فوجد بني أُميّة مجتمعين ؛ فحرّضهم على الأمر ، فلم ينهضوا له .

وكانت فتنة عمّت ، وبليّة شملت ، وأسباب سوء اتّفقت ، تمكّن بها الشيطان ، وتعاون فيها أهل الإفك والعدوان ، فتخاذل في إنكارها أهل الإيمان ، وكان ذلك تأويل قول الله عزّ وجلّ :

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً . (١٢٠) و (١٢١)

وكان خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ غائباً عند اجتماع السقيفة ووفاة رسول الله ، فقدم فأتى عليّاً ، فقال : هلمّ أُبايعك فَوَ اللَهِ مَا فِي النّاسِ أَحَدٌ أَوْلَى بِمَقَامِ مُحَمّدٍ مِنْكَ .

واجتمع جماعة إلى عليّ بن أبي طالب يدعونه إلى البيعة له . فقال لهم : اغْدُوا عَلَى هَذَا مُحَلّقِينَ الرّؤُوسَ . فَلَمْ يَغْدُ عَلَيْهِ إلّا ثَلَاثَةُ نفَرٍ .

وبلغ أبا بكر وعمر أنّ جماعة من المهاجرين والأنصار قد اجتمعوا مع عليّ بن أبي طالب في منزل فاطمة بنت رسول الله ، فأتوا في جماعة حتّى هجموا على الدار . وخرج عليّ ومعه السيف ، فلقيه عمر ، فصارعه عمر فصرعه ، وكسر سيفه ، ودخلوا الدار .

فخرجت فاطمة ، فقالت : والله لتخرجنّ أو لأكشفنّ شعري ولأعجّنّ إلى الله ! فخرجوا وخرج من كان في الدار ، وأقام القوم أيّاماً . ثمّ جعل الواحد بعد الواحد يبايع . ولم يبايع عليّ إلّا بعد ستّة أشهر ؛ وقيل : أربعين يوماً . (١٢٢)

وقال ابن أبي الحديد بسنده : لمّا كثر الناس في تخلّف عليّ عليه السلام عن بيعة أبي بكر ، واشتدّ أبو بكر وعمر عليه في ذلك ، خرجت أُمّ مِسْطَح بن أُثَاثة (١٢٣) فوقفت عند قبر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وقالت :

كَانَتْ أُمُورٌ وَأَنْبَاءٌ وَهَنْبَثَةٌ
لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهَا لَمْ تَكْثُرِ الخَطْبُ
إنّا فَقَدْنَاكَ فَقْدَ الأَرْضِ وَابِلَهَا
وَاخْتَلّ قَوْمُكَ فَاشْهَدْهُمْ وَلَا تَغِبِ (١٢٤)

وبعد هذه القضيّة ، يروي ابن أبي الحديد بسنده عن أبي الأسود أنّه قال : غضب رجال من المهاجرين في بيعة أبي بكر بغير مشورة ، وغضب عليّ والزبير ، فدخلا بيت فاطمة عليها السلام معهما السلاح . فجاء عمر في عصابة ، منهم : أُسَيْد بن خُضَيْر ، وسَلَمَة بن سَلَامَة بن وَقْش ، وهما من بني عبد الأشهل .

فصاحت فاطمة عليها السلام ، وناشدتهم الله ، فأخذوا سيفي عليّ والزبير ، فضربوا بهما الجدار حتّى كسروهما ، ثمّ أخرجهما عمر يسوقهما حتّى بايعا . ثمّ قام أبو بكر فخطب الناس ، واعتذر إليهم ، وقال : إنّ بَيْعَتِي كَانَتْ فَلْتَةً وَقَى اللَهُ شَرّهَا . (١٢٥)

والعجب أنّ أُولئك الخلفاء المنتخبين قاموا بتلك الأعمال والممارسات باسم الدين ومناصرة الدين ، وطبعوها بطابع الإسلام ، وأضفوا عليها عنوانه . والعجب كلّ العجب من سير الإنسان في طريق معكوس تماماً وهو يعلم بذلك حقيقة العلم ، بَيدَ أنّ هوى النفس قد أعماه وأصمّه وزيّن له أنّه على صراط مستقيم ، وهو منحرف كلّ الانحراف عن هذا الصراط وهذا هو ما سوّلت له نفسه ، كما قال تعالى في كتابه الحكيم :

إِنّ الّذِينَ ارْتَدّوا عَلَى أَدْبَرِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشّيْطَنُ سَوّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لهُمْ . (١٢٦)

وما أدرى هؤلاء أنّ حقيقة التخلّف تتمثّل في التقديم بين يدي الله ، واستباق أوامره ، والتقدّم على منهاج رسول الله . وأنّ كلّ من رفع صوته فوق صوت رسول الله ، وتعامل معه ومع دينه ونواميسه كما يتعامل مع سائر الأُمور الأُخرى ، فقد حبطت أعماله وكان من الهالكين . ولا يسجّل في كتاب أعماله إلّا الخيبة والخسران . وكأنّهم لم يسمعوا كلام الله حيث يقول : يَأَيّهَا الّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدّمُوا بَيْنَ يَدَى اللّهِ وَرَسُولِهِ وَاتّقُوا اللّهَ إِنّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَأَيّهَا الّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَ تَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النّبِىِ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ .

وصلّى الله على رسوله ، وعلى عليّ أمير المؤمنين ، وعلى الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء بنت الرسول ، المكسورة الضلع ، المجهولة القدر ، المخفيّة القبر ، المظلومة المضطهدة بالجور ، والشهيدة في إعلاء كلمة الإسلام ، ونفي الزيغ والهوى ؛ وعلى الأئمّة المعصومين . ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين . ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم .

تعليقات:

١) الآيتان ١ و ٢ ، من السورة ٤٩ : الحجرات .

٢) مناقب ابن شهرآشوب» ج ١ ، ص ١٨١ و ١٨٢ ، عن العبديّ ، ويقصد به في كلامه : سفيان بن مصعب العبديّ الكوفيّ .

٣) مناقب ابن شهرآشوب» ج ١ ، ص . ١٨١

٤) ريحانة الأدب» ج ٤ ، ص . ٩٩

٥) الغدير» ج ٤ ، ص ١٥٥ إلى . ١٦٠ والأبيات الأخيرة (٩٨ إلى ١٠٦) هي :

فَصَاحَةُ شِعْرِي مُذْ بَدَتْ لِذَوِي الحِجَى
تمَثّلَتِ الأَشْعَارُ عِنْدَهُمْ لُكْنَا
وَخَيْرُ فُنُونِ الشّعْرِ مَا رَقّ لَفْظُهُ
وَجَلّتْ مَعَانِيهِ فَزَادَتْ بِهَا حُسْنَا
وَلِلْشِعْرِ عِلْمٌ إنْ خَلَا مِنْهُ حَرْفُهُ
فَذَاكَ هَذَاءٌ فِي الرّؤوسِ بِلَا مَعْنَى
إِذَا مَا أَدِيبٌ أَنْشَدَ الغَثّ خِلْتَهُ
مِنَ الكَرْبِ والتّنْغِيصِ قَدْ أُدْخِلَ السّجْنَا
إِذَا مَا رَأَوْهَا أَحْسَنُ النّاسِ مَنْطِقَاً
وَأَثْبَتُهُمْ حَدثاً وأَطْيَبُهُمْ لَحْنَا

تَلَذّ بِهَا الأَسْمَاعُ حَتّى كَأَنّهَا
أَلَذّ مِنْ أَيّامِ الشّبِيبَةِ أَوْ أَهْنَى
وَفِي كُلّ بَيْتٍ لَذّةٌ مُسْتَجَدّةٌ
إِذَا مَا انْتَشَاهُ قِيلَ : يَا لَيْتَهُ ثَنّى
تَقَبّلَهَا رَبّي وَوَفّى ثَوَابَهَا
وَثَقّلَ مِيزَانِي بِخَيْرَاتِهَا وَزْنَا
وَصَلّى عَلَى الأَطْهَارِ مِنْ آلِ أَحْمَدٍ
إِلَهُ السّمَاءِ مَا عَسْعَسَ اللّيْلُ أَوْ جَنّا

ينبغي أن نعرف أنّ ابن حمّاد العبديّ كان من أهل البصرة ، وكان معاصراً للشيخ الصدوق ومن أقرانه . أدركه النجاشيّ . وهو يروي عن كتب أبي أحمد الجلّوديّ البصريّ المتوفّى سنة ٣٣٢ ه . وأمّا العبديّ الكوفيّ : سفيان بن مصعب ، فهو من أهل الكوفة . كان معاصراً للسيّد الحميريّ . وعمّر ـــ على ما يبدو ـــ حتّى سنة ١٧٨ ه التي توفّي فيها الحميريّ . وكان الإمام الصادق عليه السلام يأمر الشيعة بإنشاد شعره في بيوتهم . («الغدير» ج ٢ ، ص ٢٩٧) .

٦) عندما كان رسول الله يريد أن يجمع الناس ، يُنادى من قبله : الصّلَاةُ جَامعَةٌ . فيعرف الناس أنّ أمراً قد حصل ، وعليهم الحضور لاستماعه ، فيجتمعون في المسجد ، وربّما صدر هذا النداء بنصب الكلمتين الصّلَاةَ جَامِعَةً ، الأُولى على الإغراء ، والثانية على الحال ، أي : أقبلوا إلى الصلاة وهي جامعة للمؤمنين .

٧) ديوان الحميريّ» القصيدة ١٦٦ ، ص ٣٩٧ ؛ و «الغدير» ج ٢ ، ص ٢٢٩ ؛ و «أعيان الشيعة» ج ١٢ ، ص ١٥٤ ، الطبعة الثانية ؛ و «مناقب ابن شهرآشوب» ج ١ ، ص ٣٥٥ .

٨) ديوان الحميريّ» القصيدة ١١٨ ، ص ٤٣٠ ، البيتان ١٥ و ١٦ من القصيدة المشتملة على ٥٢ بيتاً في فضيلة أمير المؤمنين عليه السلام ؛ و «أعيان الشيعة» ج ١٢ ، ص ١٥٧ ؛ و «مناقب ابن شهرآشوب» ج ١ ، ص ٥٣٥ .

٩) جاء في «المناقب» اشتقالها ؛ وكذلك في «أعيان الشيعة» ؛ وفي حاشية «المناقب» ذكرها المصحّح بالثاء فقال : اثتقالها ؛ وفي «ديوان الحميريّ» اشتغالها بالغين . ولمّا لم نجد معنى مناسباً في هذا البيت غير «اشتغالها» ، فلهذا ذكرناه هنا .

١٠) ديوان الحميريّ» القصيدة ١٣٣ ، ص ٣٢٩ إلى ٣٣١ ؛ و «أعيان الشيعة» ج ١٢ ، ص ١٦١ ؛ و «المناقب» ج ١ ، ص ٥٣٥ .

١١) أبو محمّد العونيّ : طلحة بن عبيد الله بن أبي عَوْن الغسّانيّ ، وجاءت ترجمته وبعض قصائده في مدح أهل البيت وأمير المؤمنين والصادق عليهم السلام جميعاً في كتاب

«الغدير» ج ٤ ، ص ١٢٤ إلى . ١٤٠ وشعره بليغ وفصيح عذب شائق عميق . وبلغ شعره في أهل البيت عليهم السلام من الروعة والسموّ درجة كانت تسير الركبان رغبة في الظفر به ، وكان الشاعر منير والد أحمد منير ينشد شعر العونيّ في أسواق طرابلس فيقرّط آذان الناس بتلكم الفضائل . لكنّ هذا الهتاف بذكر أهل البيت ثَقُل على ابن عساكر فأراد أن يشوّه سمعته فقال : إنّه كان يغنّي في أسواق طرابلس بشعر العونيّ . وجاء ابن خلّكان بعد لايٍ من عمر الدهر حتّى وقف على شعر العونيّ فساءه أكثر ممّا ساء ابن‌عساكر فطرح لفظة «شعر العونيّ» واكتفى بأنّ منيراً كان يغنّي في الأسواق .

١٢) مناقب ابن شهرآشوب» ج ١ ، ص ٥٣٥ ؛ و «الغدير» ج ٤ ، ص . ١٢٧

١٣) و ٤ــ «مناقب ابن شهرآشوب» ج ١ ، ص ٥٣٥ و . ٥٣٦

١٤) وروى معاوية بن عمّار ، عن الإمام الصادق عليه السلام ، في خبر : لَمّا قَالَ النَّبِيّ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : مَنْ كُنْتُ مَولَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ ، قَالَ العَدَوِيّ : لَا وَاللَهِ مَا

١٥) الآيات ٤٤ إلى ٥٠ ، من السورة ٦٩ : الحاقّة .

١٦) الآية ٥١ ، من السورة ٦٩ : الحاقّة .

١٧) الآيتان ٥١ و ٥٢ ، من السورة ٦٨ : القلم .

١٨) الآية ٦٥ ، من السورة ٦٥ : الزمر .

١٩) ديوان الحميريّ» ص ٤٥٨ و ٤٥٩ ، القصيدة ١٩٨ ؛ و «أعيان الشيعة» ج ١٢ ، ص ١٦٤ ؛ و «مناقب ابن شهرآشوب» ج ١ ، ص . ٥٣٧

٢٠) الآيات ٣١ إلى ٣٥ ، من السورة ٧٥ : القيامة .

٢١) الآية ١٥ ، من السورة ١٠ : يونس . والآية كاملة : وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَتٍ قَالَ الّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ائت بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآ ىِ نَفْسِى إِنْ أَتّبِعُ إِلّا مَا يُوحَى إِلَيّ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

٢٢) اقتباس من الآيات ٢١ إلى ٢٣ ، من السورة ٧٢ : الجنّ ؛ لأنّ في الآيات الكريمة أوّلاً : ضَرّا وَلَا رَشَدًا ، وثانياً لم ترد عبارة : إِن عَصَيْتُهُ .

٢٣) الآيتان ١٠ و ١١ ، من السورة ٧٣ : المزمّل .

٢٤) الآيتان ١٥ و ١٦ والآية ١٨ ، من السورة ٧٧ : المرسلات .

٢٥) الآية ٥٣ ، من السورة ١٠ : يونس .

٢٦) المناقب» ج ١ ، ص ٥٣٧ إلى ٥٣٨ ؛ و «الغدير» ج ٤ ، ص . ١٢٤ جاء في البيت الرابع في «المناقب» : يَجْذُونَهَا بجيم معجمة ؛ وفي «الغدير» بحاء مهملة : يَحْذُونَهَا . والمفاد فيهما واحد . وضمير المؤنّث يرجع إلى الخلافة .

٢٧) مناقب ابن شهرآشوب» ج ١ ، ص ٥٣٥ إلى ٥٣٨ ، الطبعة الحجريّة .

٢٨) مناقب ابن شهرآشوب» ج ١ ، ص ٥٣٨ ؛ و «الغدير» ج ٤ ، ص . ١٢٥

٢٩) مناقب ابن شهرآشوب» ج ١ ، ص ٥٣٨ .

٣٠) مناقب ابن شهرآشوب» ج ١ ، ص ٥٣٩ .

٣١) الآية ٧٤ ، من السورة ٩ : التوبة .

٣٢) مناقب ابن شهرآشوب» ج ١ ، ص ٥٣٩ .

٣٣) مناقب ابن شهرآشوب» ج ١ ، ص ٥٣٩ .

٣٤) مناقب ابن شهرآشوب» ج ١ ، ص ٥٣٩ .

٣٥) ذخائر العقبى» ص ٦٧ .

٣٦) ذخائر العقبى» ص ٦٨ .

٣٧) ذخائر العقبى» ص ٦٨ .

٣٨) أُسد الغابة» ج ٤ ، ص ٢٨ .

٣٩) جاء في نسخة الكتاب «مولائي» بالألف الممدودة . وهذا سهو لأنّ مَوْلَى على وزن مَفْعَل بالألف المقصورة .

٤٠) حبيب السير» ج ١ ، ص ٤١١ ، طبعة حيدري .

٤١) روضة الصفا» ج ٢ ، الطبعة الحجريّة ، وقائع السنة العاشرة من الهجرة .

٤٢) الغدير» ج ١ ، ص ٢٧٢ إلى ٢٨٣ .

٤٣) تفسير المنار» الشيخ محمّد عبده ، ج ٦ ، ص ٤٦٥ و ٤٦٦ . وهذه الفقرة جزء من الآية ١ ، من السورة ٥٩ : الحشر .

٤٤) الإمامة والسياسة» ص ١٢ و ١٣ ، طبعة مصر ، سنة ١٣٢٨ ه‍ . يقول أحمد أمين المصريّ في الجزء الأوّل من «ضحى الإسلام» ص ٤٠٢ : ابن قتيبة : أبو محمّد عبد الله بن مسلم . أصله فارسيّ من مرو . تربّى في بغداد وتولّى فيها القضاء . وبعد ذلك تولّاه بدينور فنسب إليها ، ثمّ كان معلّماً ببغداد . وعاش من سنة ٢١٣ ه‍ إلى سنة ٢٧٦ ه‍ .

٤٥) أُسد الغابة» ج ١ ، ص ١٩٥ .

٤٦) الإمامة والسياسة» ص ١٢ .

٤٧ـ٤٨) فرائد السمطين» للحمّوئيّ ، ج ١ ، ص ١٤٥ ، الباب ٢٧ ، الحديث ١٠٩ ، والحديث ١١٠ ، الباب ٢٨ ، ص ١٤٧ .

٤٩) «حلية الأولياء» ج ١ ، ص ٦٤ عن محمّد بن عمر بن غالب ، عن محمّد بن أحمد بن أبي خيثمة ، عن عبّاد بن يعقوب ، عن موسى بن عثمان الحضرميّ ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن ابن عبّاس ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله . وجاء في «تاريخ ابن عساكر» ج ٢ ، ص ٤٢٨ إلى ٤٣٠ خمس روايات بأسناد مختلفة تحمل هذا المضمون ، أو ما يماثله .

وقال ابن شهرآشوب في «المناقب» ، ج ١ ، ص ٥٤٦ : روى جماعة من الثقات عن الأعمش ، عن عباية الأسديّ ، عن عليّ [ابن أبي طالب ، ورووا أيضاً عن] الليث ، عن مجاهد والسدّيّ ، عن أبي مالك ؛ وابن أبي ليلى ، عن داود بن عليّ ، عن أبيه ، وابن جريح عن عطاء وعكرمة وسعيد بن جبير ، كلّهم عن ابن عبّاس ؛ وروى العوّام بن حوشب عن مجاهد ؛ وروى الأعمش ، عن زيد بن وهب ، عن حذيفة ، كلّهم عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال :

مَا أَنْزَلَ اللَهُ تَعَالَى آيَةً فِي القُرْآنِ فِيهَا «يَأَيّهَا الّذِينَ ءَامنوا» إلّا وَعَلِيّ أَمِيرُهَا وَشَرِيفُهَا . وفي رواية حذيفة : إلّا كَانَ لِعَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لُبّهَا وَلُبَابُهَا . وفي روايات : إلّا وَعَلِيّ رَأْسُهَا وَأَمِيرُهَا . وفي رواية يوسف بن موسى القطّان ووكيع بن الجرّاح : أَمِيرُهَا وَشَرِيفُهَا . وفي رواية إبراهيم الثقفيّ وأحمد بن حنبل وابن بطّة العكبريّ عن عكرمة ، عن ابن عبّاس : إلّا وَعَلِيّ رَأْسُهَا وَشَرِيفُهَا وَأَمِيرُهَا . وفي صحيفة الرضا عليه السلام : ليس في القرآن «يَأَيّهَا الّذِينَ ءَامَنُوا» إلّا في حقّنا ، ولا في التوراة «يَا أَيّهَا النّاسُ» إلّا فينا .

٥٠) فرائد السمطين» ج ١ ، ص ١٥٧ ، الباب ٣٢ ، الحديث ١١٩ ؛ و «غاية المرام» القسم الأوّل ، ص ١٧ ، الحديث السابع . ونقل ابن شهرآشوب في «المناقب» ج ١ ، ص ٥٤٨ و ٥٤٩ أنّ الخطيب البغداديّ ذكر هذه القضيّة في ثلاثة مواضع من «تاريخ بغداد» .

٥١) مناقب الخوارزميّ» ص ١١١ ، الفصل الثاني ، قتال أهل الجمل ، طبعة النجف ؛ و «غاية المرام» القسم الأوّل ، ص ٢١ و ٢٢ ، الحديث . ٤٢

٥٢) كتاب «الإمام المهاجر» تأليف محمّد ضياء شهاب ، وعبد الله بن نوح . وهو مؤلّف في ترجمة أحمد بن عيسى بن محمّد بن عليّ العريضيّ بن الإمام جعفر الصادق عليه السلام . ص . ١٥٤

٥٣) حلية الأولياء» ج ١ ، ص . ٦٥

٥٤) قال ابن الأثير الجزريّ في «الكامل في التايخ» ج ٢ ، ص ٣١٧ ، طبعة بيروت ، سنة ١٣٨٥ه : في المحرّم من السنة الحادية عشرة ضرب النبيّ بعثاً إلى الشام وأميرهم أُسامة بن زيد ، وهو ابن زيد مولاه . وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين . فتكلّم المنافقون في إمارته وقالوا : أمّر غلاماً على جلّة المهاجرين والأنصار . فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : إنْ تَطْعَنُوا فِي إمَارَتِهِ فَقَدْ طَعَنْتُمْ فِي إمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ ، وَإنّهُ لَخَلِيقٌ لِلإمَارَةِ ، وَكَانَ أَبُوهُ خَلِيقاً لَهَا . وَأَوْعَبَ مَعَ أُسَامَةَ المُهَاجِرُونَ الأَوّلُونَ ، مِنْهُمْ : أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرَ .

٥٥) شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد ، ج ١٧ ، ص ١٨٣ ؛ و «الكامل في التاريخ» لأبن الأثير ، ج ٢ ، ص . ٣٥

٥٦) تاريخ دمشق» لابن عساكر ، ج ٢ ، ص ٤٦٤ إلى . ٤٨٠ نقل المؤلّف روايات جمّة بهذا المضمون .

٥٧) تاريخ دمشق» ج ٢ ، ص . ٤٥٩

٥٨) تاريخ دمشق» ج ٢ ، ص . ٤٥٧

٥٩) مجالس المؤمنين» ص ٢٨٧ ، في الربع الأخير من الصفحة .

يقول : «لا جرم أنّ من الخطأ إطلاق اسم الله على الآلهة (الأوثان) كما أنّ من الخطأ إطلاق لقب أمير المؤمنين على غيرك يا عليّ» .

٦٠) تاريخ دمشق» ج ٢ ، ص ٢٥٩ و . ٢٦٠

٦١) الآية ٥٤ ، من السورة ٤ : النساء .

٦٢) مناقب ابن شهرآشوب» ج١ ، ص٤٥٦ و٤٥٧ ؛ و«غاية المرام» القسم الأوّل ، ص ٤٠.

٦٣) كتاب سليم بن قيس» ص . ١٤٨ وسنذكر في الدرس ١١٦ أنّ من احتجاجات سلمان على أبي بكر قوله له : كيف تقوم بالأمر وفي الأُمّة من هو أعلم ؟! وما عذرك في التقدّم ؟! ويمكن الاستدلال بهذه الأخبار وأمثالها على وجوب حكومة الأعلم وتقليد الأعلم . وكذلك وردت هذه الحقيقة في خطبة الإمام الحسن عليه السلام في مجلس معاوية . «أمالي الشيخ الطوسيّ» ج ٢ ، ص ١٧٢ ؛ و «غاية المرام» ص ٢٩٨ ، الحديثان ٢٦ و . ٢٧

وجاء في «مناقب ابن شهرآشوب» ج ١ ، ص ٥٤٧ و ٥٤٨ عن ابن عبّاس [أنّه قال :] قال عليّ عليه السلام : السلام عليك يا رسول الله ! فقال [رسول الله] : وعليك السلام يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ! فقال عليّ : يا رسول الله أنت حيّ وتسمّيني أمير المؤمنين ! قال : نعم ! إنّما سمّاك جبرئيل من عند الله وأنا حيّ . يا عليّ مررت بنا أمس وأنا وجبرئيل في حديث فلم تسلّم علينا ! فقال جبرئيل : ما بال أمير المؤمنين لم يسلّم علينا ؟ أما والله لو سلّم لسررنا ولرددنا عليه .

ولم يجوّز أصحابنا أن يطلق هذا اللفظ لغيره من الأئمّة عليهم السلام . وقال رجل للإمام الصادق عليه السلام : يا أمير المؤمنين ! فقال له الإمام : صه ! ما رضي أحد بهذا اللقب إلّا وابتلي ببلاء أبي جهل ــ انتهى .

وفي «تاريخ الطبريّ» ج ٤ ، ص ٢٠٨ ، طبعة دار المعارف بمصر ، أنّ أبا جعفر قال : أوّل من دُعي أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب . ثمّ جرت بذلك السنّة . واستعمله الخلفاء إلى اليوم .

حدّثني أحمد بن عبد الصمد الأنصاريّ عن أُمّ عمرو : بنت حسّان الكوفيّة عن أبيها قال : لمّا وُلّي عمر قيل : يا خليفةَ خليفةِ رسول الله ! فقال عمر رضي الله عنه : هذا أمر

يطول كلّما جاء خليفة قالوا : يا خليفةَ خليفةِ خليفةِ رسول الله ! بل أنتم المؤمنون وأنا أميركم . فسُمّي : أمير المؤمنين .

٦٤) الإمامة والسياسة » لابن قتيبة الدينوريّ ، ص ٢٣ و ٢٤ ، طبعة مصر ، سنة ١٣٢٨ ه .

٦٥) الآية ١٢٨ ، من السورة ٩ : التوبة .

٦٦) يقول : «إنّ المسافة من عالم العشق إلى عالم الصبر ألف فرسخ» (أي : شاسعة جدّاً) .

٦٧) يقول : «لا تقس عمل الصالحين بعملك ، فكلّ ما هو موجود تشابه شكليّ ظاهريّ» [جاء في عجز البيت ما تعريبه : فكلّ ما هو موجود يكمن في كتابة (شير) (شير) والأُولى تعني الأسد والثانية تعني الحليب . وقصد الشاعر هنا التشابه فقط في الكتابة ولكنّهما مختلفان في المعنى والحقيقة] .

٦٨) شرح نهج البلاغة» ج ١ ، ص ٢٢١ و ٢٢٢ ضمن شرح الخطبة الخامسة ، طبعة دار إحياء الكتب العربيّة .

٦٩) تاريخ الطبريّ» ج ٣ ، ص ٢٠٩ ، طبعة دار المعارف بمصر ؛ و «الكامل في التاريخ» ج ٣ ، ص ٣٢٦ ، طبعة بيروت ، سنة ١٣٨٥ ه . ونقل البيت الثاني في هذين الكتابين هكذا : مَعْكُوسٌ بِرُمّتِهِ .

٧٠) الإمامة والسياسة» ص ٦ ؛ و «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد ، ج ١ ، ص ١٦٠ و ١٦١ ، طبعة دار إحياء الكتب العربيّة .

٧١) الإمامة والسياسة» ص ١٢ .

٧٢) نهج البلاغة» الخطبة الخامسة .

٧٣) الآية ٨٣ ، من السورة ٢٨ : القصص .

٧٤) نهج البلاغة» الخطبة الثالثة . ونقل هذه الخطبة كاملة أيضاً أُستاذ الشريف‌الرضيّ وشيخه : الشيخ المفيد في «الإرشاد» ص ١٥٩ و ١٦٠ ، الطبعة الحجريّة . وكذلك ذكرها المرحوم الصدوق في «معاني الأخبار» ص ٣٦٠ إلى ٣٦٢ .

٧٥) شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد ، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ، ج ١١ ، ص ١١٣ .

٧٦) الإمامة والسياسة» ص ٩ .

٧٧) يمكن أن تقرأ هذه الجملة : فَلْيَتَبَوّءْ مَقْعَدُهُ مِنَ النّارِ بصيغة المجهول . ويمكن أن تقرأ أيضاً بصيغة المعلوم .

٧٨) غاية المرام» القسم الثاني ، ص ٥٥٢ ، الحديث الأوّل من الباب الرابع والخمسين .

٧٩) جاء في «معجم البلدان» : الخال أيضاً موضع في شِقّ اليمن . ولمّا كانت الأبراد اليمانيّة المنسوجة هناك أفضل وأجود من غيرها ــ على ما يبدو ــ لهذا جاء بُرد الخال في الشعر .

٨٠) نقل ابن أبي الحديد هذه القضيّة كما يلي : روى ابن عبّاس مرفوعاً أنّه قال : تفرّق الناس ليلة الجَابِية عَن عمر ؛ فسار كلّ واحدٍ مع إلفه ؛ ثمّ صادفتُ عمر تلك الليلة في مسيرنا ، فحادثته ؛ فشكى إليّ تخلّف عليّ عنه . فقلتُ : ألم يعتذر إليك ؟ قال : بلى . فقلتُ : هو ما اعتذر به ؟ فقال : يا بن عبّاس ، إنّ أوّل مَن ريّثكم عن هذا الأمر أبو بكر ؛ إنّ قومكم كرهوا أن يجمعوا لكم الخلافة والنبوّة ! قلتُ : لِمَ ذاك يا أمير المؤمنين ؟! ألم تنلهم خيراً ؟ قال : بلى ، ولكنّهم لو فعلوا لكنتم عليهم جَحْفاً جَحْفاً («شرح النهج» ج ٢ ، ص ٥٧ و ٥٨) .

٨١) تاريخ الطبريّ» تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ، ج ٤ ، ص ٢٢٢ ، طبعة دار المعارف ــ مصر ، و ج ٣ ، ص ٢٨٨ طبعة مطبعة الاستقامة ــ القاهرة .

٨٢) الآية ٩ ، من السورة ٤٧ : محمّد ؛ والآية التي قبلها : وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ .

٨٣) إذا كانت من باب فَرّ يَفُرّ فَرّاً وَفَرَاراً وَفِرَاراً وَفُرَاراً ، كَمَدّ يَمُدّ وتعدّت بعن، فهي بمعنى البحث ، ويمكن أن تكون من مادّة فَرَكَ والكاف ليست ضمير المفعول . وفرّك من باب التفعيل للمبالغة . بيد أنّ ابن الأثير ذكرها بالقاف : أُقِرّك . وَأَقَرّ يُقِرّ إقْرَاراً من باب الإفعال إذا استعملت مع الباء ، فهي بمعنى الإذعان والاعتراف . أُقِرّك بها : أكره أن أدفعك إلى الإقرار بها .

٨٤) «تاريخ الطبريّ» تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ، ج ٤ ، ص ٢٢٢ إلى ٢٢٤ ، طبعة دار المعارف بمصر ؛ و ج ٣ ، ص ٢٨٨ إلى ٢٩٠ طبعة مطبعة الاستقامة بالقاهرة ؛ و «الإيضاح» للفضل بن شاذان ، ص ١٦٦ إلى ١٧١ ، رقم ١٣٤٧ ، طبعة جامعة طهران . ذكر ذلك برواية فقهاء المدينة ، وذكر في آخرها أنّ ابن عبّاس قال : مَا زِلْتُ أَعْرِفُ الغَضَبَ فِي وَجْهِهِ حَتّى هَلَكَ .

ونقل ابن أبي الحديد هذه القصّة في «شرح نهج البلاغة» عند بيان سيرة عمر ، وذلك في الجزء الثالث من طبعة مصر سنة ١٣٢٩ه ، ص ١٠٧ برواية عبد الله بن عمر . وذكرها ابن الأثير في ترجمة عمر ، ج ٣ ، ص ٢٤ ، أحداث سنة . ٢٣ ونقلها السيوطيّ في ترجمة زهير بن أبي سلمى ضمن «شرح شواهد مغني اللبيب» مع تعليقة الشنقيطيّ ، ج ١ ، ص ١٣٢ ، طبعة لجنة التراث العربيّ ، وذلك نقلاً عن «الأغانيّ» عن سعيد بن المسيّب . وقال السيوطيّ في ص ١٣١ : زهير بن أبي سلمى بضمّ السين . وليس في العرب سُلمى بالضمّ غيره . واسم أبي سُلمى : ربيعة بن رِياح .

ونقل ابن أبي الحديد في آخر هذه القصّة : لمّا قام عبد الله بن عبّاس ومضى ، قال عمر لجلسائه : وَاهاً لِابْنِ عَبّاسٍ ! مَا رَأَيْتُهُ لَاحَى أَحَدَاً قَطّ إلّا خَصَمَهُ .

٨٥) العقد الفريد» ج ٣ ، ص ٧٧ ، الطبعة الأُولى ، سنة ١٣٣١ ه ؛ وطبعة مكتبة النهضة المصريّة ، ج ٤ ، ص . ٢٨٠

٨٦) تاريخ ابن خلدون» ج ٣ ، ص . ١٧١

٨٧) تاريخ التمدّن الإسلاميّ» لجرجي زيدان ، ج ١ ، ص . ٥٣ والشاهد على كلام جرجي زيدان ، خطاب عمر لابن عبّاس في الحديث الذي نقلناه أخيراً عن الطبرسيّ . ووفقاً للعبارة التي أوردها ابن أبي الحديد في ج ٣ من «شرح نهج البلاغة» ص ١٠٧ ، طبعة مصر سنة ١٣٢٩ ه ، ضمن كلام عمر لابن عبّاس : كَرِهَتْ قُرَيْشٌ أَنْ تَجْتَمِعَ لَكُمُ النّبُوّةُ وَالخِلَافَةُ فَتَجْحَفُوا النّاسَ جَحْفَاً ، فَنَظَرَتْ قُرَيْشٌ لِنَفْسِهَا فَاخْتَارَتْ ، وَوُفّقَتْ فَأَصَابَتْ .

فقال ابن عبّاس : وأَمّا قَوْلُكَ : إنّا كُنّا نَجْحَفُ ، فَلَوْ جَحَفْنَا بِالخِلَافَةِ ، جَحَفْنَا بِالقَرَابَةِ وَلَكِنّا قَوْمٌ أَخْلَاقُنَا مُشْتَقّةٌ مِنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ الّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى لَهُ : «وَإِنّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» . وَقَالَ لَهُ : «وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» .

إلى أن قال له عمر : عَلَى رِسْلَكَ يَا بْنَ عَبّاسٍ ! أَبَتْ قُلُوبُكُمْ يَا بَنِي هَاشِمٍ إلّا غِشّاً فِي أَمْرِ قُرَيْشٍ لَا يَزُولُ ، وَحِقْدَاً لَا يَحُولُ . فقال ابن عبّاس بعد الاستشهاد بآية التطهير : وَأَمّا قَوْلُكَ حِقْدَاً ، فَكَيْفَ لَا يَحْقِدُ مَنْ غُصِبَ شَيْئُهُ وَيَرَاهُ فِي يَدِ غَيْرِهِ ؟ ... إلى آخره .

٨٨) الآية ٥٤ ، من السورة ٤ : النساء .

٨٩) حلية الأولياء» ج ١ ، ص ٦٤ ؛ و «كفاية الطالب» ص ٦٧ طبعة النجف .

٩٠) حلية الأولياء» ج ١ ، ص ٦٤ ؛ و «كفاية الطالب» ص ٦٧ طبعة النجف .

٩١) شرح نهج البلاغة» تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ، ج ٢ ، ص ٥٥ ، ضمن شرح الخطبة ٢٦ ، طبعة دار إحياء الكتب العربيّة ؛ و «صحيح مسلم» ج ٣ ، ص ١٢٥٩ ؛ و «الطبقات» لابن سعد ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ ، طبعة بيروت ، سنة ١٣٧٦ ه . ونقل سليم بن قيس الهلاليّ هذا الحديث في كتابه ، ص ٢٠٩ و ٢١٠ كالآتي : قال سُليم : إنّي لعند عبد الله بن عبّاس في بيته وعنده رهط من الشيعة ، فذكروا رسول الله صلّى الله عليه وآله وموته ، فبكى ابن عبّاس وقال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يومَ الاثنين وهو اليوم الذي قبض فيه وحوله أهل بيته وثلاثون رجلاً من أصحابه : إئتوني بكتف أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعدي ولا تختلفوا بعدي . فقال رجلٌ منهم : إنّ رسول الله يهجر . فغضب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وقال : إنّي أراكم تختلفون وأنا حيّ فكيف بعد موتي ! فترك الكتف .

وقال ابن أبي الحديد بعد عرض هذا الحديث بالعبارة التي ذكرناها : هذا الحديث قد خرّجه الشيخان محمّد بن إسماعيل البخاريّ ، ومسلم بن الحجّاج القشيريّ في صحيحيهما ؛ واتّفق المحدّثون كافّة على روايته .

٩٢) إنّ الروايات التي ضمّت كلام عمر : لا تأتوه بشيء فإنّه قد غلبه الوجع ، جاءت في كتاب «الأمالي» للشيخ المفيد ، بسنده المتّصل ، ص ٣٦ و ٣٧ ؛ وفي «بحار الأنوار» ج ٦ ، ص ٧٨٧ نقلاً عن «الأمالي» . وأمّا قول عمر : إنّ الرّجُلَ لَيَهْجُرُ ، عن ابن عمر في غير كتاب الحميديّ في «الجمع بين الصحيحين» ، («مسند البخاريّ» و «مسند أحمد») وبلفظ : مَا شَأْنهُ هَجَر من كتاب الحميديّ ، نقله السيّد ابن طاووس في «الطرائف» ، ونقله المجلسيّ عنه في «بحار الأنوار» ج ٨ ، ص . ٢٧٤ وذكر المجلسيّ الأخبار في هذا الباب من كتب العامّة في موضعين : الأوّل : في سيرة الرسول الأعظم ووصيّه ، ج ٦ ، ص . ٧٨٧ الثاني : في كتاب الفتن الواقعة بعد الرسول في باب مثالب عمر في الطعن الأوّل ، ج ٨ ، ص ٢٧٣ و ٢٧٤ ، ثمّ فصّل في هذا الموضوع الذي استغرق عدداً من الصفحات . وقال في ج ٦ : خبر طلب رسول الله الدواة والكتف ومنع عمر من ذلك مع اختلاف ألفاظه متواتر بالمعنى . وأورده البخاريّ ومسلم وغيرهما من محدّثي العامّة في صحاحهم . وقد أورده البخاريّ في مواضع من صحيحه ، منها في الصفحة الثانية من مفتتحه . وقال : وكفى بذلك له كفراً وعناداً ، وكفى به لمن اتّخذه مع ذلك خليفة وإماماً جهلاً وضلالاً . وقال في ج ٨ ، ص ٢٧٤ : قال السيّد رضيّ الدين بن طاووس في كتاب «الطرائف» : ومن أعظم طرائف المسلمين أنّهم شهدوا جميعاً أنّ نبيّهم أراد عند وفاته أن يكتب لهم كتاباً لا يضلّون بعده أبداً ، وأنّ عمر بن الخطّاب كان سبب منعه من ذلك ، وسبب ضلال من ضلّ من أُمّته ، وسبب اختلافهم وسفك الدماء بينهم ، وتلف الأموال واختلاف الشريعة ، وملاك اثنتين وسبعين فرقة من أصل فرق الإسلام ، وسبب خلود من يخلد في النار منهم . ومع هذا كلّه فإنّ أكثرهم أطاع عمر بن الخطّاب الذي قد شهدوا عليه بهذه الأحوال في الخلافة ، وعظّموه ، وكفّروا بعد ذلك مَن يطعن فيه !

٩٣) الطبقات الكبرى» لابن سعد ، ج ٢ ، ص . ٢٤٢

٩٤) تاريخ الطبريّ» ج ٢ ، ص ٤٣٦ ؛ و «البداية والنهاية» ج ٥ ، ص ٢٢٧ ؛ و «الكامل في التاريخ» ج ٢ ، ص ٢١٧ ؛ و «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد ، ج ١ ، ص ١٣٣ ، الطبعة ذات الأربعة أجزاء .

٩٥) شرح نهج البلاغة» ج ٢ ، ص ٥٨ ، ضمن الخطبة ٢٦ ، طبعة دار إحياء الكتب العربيّة .

٩٦) يَنْبُع ــ بفتح الياء وسكون النون وضمّ الباء الموحّدة وعين مهملة ــ موضع عامر فيه ماء وشجر وزرع . وهي عن يمين رَضْوَى لمن كان منحدراً من المدينة إلى البحر . على ليلة من رضوى ؛ من المدينة على سبع مراحل . («معجم البلدان») .

٩٧) شرح نهج البلاغة» ج ٢ ، ص ٥٧ ، ضمن الخطبة ٢٦ ، طبعة دار إحياء الكتب العربيّة .

٩٨) فَلْتَة : الأمر يقع فجأة من غير تدبّر وإحكام .

٩٩) شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد ، ج ٢ ، ص ٥٦ و ٥٧ ، طبعة دار إحياء الكتب العربيّة .

١٠٠) نهج البلاغة» ص ٣٠ ، الخطبة الثانية ، محمّد عبده ، مصر .

١٠١) نهج البلاغة» ص ٤١ و ٤٢ ، الخطبة السادسة ، نسخة محمّد عبده ، مصر . وجاء في شرح محمّد عبده : حَتّى يَؤُمّ النّاسَ هَذَا . أمّا في «شرح ابن أبي الحديد» ، و «شرح الملّا فتح الله الكاشانيّ» ، فقد جاء حَتّى يَومِ النّاسَ هَذَا .

١٠٢) كتاب «عقيدة الشيعة» ص ٨٤ ، طبعة مطبعة السعادة ، مصر ، سنة ١٣٦٥ه .

١٠٣) هذا الكلام من خطبة للإمام الحسن المجتبى عليه السلام في مجلس معاوية ، إذ رقي عليه السلام المنبر ، وذكر مناقب أهل البيت وفضائلهم ، وألقى هذه الخطبة البليغة التي جاء فيها : وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : مَا وَلّتْ أُمّةٌ أَمْرَهَا رَجُلاً وَفِيهِمْ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ إلّا لَمْ يَزَلْ أَمْرَهُمْ يَذهَبُ سَفَالاً حَتّى يَرْجِعُوا إِلَى مَا تَرَكُوا («أمالي الشيخ الطوسيّ» ج ٢ ، ص ١٧٢ ، طبعة النجف ؛ و «غاية المرام» القسم الأوّل ، ص ٢٩٨ ، الحديث . ٢٦ ونقل مثل هذه العبارة أيضاً في الحديث ٢٧ بسند آخر) .

١٠٤) الآية ٢٥ ، من السورة ٥٧ : الحديد .

١٠٥) الآية ١٤٦ ، من السورة ٣ : آل عمران .

١٠٦) الآية ٥٤ ، من السورة ٤ : النساء .

١٠٧) الآية ٢٥١ ، من السورة ٢ : البقرة .

١٠٨) الآية ٣٥ ، من السورة ٣٨ : ص .

١٠٩) الآية ٧٩ ، من السورة ٥٦ : الواقعة . ولمّا كان للقرآن باطن ، بل سبعة بواطن ، فلا يدرك حقيقة معانيه الحقيقيّة والنوريّة إلّا من تطهّرت قلوبهم من رين الهوى والهوس ، ولم تتطلّع عيونهم إلى غير الله .

١١٠) أعيان الشيعة» ج ٤ الجزء الثاني ، ص ٨٨ ، سيرة الإمام الكاظم .

١١١) تستعمل هذه الألفاظ في إيران ، أمّا في البلاد الإسلاميّة الأُخرى فإنّ لفظة مواطن تستعمل للمقيم في البلد أو من أهل البلد ، ولفظة أجنبيّ لكلّ من كان خارج البلد . (م) .

١١٢) تاريخ اليعقوبيّ» ج ٢ ، ص ١٢٣ ، طبعة بيروت .

١١٣) جاء هذا التعبير في رواية أبن أبي الحديد الشافعيّ المعتزليّ . وأمّا ما ورد في روايات الشيعة فهو أنّهم يريدون أن يبايعوا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

١١٤) شرح نهج البلاغة» ج ١ ، ص ٢١٩ إلى ٢٢١ ، طبعة دار إحياء الكتب العربيّة .

١١٥) نقل ابن الأثير الجزريّ هذه الأبيات في «أُسد الغابة» ج ٤ ، ص ٤٠ ، عن الفضل بن العبّاس بن عتبة بن أبي لهب ، أنشدها في رثاء أمير المؤمنين عليه السلام ، ولذلك فإنّ معنى البيت الثالث : * وَمَنْ جِبْرِيلُ عَوْنٌ لَهُ فِي الغَسْلِ وَالكَفَنِ * هو أنّ عليّاً كان الشخص الذي أعانه جبريل في تغسيل النبيّ صلّى الله عليه وآله وتكفينه . والغسل والكفن اسما مصدر أو مصدران ولهما معنى مجهول ومعنى الفعل المعلوم ، لأنّ الفضل بن العبّاس بن عتبة إمّا لم يكن مولوداً عند وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أو كان طفلاً وقتذاك . ونسب عبد الجليل القزوينيّ الرازيّ هذه الأبيات في كتاب «النقض» المعروف ب «بعض مثالب النواصب في نقض بعض فضائح الروافض» والمؤلّف حوالي سنة ٥٦٠ ه إلى خزيمة بن ثابت ذي الشهادتين الذي بلغت منزلته بين الصحابة درجة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله جعل شهادته شهادة رجلين . مضافاً إليها هذا البيت :

مَنْ ذَا الّذِي رَدّكُمْ عَنْهُ فَنَعْلَمَهُ

هَا إنّ بَيْعَتَكُمْ مِنْ أَغْبَنِ الغَبَنِ

نظمها عندما سمع ببيعة أبي بكر .

وقال المرحوم المحدّث الأُرمويّ في «تعليقة النقض» : نسب الشريف المرتضى هذه الأبيات في كتاب «الفصول المختارة» إلى ربيعة بن الحارث بن عبد المطّلب ، واختاره القاضي نور الله الشوشتريّ في المجلس الثالث من كتاب «مجالس المؤمنين» في ترجمة العبّاس بن عتبة بن أبي لهب .

وقال القاضي نور الله : «جاء في كتاب «الإصابة» أنّ والد العبّاس بن عتبة ، أي : عتبة ، مات كافراً بدعاء النبيّ . وترك ولده هذا ، أي : العبّاس الذي كان شابّاً عند وفاة النبيّ . وله ولد يدعى الفضل ، كان شاعراً مشهوراً . وهو صاحب القصيدة المشهورة في حقّ أمير المؤمنين ، ومطلعها : مَا كُنْتُ أَحْسِبُ ، إلى آخر الأبيات» .

ثمّ قال القاضي نور الله : «وقال البعض : إنّ هذه الأبيات لحسّان بن ثابت نظمها في أيّام حكومة أبي بكر قبل أن يستخلصه عثمان لنفسه ويبعده عن حبّ أمير المؤمنين بتفويض بيت المال إليه . وصرّح به القاضي البيضاويّ في تفسيره ، وغيره أيضاً . أقول : «ويعضد هذا أنّ الشيخ محمّد محيي الدين شيخ زادة ذكر في شرحه على تفسير البيضاويّ ، ج ٢ ، ص ١ هذه الأبيات ، ونقل البيت الثاني بهذه العبارة :

أَلَيْسَ أَوّلَ مَنْ صَلّى لِقِبْلَتِكُمْ
وَأَعْرَفَ النّاسِ بِالقُرْآنِ وَالسّنَنِ

١١٦) وقال : هذه الأبيات لحسّان بن ثابت الأنصاريّ» . والصواب هو أنّ هذه الأبيات لربيعة بن الحارث بن عبد المطّلب ، أنشدها عندما بويع أبو بكر ؛ كما نصّ على ذلك الشريف المرتضى علم الهدى في كتاب «المجالس» .

والقرينة على كذب نسبة هذه الأبيات إلى ابن العبّاس بن عتبة هي أنّ مضمون هذا المصرع : * مَا كُنْتُ أَحْسِبُ هَذَا الأَمْرَ مُنْصَرِفَاً * لا يقوله إلّا من كان موجوداً قبل انصراف الخلافة عن أمير المؤمنين ، فلا يحسب انصراف الخلافة عن الإمام . ويبدو أنّ العبّاس لم يكن مدركاً عند انصراف الخلافة ؛ على عكس حسّان الذي كان موجوداً على عهد النبيّ ، ولم يخطر على باله انصراف ذلك الأمر الخطير عن الأمير ، ولم يظنّه هكذا» ــ انتهى كلام القاضي نور الله .

ونسب سُلَيْم بن قيس الهلاليّ هذه الأبيات في كتابه إلى العبّاس بن عبد المطّلب في خبر طويل قال فيه : فَخَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ ، وَأَنْشَأَ العَبّاسُ يَقُولُ : مَا كُنْتُ أَحْسِبُ ــ إلى آخر الخبر .

ونقل المجلسيّ رحمة الله عليه هذا الحديث في الجزء الثامن من «بحار الأنوار» في باب غصب الخلافة (ج ٨ ،ص ٥٧ ، طبعة كمباني) . وما قاله صاحب «روضة الصفا» في أواخر الجزء الثاني من كتابه ضمن عرض أُمور وقعت في دومة الجندل فهو إشارة إلى هذا الكلام ، وتبيان لهذه الرواية . وفيما يلي نصّ كلامه :

«أمّا عديّ بن حاتم الطائيّ فقد عارض في هذا المجال وقال : لا يجوز القتال بدون إذن من الإمام . وشقّ ذلك كثيراً على أهل الحجاز والعراق ، لا سيّما على بني هاشم . وترنّم بالأبيات التي أنشدها العبّاس بن عبد المطّلب عند بيعة أبي بكر [وما كنت أحسب ... إلى آخرها] .

وأشار القاضي نور الله إلى هذا الموضوع في «مجالس المؤمنين» وذلك عندما قال في أوائل المجلس الثالث ، ترجمة العبّاس بن عبد المطّلب ، ص ٣٨ ، الطبعة الأُولى : ذكر صاحب «روضة الصفا» أنّ أبا بكر عندما غصب الخلافة من وحي جلافته ، أنشد العبّاس عدداً من الأبيات مضمونها : ما كنت أحسب ... إلى آخرها .

ونقل المجلسيّ في «البحار» (ج ٨ ، ص ٦٨) عن ابن أبي الحديد أنّه قال : قَالَ بَعْضُ وُلْدِ أَبِي لَهَب بْنِ عَبْدِ المُطّلِب : مَا كُنْتُ أَحْسِبُ ... إلى آخر الأبيات . وبالجملة فإنّ نسبة هذه الأبيات إلى خزيمة بن ثابت لم تثبت في مصدر من المصادر مع أنّ له أشعاراً في إمامة أمير المؤمنين عليه السلام ، إلّا أنّه غير هذا الشعر المذكور . («النقض» ص ٣٠ و ٣١) .

١١٧) يلتقي نسب أمير المؤمنين عليه السلام بنسب أبي سفيان عند عبد مناف بن قصيّ . فهو أبو الحسن : عليّ بن أبيطالب بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب بن مرّة . وأبو سفيان هو : حرب بن أُميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب بن مرّة . وعلى هذا فعليّ بن أبي طالب قرشيّ هاشميّ ، وأبو سفيان قرشيّ أَمويّ ، وكلاهما من أبناء عبد مناف الذي ولد له اثنان من أُمّ واحدة ، سمّى أحدهما هاشماً ، وسمّى الآخر عبد شمس ، فبنو هاشم من هاشم بن عبد مناف ، وبنو أُميّة من أُميّة حفيد عبد مناف . وعلى هذا فالطائفتان هما بنو أعمام . ويقول أبو سفيان في هذه الأبيات : يا عليّ ! إنّ جميع أبناء قصيّ ، سواء كانوا أبناء أُميّة أم هاشم حماة لك ومعزّزون .

١١٨) غَالِب بن فَهْر بن مالك بن النضر بن كنانة ، الجدّ الأعلى لمرّة بن كعب : مرّة بن كعب بن لؤيّ بن غالب . ولمّا كان أبو بكر ، وعمر من أبناء ويبتعد نسبهم كثيراً عن نسب بني هاشم وبني أُميّة ؛ لذلك يقول أبو سفيان : إنّ هذين الشخصين اللذين هما غير معروفين في العرب ، ونسبهما بعيد عن نسبنا ونسبكم ، لا ينبغي لهما الحكم ، بل ينبغي لبني هاشم أقارب رسول الله . ونرى هنا أنّ الذي يؤلم أبا سفيان هو رئاسة أفراد بعيدي النسب ؛ فلهذا يقول حكومة بني هاشم أفضل لنا من حكومة غيرهم ، لأنّهم من الأقرباء في النسب . ومن هذا المنطلق ، أراد بيعة أمير المؤمنين عليه السلام وتعبئة بني عبد مناف كافّة لمؤازرة الإمام ، وملء المدينة خيلاً ورَجلاً ، لا لأجل الله وإرضاءً للّه وإعلاءً لكلمة الإسلام والتوحيد والقرآن ؛ فعلى هذا نجد أنّ أمير المؤمنين يردّ طلبه ويرفض بيعته قائلاً له : أنت ما زلت تكيد للإسلام وتبغي له شرّاً !

١١٩) ذكر عبد الجليل القزوينيّ الرازيّ هذه الأبيات منسوبة إلى أبي سفيان بن حرب ، وذلك في كتاب «النقض» ص . ٣٠ وقال إنّه جاء إلى حجرة عليّ في يوم بيعة أبي بكر ، وأنشد هذه الأبيات بصوت عالٍ .

١٢٠) الآية ٢٥ ، من السورة ٨ : الأنفال .

١٢١) الإرشاد» للشيخ المفيد ، ص ١٠٤ و ١٠٥ ، الطبعة الحجريّة .

١٢٢) تاريخ اليعقوبيّ» ج ٢ ، ص ١٢٣ إلى . ١٢٦

١٢٣) أُمّ مسطح بنت أبي رُهْم بن المطّلب بن عبد مناف ، قرشيّة مطّلبيّة . واسم أبي رُهم : أنيس . وكانت بنت خالة أبي بكر ، وأُمّها بنت صخر بن عامر . وقيل : إنّ اسم أُمّها : بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرّة . («أُسد الغابة» ج ٥ ، ص ٦١٨ من الطبعة القديمة ، و ج ٧ ، ص ٣٩٣ من الطبعة الجديدة) .

١٢٤) نسب الطبرسيّ في «الاحتجاج» هذين البيتين مع ستّة أبيات أُخرى إلى السيّدة فاطمة الزهراء سلام الله عليها . أنشدتهما في آخر خطبتها المعروفة . ج ١ ، ص ١٤٥ ، طبعة النجف .

١٢٥) شرح نهج البلاغة» ج ٢ ، ص ٥٠ ، طبعة دار إحياء الكتب العربيّة .
١٢٦) الآية ٢٥ ، من السورة ٤٧ : محمّد .
١٢٦) الآية ٢٥ ، من السورة ٤٧ : محمّد .

الدرسان السادس عشر والسابع عشر بعد المائة: أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ميزان الأعمال الصالحة والسيّئة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وصلّى الله على محمّد وآله الطّاهرين
ولعنة اللّه على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين ولا حول ولا قوّة إلّا باللّه العليّ العظيم

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ * مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَأَتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَٰلَمِينَ . (١)

وجاء في «نهج البلاغة» ضمن خطبة خاطب بها أهل البصرة ، أنّ رجلاً قام أمامه ، وقال : يا أمير المؤمنين ، أخبرنا عن الفتنة ! وهل سألتَ رسول الله صلّى الله عليه وآله عنها ؟ فقال عليه السلام : لَمّا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ قَوْلَهُ : «الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» عَلِمْتُ أَنّ الفِتْنَةَ لَا تَنْزِلُ بِنَا وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ بَيْنَ أَظْهُرِنَا ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَا هَذِهِ الفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا ؟ فَقَالَ : يَا عَلِيّ ! إنّ أُمّتِي سَيُفْتَنُونَ مِنْ بَعْدِي . فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَوَ لَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مَنِ اسْتُشْهِدَ مِنَ المُسْلِمِينَ وَحِيزَتْ عَنّي الشّهَادَةُ فَشَقّ ذَلِكَ عَلَيّ فَقُلْتَ لِي : أَبْشِرْ فَإِنّ الشّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ ؟ فَقَالَ لِي : إِنّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إذاً ؟ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصّبْرِ وَلَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ البُشْرَى وَالشّكْرِ فَقَالَ : يَا عَلِيّ ! إنّ القَوْمَ لَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ وَيَمُنّونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبّهِمْ وَيَتَمَنّونَ رَحْمَتَهُ وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ وَيَسْتَحِلّونَ حَرَامَهُ بِالشّبُهَاتِ الكَاذِبَةِ وَالأَهْوَاءِ السّاهِيَةِ ، فَيَسْتَحِلّونَ الخَمْرَ بِالنّبِيذِ وَالسّحْتَ بِالهَدِيّةِ وَالرّبَا بِالبَيْعِ . قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! بِأَيّ المَنَازِلِ أُنْزِلُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ ؟ أَبِمَنْزِلَةِ رِدّةٍ أَمْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ ! فَقَالَ : بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ . (٢)

وروى الشيخ الطبرسيّ عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ معنى يُفْتَنُونَ [هو أنّ الناس] يبتلون في أموالهم وأنفسهم .

وروى أيضاً عن العيّاشيّ بسنده عن الإمام أبي الحسن الكاظم عليه السلام قال : جاء العبّاس إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له : امش حتّى يبايع لك الناس . فقال [له أمير المؤمنين عليه السلام] : أوَ تراهم فاعلين ؟ قال : نعم . قال : فأين قوله عزّ وجلّ :

الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ... الآية . (٣)

وروى الملّا محسن الفيض الكاشانيّ ، مضافاً إلى هذه الرواية ، ورواية «نهج البلاغة» عن رسول الله ، قال : لمّا نزلت هذه الآية قال : لابدّ من فتنة تبتلي بها الأُمّة بعد نبيّها ليتعيّن الصادق من الكاذب ، لأنّ الوحي قد انقطع ، وبقي السيف وافتراق الكلمة إلى يوم القيامة . (٤)

ونقل السيّد هاشم البحرانيّ رضوان الله عليه في «غاية المرام» أربع روايات عن طريق العامّة ، وخمس روايات عن طريق الخاصّة : جاء عن رسول الله والأئمّة المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين في تفسير هذه الآية المباركة المذكورة أنّ الله يفتن الناس في ولاية أمير المؤمنين عليه السلام واتّباعه . ومن هذه الروايات : عن ابن شهرآشوب ، عن أبي طالب الهرويّ بإسناده عن علقمة وأبي أيّوب أنّه فما نزل قوله:

الم * أَحَسِبَ النَّاسُ [إلى آخر] الآيات ، قَالَ النَّبِيّ صَلَّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِعَمَّارٍ : إنّهُ سَيَكُونُ مِنْ بَعْدِي هَنَاةٌ ، حَتَّى يَخْتَلِفَ السَّيْفُ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَحَتَّى يَقْتُلَ بَعْضُهُمْ بَعْضَاً ، وَحَتَّى يَتَبَرّأَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ . فَإذَا رَأَيْتَ ذَلِكَ فَعَلَيْكَ بِهَذَا الأَصْلَعِ عَنْ يَمِينِي عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، فَإنْ سَلَكَ النَّاسُ كُلُّهُمْ وَادِيَاً فَاسْلُكْ وَادِيَ عَلِيّ ، وَخَلِّ عَنِ النَّاسِ .

يَا عَمَّارُ ! إنّ عَلِيّاً لَا يَرُدُّكَ عَنْ هُدَى ، وَلَا يَرُدُّكَ إلَى رَدَى . يَا عَمَّارُ ! طَاعَةُ عَلِيّ طَاعَتِي ، وَطَاعَتِي طَاعَةُ اللَهِ . (٥)

ومنها عن طريق العامّة أيضاً في قوله تعالى : الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ، قَالَ عَلِيّ عَلَيهِ السَّلَامُ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَهِ ! مَا هَذِهِ الفِتْنَةُ ؟ قَالَ يَا عَلِيّ ! بِكَ ، وإنّكَ المُخَاصَمُ ، فَأَعِدّ لِلْخُصُومَةِ ! وَقَالَ عَلِيّ عَلَيْهِ السَّلَامُ «ثُمّ أَوْرَثْنَا الْكِتبَ الّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا» نَحْنُ أُولَئِكَ . (٦)

ومنها عن طريق الخاصّة ، عن عليّ بن إبراهيم في تفسيره قال : حدّثني أبي عن محمّد بن الفضيل ، عن أبي الحسن [موسى بن جعفر] عليهما السلام قال : جاء العبّاس إلى أمير المؤمنين عليه السلام وقال : انطلق يبايع لك الناس . فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : أتراهم فاعلين ؟ قال : نعم .

فقال [الإمام] : فأين قول الله:

الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ (أي : اخْتَبَرْنَاهُمْ) فَلَيَعْلَمَنّ اللَهُ الّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنّ الْكَذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ * مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ اللَهِ فَإنّ أَجَلَ اللَهِ لَأَتٍ ... ؟!

قال الله : من أحبّ لقاء الله ، جاءه الأجل ؛ ومن جاهد نفسه عن اللذات والشهوات والمعاصي ، فإنّما يجاهد لنفسه ؛ إنّ الله لغنيّ عن العالمين . (٧)

ومنها عن محمّد بن العبّاس ، عن أحمد بن هُوذة ، عن إبراهيم بن إسحاق ، عن عبد الله بن حمّاد ، عن سماعة بن مهران ، قال : قَالَ [٨] رَسُولُ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : كَانَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي المَسْجِدِ ، فَلَمّا كَانَ قُرْبُ الصّبْحِ ، دَخَلَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السّلَامُ فَنَادَاهُ رَسُولُ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ فَقَالَ : يَا عَلِيّ ! قَالَ : لَبّيْكَ . قَالَ : هَلُمّ إلَيّ . فَلَمّا دَنَا مِنْهُ قَالَ : يَا عَلِيّ ! بِتّ اللّيْلَةَ حَيْثُ تَرَانِي ، فَقَدْ سَأَلْتُ رَبّي أَلْفَ حَاجَةٍ فَقَضَاهَا لِي ؛ وَسَأَلْتُ لَكَ رَبّي أَنْ يَجْمَعَ لَكَ أُمّتِي مِنْ بَعْدِي ؛ فَأَبَى عَلَيّ رَبّي ، فَقَالَ : الم * أَحَسِبَ النّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . [٩]

ومنها عن الحسين بن عليّ ، عن أبيه عليهما السلام ، قال : لَمّا نَزَلَتْ : «الم * أَحَسِبَ النّاسُ» فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَهِ ! مَا هَذِهِ الفِتْنَةُ ؟ قَالَ : يَا عَلِيّ ! إنّكَ مُبْتَلَى وَمُبْتَلَى بِكَ ؛ وَإنّكَ مُخَاصَمٌ ، فَأَعِدّ لِلْخُصُومَةِ . [١٠]

ولمّا غصبت الخلافة من أمير المؤمنين عليه السلام بعد وفاة النبيّ الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم تعرّض الناس لفتنة عظيمة ، وكانت حقّاً فتنة عظيمة ومليئة بالأخطار .

ونهضت ثلّة من الصحابة المناصرة لأمير المؤمنين عليه السلام وعددهم ليس قليلاً . كما نهضت ثلّة لمناصرة مناوئيه ، ودار نقاش كثير ؛ وبلغ الأمر أنّ عدداً من الصحابة الكبار ذهبوا إلى المسجد ، وناقشوا أبا بكر بحضور الناس ؛ فلم يحر جواباً ، ونزل من المنبر ، وذهب إلى داره . وكانت الفوضى تعمّ المدينة ثلاثة أيّام . إلى أن جلب عمر أبا بكر إلى المسجد . وانتدب عثمان ، والمغيرة بن شعبة ، ومُعاذاً ومع كلّ واحد منهم مسلّح ، لحماية أبي بكر ، فشهر هؤلاء سيوفهم متأهّبين للذبّ عن أبي بكر .

فلو نهض أمير المؤمنين عليه السلام ومعه المخلصون من الصحابة للمطالبة بحقّه ، وشهر سيفه لاسترجاع حقّه المغتصب ، فلا ريب أنّ الدماء ستراق من الطرفين ، وستثار الاضطرابات وأعمال الشغب في المدينة بمجرّد وفاة النبيّ ، وتبقى الاشتباكات حامية مدة طويلة ، ويستغلّ الكفّار والمشركون الفرصة وهم الذين كانوا يتربّصون الدوائر بالإسلام وأهله لإضعاف شوكة الدين ، وتتّسع شقّة الارتداد عن الدين إلى الجاهليّة الأُولى ، وبالتالي ، ينعى الإسلام ناعوه ، وتذهب جهود الرسول الأعظم أدراج الرياح .

فلهذا عمل أمير المؤمنين عليه السلام بوصيّة رسول الله ، إذ أوصاه أن لا يشهر سيفه إن لم يجد العدد الكافي من الناصرين له ، ولم يقدر على حسم الأُمور حالاً ، ورأى المدينة غارقة في الاضطراب والفوضى . فصبر صلوات الله عليه على تلك المصائب الفادحة صبراً عبّر عنه أنّه أَمَرّ مِنَ العَلْقَمِ ، [١١] وذلك من أجل حفظ الإسلام ، وإلّا لو أُريقت الدماء ، وقُتِل القرّاء والصحابة الكبار في تلك الاشتباكات والصراعات ، لما كان هناك شيء يذكر ، ولما ظلّ للإسلام أثر في العالم إلّا ما يقال إنّه كان حدثاً تأريخيّاً جزئيّاً ظهر وزال وامّحى أثره .

ويمكننا حقّاً أن نتلمّس شجاعة أمير المؤمنين عليه السلام وشهامته وسخاءه وعقله وحزمه وإيثاره وعبوديّته الخالصة للّه في هذا اللون من الصبر والتحمّل ، ونفهم جيّداً أنّ هذا العمل أعظم وأضخم من ألف سيف كان يضرب به يوم بدر ، وأُحد ، والأحزاب ، وحُنين . وهذا هو مقام وليّ الله إذ آثر رضا محبوبه على هوى نفسه .

جاء في كتاب «بعض فضائح الروافض» ضمن بيان الفضيحة الخمسين ما نصّه : لو كان رسول الله نصّ على عليّ بالخلافة كما تزعم الشيعة ، لما غاب ذلك عن نساء النبيّ ، وابن عبّاس ، وأبي ذرّ ، وسلمان ، وعمّار ــ الذين يحتجّ بهم الرافضة ــ ولقالوا ذلك اليوم : ما خطبكم ؟! لقد نصّ رسول الله على عليّ بالخلافة ، وهذا كلامه . فلم تتنازعون في الخلافة ؟

كيف أخفوا ذلك النصّ مع ما عليه من الوضوح والإشراق ؟! وكيف خافوا كلّهم من أبي بكر وعمر ؟ وكيف نسوا قول الله ورسوله ، وحجبوا عين الشمس ؟ وكيف خافوا من ابن أبي قحافة التيميّ ، وابن الخطّاب ؟ وهل ما رآه أبو جعفر بن بابويه ، وأبو جعفر الطوسيّ الحيران ، وشيطان الطاق ، ويونس بن عبد الرحمن الرافضيّ بعد مضيّ خمسمائة سنة لم يره الصحابة الأطهار ؟ أو أنّهم رأوه ، وأخفوه ؟ وهل عجز عليّ ، والعبّاس وجميع بني هاشم من ذلك ؟ وشهدت أُمّ سلمة وآخرون عليه ؟! (١٢)

ونجد الجواب عن هذه الشبهة مفصّلاً في كتاب «نقض مثالب النواصب» لابن أبي الحسين بن أبي الفضل القزوينيّ الرازيّ الذي ردّ فيه على كتاب «فضائح الروافض» في نفس الفترة التي صدر فيها الكتاب المذكور ، وصاحبه كان لا يزال حيّاً . (١٣) ويضمّ الكتاب المشار إليه جميع هذه الأُمور والإشكالات التي حوتها كتب أهل السنّة ، وبخاصّة الحنابلة ، هي مثبّتة في المكتبات .

وننقل فيما يلي عبارات الكتاب نصّاً ، مع أنّي ترجمت بعض العبارات العربيّة الواردة في الكتاب إلى الفارسيّة لقرّاء الفارسيّة . أمّا سائر العبارات فأنقلها كما هي بدون أدنى تغيير .

ذكر صاحب الكتاب في البداية بعض الموضوعات ، إلى أن قال : ... والأخبار في إمامة أمير المؤمنين عليه السلام وولايته وفرض طاعته وقربته وقرابته وسخائه وفضله وجهاده وأُخوّته ومناقبه هي أكثر من أن يرويها سنّيّ أو حنفيّ أو شيعيّ . وهي لا تخفى ولا تبطل بقول خارجيّ أو ناصبيّ مبتدع حتّى لو كان عددهم مائة ألف . وعلى الطالب المتتبّع أن يبذل قصارى جهده ويصطبر فيذهب إلى مكتبات ساوة ، وهمدان ، وقزوين ، وإصفهان حيث لا يجد فيها رافضيّاً ، ويسمع من رواة السنّة الثقاة ، ليعلم أنّ هذه الأخبار ليست من مبتدعات أبي جعفر بن بابويه ، ولا من ذخائر أبي جعفر الطوسيّ . لعن الله أعداءهما ، وأعداء الشريف المرتضى والمفيدين مائة ألف مرّة .

والأخبار بالأسناد المذكورة مسطورة في كتب الأئمّة ، لا هي خرافات ، ولا تُرّهات ؛ رضي بها الأئمّة كلّهم ، وزكّاها أصحاب الحديث جميعهم ، ثكلت النواصب أُمّهاتهم . لا يختدمون عقولهم ، ويجهلون أنّ الإمامة تتعيّن بالنصّ . أفلا يقرأون القرآن إذ يحصر الإمامة بالمعصوم ؟ أفلا يلاحظون الأخبار التي تؤكّد على أنّ الإمام ينبغي أن يكون أعلم الأُمّة بأحكام الشريعة .

ونجيب على ما أثاره من شبهة تتمثّل بقوله : لمّا توفّي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم تحدّث الصحابة في الخلافة ؛ وذلك أظهر من الشمس ، ولو كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم نصّ على عليّ بالخلافة ، فَلِمَ لَمْ ينكر الصحابة بيعة أبي بكر ، ولم يقولوا : الحقّ مع عليّ ، وقد نصّ رسول الله ، وهم كانوا حاضرين في المسجد يوم البيعة ؟ أيّ عمل هذا ؟! ونقول :

أوّلاً : يبيّن لنا هذا القائل مرّة أُخرى أنّه أعمى من غيره بالحساب ، وأجهل منه بأحوال يوم السقيفة . ولو علم بذلك لقال . ونحن نجيب عن هذه الشبهة بمقدار الضرورة . والحقيقة التي ننقلها من الكتب والآثار هي أوضح من الشمس . والروايات في ذلك متنوّعة . منها ما رواه بعض الثقات المعروفين عن عليّ بن جعفر الاهر مروانيّ ، قال : لمّا بويع أبو بكر في سقيفة بني ساعدة وفد عدد من المهاجرين والأنصار وكبراء أهل البيت على أمير المؤمنين عليه السلام ، وقالوا جميعهم : يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ! تَرَكْتَ حَقّاً أَنْتَ أَوْلَى بِهِ مِنْ هَذَا الرّجُلِ ، وَقَدْ أَرَدْنَا أَنْ نُنْزِلَهُ عَنْ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلهِ وَسَلّمَ .

واستأذنوه . ثمّ ذهبوا إلى المسجد ، وكان أبو بكر على المنبر . فقام المهاجرون في البداية على هذا النسق ، وتحدّثوا بحضور بضعة آلاف ، وأنكروا على أبي بكر بيعته .

وأوّل من قام وتكلّم هو خالد بن سَعيد بن العاص قال بصوت عال بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على نبيّة المصطفى : يَا أَبَا بَكْرٍ ! اتّقِ اللهَ وَانْظُرْ مَا تَقَدّمَ لِعَلِيّ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : أَمَا عَلِمْتَ أَنّ النّبِيّ قَالَ لَنَا فِي يَوْمِ بَنِي قُرَيْظَةَ ــ وَقَدْ قَتَلَ عَلِيّ عِدّةً مِنْ رِجَالِهِمْ وَأُولِي النّجْدَةِ مِنْهُمْ ــ :

مَعَاشِرَ النّاسِ ! أُوصِيكُمْ بِوَصِيّةٍ فَاحْفَظُوهَا ، وَمُودِعٌ إِلَيْكُمْ سِرّاً فَلَا تُضَيّعُوهُ : أَلَا وَإِنّ عَلِيّاً إِمَامُكُمْ مِنْ بَعْدِي ، وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ ، بِذَلِكَ أَوْصَانِي جَبْرَئِيلُ عَنْ رَبّي .

أَلَا وَإِنْ لَمْ تَحْفَظُونِي فِيهِ ، وَتُوَازِرُوهُ وَتَنْصُرُوهُ اخْتَلَفْتُمْ فِي أَحْكَامِكُمْ ، وَاضْطَرَبَ عَلَيْكُمْ أَمْرُ دِينِكُمْ ، وَوَلِيَ عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ ! أَخْبَرَنِي جَبْرَئِيلُ عَنْ رَبّي .

أَلَا وَإِنّ أَهْلَ بَيْتِي هُمُ الوَارِثُونَ لِأَمْرِي ، وَالقَائِمُونَ بِأَمْرِ أُمّتِي . اللّهُمّ فَمَنْ أَطَاعَهُمْ مِنْ أُمّتِي وَحَفِظَ فِيهِمْ وَصِيّتِي [فَاحْشُرْهُمْ فِي زُمْرَتِي ، وَاجْعَلْ لَهُمْ نَصِيباً مِنْ مُرَافَقَتِي يُدْرِكُونَ بِهِ نُورَ الآخِرَةِ . اللّهُمّ وَمَنْ أَسَاءَ خِلَافَتِي فِي أَهْلِ بَيْتِي فَاحْرِمْهُ] الجَنّةَ الّتِي عَرْضُهَا السّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدّتْ لِلْمُتّقِينَ .

فالكلام الذي يتّسم بهذه النبرة والقوّة والبلاغة ، ويفهم تفسيره النابهون العارفون ، وهو منقول في ذلك التجمّع عن كلام مشفوع بالحجّة من كلام المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم ردّ على بيعة أبي بكر . فما ظنّك ؟ إنّ الخواجة الناصبيّ قلّما يقبل ما لا يتلاءم وذوقه . حتّى قام عمر بن الخطّاب ، وقال : اسْكُتْ يَا خَالِدُ ! فَلَسْتَ مِنْ أَهْلِ المَشُورَةِ . فأجابه خالد قائلاً : بَلِ اسْكُتْ أَنْتَ يَا بْنَ الخَطَّابِ ، فَوَ اللَهِ مَا لَكَ فِي قُرَيْشٍ مُفْتَخَرٌ . فجلس عمر .

وقام بعده أبو ذرّ الغفاريّ

فحمد الله تعالى ، وأثنى على نبيّه المصطفى صلّى الله عليه وآله ، وقال : يَا مَعَاشِرَ قُرَيْشٍ ! قَدْ عَلِمْتُمْ وَعَلِمَ أَخْيَارُكُمْ أَنّ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ قَالَ الأَمْرُ مِنْ بَعْدِي لِعَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، ثُمّ لِلْحَسَنِ ، ثُمّ لِلْحُسَيْنِ ، ثُمّ لِلأَئِمّةِ مِنْ وُلْدِ الحُسَيْنِ فَتَرَكْتُمْ قَوْلَهُ ، وَنَبَذْتُمْ أَمْرَهُ وَوَصِيّتَهُ ؛ وَكَذَلِكَ تَرَكَتِ الأُمَمُ الّتِي كَفَرَتْ بَعْدَ أَنْبِيَائِهَا فَغَرّتْ وَبَدّلَتْ ، فَحَاذَيْتُمُوهَا حَذْوَ النّعْلِ بِالنّعْلِ وَالقُذّةِ بِالقُذّةِ ، وَعَمّا قَلِيلٍ تَذُوقُونَ وَبَالَ أَمْرِكُمْ وَجَزَاءَ مَا قَدْ قَدّمَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَأَنّ اللهَ لَيْسَ ظَلّاماً لِلعَبِيدِ .

ثمّ جلس . فما ظنّك ؟ هل هو كلام أبي جعفر ، أو كلام الشيخ المفيد ؟ لا هذا ولا ذاك ! بل هو كلام أبي ذرّ الصحابيّ المعروف . حتّى لا يقول الخواجة الناصبيّ : لِمَ لَمْ ينكروا ، ولم يقيموا الحجّة ؟ إنّ الخواجة أعمى وأصمّ .

وقام بعده سلمان الفارسيّ

وقال بعد أن حمد الله تعالى وأثنى على حبيبه المصطفى صلّى الله عليه وآله :

يَا أَبَا بَكْرٍ إِلَى مَنْ تُسْنِدُ أَمْرَكَ إِذَا نَزَلَ بِكَ القَضَاءُ ! وَإِلَى مَنْ تَنْزَعُ إذَا سُئِلْتَ عَمّا لَا تَعْلَمُ [مَا عُذْرُكَ فِي التّقَدّمِ] وَفِي القَوْمِ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ ! وَأَقْرَبُ بِرَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ قَرَابَةً مِنْكَ . قَدّمَهُ النّبِيّ فِي حَيَاتِهِ ، وَأَوْعَزَ إِلَيْكُمْ عِنْدَ وَفَاتِهِ ، فَنَبَذْتُمْ قَوْلَهُ ، وَتَنَاسَيْتُمْ وَصِيّتَهُ ! فَعَمّا قَلِيلٍ يَصْفُرُ لَكَ الأَمْرُ وَقَدْ أَثْقَلْتَ ظَهْرَكَ بِالأَوْزَارِ ، وَحَمَلْتَ إِلَى قَبْرِكَ مَا قَدّمَتْ يَدَاكَ ، فَإِنّكَ سَمِعْتَ مَا سَمِعْنَا ، وَرَأَيْتَ مَا رَأَيْنَا ــ إلى آخره . (١٤)

بعد ذلك قام المقداد بن الأسود الكنديّ ، وقال :

يَا أَبَا بَكْرٍ ! إِرْبَعْ عَلَى ظَلْعِكَ [وَقِسْ شِبْرَكَ (١٥) بِفِتْرِكَ] وَالْزَمْ بَيْتَكَ ! وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ ! وَارْدُدْ هَذَا الأَمْرَ[إِلَى] مَنْ هُوَ أَحَقّ بِهِ مِنْكَ ! فَلَا تَغْتَرِرْ بِدُنْيَاكَ ! وَلَا تُغْرِرْكَ قُرَيْشٌ [وَغَيْرُهَا] فَعَمّا قَلِيلٍ تَضْمَحِلّ عَنْكَ دُنْيَاكَ ! وَتَصِيرُ إِلَى آخِرَتِكَ ! وَقَدْ عَلِمْتَ أَنّ عَلِيّاً صَاحِبُ هَذَا الأَمْرِ ، فَأَعْطِهِ مَا جَعَلَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ لَهُ فَإِنّ ذَلِكَ خَيْرٌ [لَكَ] فِي دُنْيَاكَ ، وَأَسْلَمُ لَكَ فِي آخِرَتِكَ !

وسكت . ثكلت النواصب أُمّهاتهم . فهذا كلام في غاية البلاغة ، زاخر بالنصيحة والموعظة ، وليس هو كلام رافضة ورامين [مدينة من مدن إيران] . فليعلم أنّ الحقّ بحمد الله ظاهر ، وكان بيّناً وظاهر ، والحجّة ثابتة ، وعليّاً عليه السلام هو الإمام .

وقام بعده بُرَيدَةُ الأَسْلَمِيّ رحمة الله عليه

وقال بعد حمد الله ، والثناء على نبيّه المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم :

يَا أَبَا بَكْرٍ أَنَسِيتَ أَمْ تَنَاسَيْتَ ؟! أَمَا عَلِمْتَ أَنّ النّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ أَمَرَنَا أنْ نُسَلّمَ عَلَى عَلِيّ بِإمْرَةِ المُؤْمِنِينَ فِي حَيَاتِهِ ، فَسَلّمْنَا عَلَيْهِ وَأَنْتَ مَعَنَا وَالنّبِيّ يَتَهَلّلُ وَجْهُهُ فَرَحَاً لِمَا يَدْرِي مِنْ طَاعَةِ أُمّتِهِ لابْنِ عَمّهِ ؟ فَلَوْ عَمِلْتُمْ بَعْدَ وَفَاتِهِ لَكَانَ خَيْرَاً لَكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ وَآخِرَتِكُمْ ، وَقَدْ سَمِعْتَ مَا سَمِعْنَا ، وَرَأَيْتَ مَا رَأَيْنَا ، وَالسّلَامُ .

فليعلم النّاصِبِيّ المُبْطِل أنّ هذا الكلام المشفوع بالحجّة ، المنطوق به أمام أبي بكر يوم البيعة ليس كلام رافضة ساري وإرَمْ ، لئلّا ينكره ، ويصحر بعداء عليّ المرتضى عليه السلام .

تلاه عمّار بن ياسر ، إذ قام

وقال بعد حمد الله وثنائه ، وتمجيد نبيّه المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم :

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ! قَدْ عَلِمْتُمْ أَنّ أَهْلَ بَيْتِ نَبِيّكُمْ أَقْرَبُ بِرَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ قَرَابَةً مِنْكُمْ ! فَرُدّوا هَذَا الأَمْرَ إِلَى مَنْ هُوَ أَحَقّ بِهِ مِنْكُمْ ! وَلَا تَرْتَدّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ .

أظنّ أنّ كلاماً كهذا ليس كلام الحسكانيّ ، وأبي طالب بن بابويه ، قالاه بعد مضي خمسمائة سنة . بل هو كلام إنسان قاله في اليوم الأوّل الذي رقى فيه أبو بكر المنبر ؛ فالحقّ مع حيدر الكرّار .

وأعقبه قَيس بن سَعْد بن عُبَادة فقام

وقال ، بعد أن حمد الله ، وصلّى على الحبيب المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم :

يَا أَبَا بَكْرٍ ! اتّقِ اللهَ ، وَانْظُرْ مَا تَقَدّمَ لِعَلِيّ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ ! وَارْدُدْ هَذَا الأَمْرَ إِلَى مَنْ هُوَ أَحَقّ بِهِ مِنْكَ ! وَلَا تَكُنْ أَوّلَ مَنْ عَصَى مُحَمّدَاً صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ ! وَارْدُدْ هَذَا الأَمْرَ إِلَيْهِمْ ، تَخِفّ ذُنُوبُكَ ، وَتَقِلّ أَوْزَارُكَ ؛ وَتَلْقَى مُحَمّدَاً صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ وَهُوَ رَاضٍ عَنْكَ أَحَبّ إِلَيّ مِنْ أَنْ تَلْقَاهُ وَهُوَ عَلَيْكَ سَاخِطٌ !

قال كلاماً مطوّلاً لم يحتمله المقام قطّ . وتفصيل ذلك كلّه حجّة ودلالة على إمامة المرتضى عليه السلام ، وإنكار بيعة غيره . أحسب أنّه ليس من [بنات أفكار] الغالين ، وشيطان الطاق ، ويونس بن عبد الرحمن . إنّه كلام المهاجرين والأنصار .

وقام بعده خُزَيْمَة بنَ ثَابِت ذو الشّهَادَتَين ، وقال :

مَعَاشِرَ النّاسِ ! أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنّ النّبيّ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ قَبِلَ شَهَادَتِي وَحْدِي وَلَمْ تَزِدْ مَعِي غَيْرِي ؟ قَالُوا : بَلَى ، فَاشْهَدْ بِمَا تَشْهَدُ ! قَالَ : أَشْهَدُ عَلَى رَسُولِ اللهِ أَنّهُ قَالَ : أَهْلُ بَيْتِي كَالنّجُومِ ، فَقَدّمُوهُمْ ، فَإِنّكُمْ إِنْ قَدّمْتُمُوهُمْ [سَلَكُوا بِكُمْ طَرِيقَ الهُدَى ، وَإِنْ تَقَدّمْتُمُوهُمْ] سَلَكْتُمْ طَرِيقَ الضّلَالَةِ . ثُمّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ : عَلِيّ فِيكُمْ كَسَفِينَةِ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا ، وَمَنْ تَخَلّفَ عَنْهَا غَرِقَ . وَعَلِيّ فِيكُمْ كَهَارُونَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ [خَلّفْتُهُ عَلَيْكُمْ] كَمَا خَلّفَهُ مُوسَى عَلَى قَوْمِهِ وَمَضَى إِلَى مُنَاجَاةِ رَبّهِ .

أظنّ أنّ الخواجة يقبل شهادة خُزَيْمة وإن كانت زوراً . بينما نقرأ أنّ القاضي حسن الاسترابادي ما كان يقبل شهادة الشيعة . والحبيب المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم قاضي الدنيا والآخرة ، كان وحده يقبل شهادة خزيمة الشيعيّ ــ على رغم أنف الخواجة الناصبيّ ــ وعند ذاك تزول هذه الشبهة .

وقام بعده أُبَي بنُ كَعْب ، وقال :

مَعَاشِرَ النّاسِ ! إِنّي لَأَعِظُكُمْ * بِمَا كَثِيراً مَا وَعَظَكُمْ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ وَلَا تَسْمَعُونَ مِنّي إِلّا أَكْبَرَ مَا سَمِعْتُمْ مِنْ نَبِيّكُمْ (١٦) * اشْهَدُوا عَلَى أَنّي أَشْهَدُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ أَنّي رَأَيْتُهُ وَهُوَ وَاقِفٌ فِي هَذَا المَكَانِ وكَفَّ عَلِيّ فِي كَفّهِ وَهُوَ يَقُولُ : هَذَا إِمَامُكُمْ مِنْ بَعْدِي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ ، فَقَدّمُوهُ وَلَا تُقَدّمُوهُ ! وَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا . فَإِنّكُمْ إِنْ أَطَعْتُمُوهُ دَخَلْتُمُ الجَنّةِ ، وَإِنْ عَصَيْتُمُوهُ دَخَلْتُمُ النّارَ !

فعلى الخواجة أن يعلم أنّ الصحابة لم يغفلوا عن كلام بليغ مبالغ فيه كهذا الكلام الدالّ على تعيين عليّ عليه السلام والإنكار على القوم .

وقام بعده سَهْل بن حُنَيْف الأنصاريّ ، وقال :

يَا مَعَاشِرَ النّاسِ ! سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ يَقُولُ : عَلِيّ إِمَامُكُمْ مِنْ بَعْدِى وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ ، [بِذَلِكَ] أَوْصَانِي جَبْرَئِلُ عَنْ رَبّي . أَلَا إِنّ عَلِيّاً هُوَ الذّائِدُ عَنْ حَوْضِي يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَهُوَ قَسِيمُ النّارِ وَالجَنّةِ ؛ يُدْخِلُ الجَنّةَ مَنْ أَحَبّهُ وَتَوَلّاهُ ، وَيُدْخِلُ النّارَ مَنْ أَبْغَضَهُ وَقَلَاهُ .

تكلّم المهاجرون والأنصار بهذا الكلام الصائب البليغ على رؤوس الأشهاد [لإثبات إمامة] أمير المؤمنين عليه السلام وإنكار إمامة غيره ؛ حتّى يعلم الخواجة أنّ مذهب أهل البيت عليهم السلام عريق صائب في أعماق التأريخ ، وليس من مبتدعات الجَهْم بن صَفْوان ، ولا من وضع هذا وذاك ، ولا هو كمذهب الخوارج والنواصب .

وقام بعده أبو الهَيْثَم بنُ التّيّهان رحمة الله عليه وقال :

يَا مَعَاشِرَ النّاسِ ! اشْهَدُوا عَلَى أَنّي أَشْهَدُ عَلَى رَسُولِ الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ أَنّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ .

ولمّا سمع الأنصار هذا الكلام من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قالوا : يريد بذلك الخلافة ؛ وقالت قريش : يريد الموالاة .

وحينما علم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بذلك الخلاف ؛ خرج من الحجرة عند الصبح ، وأخذ بيد عليّ ، وقال : مَعَاشِرَ النّاسِ ! إنّ عَلِيّاً فِيكُمْ كَالسّمَاءِ السّابِعَةِ فِي السّمَاوَاتِ . وَعَلِيّ فِيكُمْ كَالشّمْسِ فِي الفَلَكِ ، بِهَا تَهْتَدِي النّجُومُ . وَعَلِيّ إمَامُكُمْ وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ ؛ بِذَلِكَ أَوْصَانِي جَبْرَئِيلُ عَلَيْهِ السّلَامُ عَنْ رَبّي ؛ وَأَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَهُ عَلَى أَهْلِ السّمَاوَاتِ وَالأَرَضِينَ مِنَ الجِنّ وَالإنْسِ وَالمَلَائِكَةِ ؛ فَمَنْ أَقَرّ بِهِ وَآمَنَ بِهِ كَانَ مُؤْمِناً [وَهُوَ] فِي الجَنّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ ؛ وَمَنْ أَنْكَرَهُ وَجَحَدَهُ كَانَ كَافِراً [وَهُوَ] فِي النّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ ... إلى آخره . هذا كلام رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وناقله أبو الهَيْثَم ، إذ قاله بحضور أبي بكر ، وعمر ، وكافّة المهاجرين والأنصار . وفيه دلالة على تعيين عليّ عليه السلام بالنصّ وعلى إمامته . ولم يكن من مبتدعات رافضة قم وكاشان ؛ حتّى يعلم الخواجة أنّه كان نصّاً بيّناً جليّاً ، وليس عملاً مكتوماً مخفيّاً .

وقام بعده أبو أيّوب الأنصاريّ

وقال بعد أن حمد الله وأثنى على الحبيب المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم : يَا مَعَاشِرَ النّاسِ ! أَقُولُ : اتّقُوا اللّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِ نَبِيّكُمْ فَلَا تَظْلِمُوهُمْ فَقَدْ سَمِعْتُمْ مَا أَعَدّ اللّهُ لِلظّالِمِينَ [فَإنّهُ كَمَا قَالَ «إنّآ أَعْتَدْنَا لِلظّالِمِينَ] نَارًا أَحَاطَ بِهَا سُرَادِقُهَا» ؛ ثُمّ قَالَ : «إنّ الّذِينَ [يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إنّمَا] يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا» .

ولمّا بلغ الكلام هذا الموضع ، ضجّ أهل المسجد بالبكاء والعويل ، وخرجوا من المسجد جميعهم على غرّة . وتسمّر أبو بكر على المنبر حائراً . وجاء أبو عُبَيدة بن الجرّاح ومعه جماعة فأخذ أبا بكر إلى البيت ، وماجت المدينة بالفتن والقلاقل ثلاثة أيّام . وفي اليوم الثالث جاء عثمان بن عفّان ، والمغيرة بن شعبة ، ومعاذ بن جبل ، ومع كلّ واحد منهم مائة رجل ، وشهروا سيوفهم متأهّبين للقتال . (١٧)

ولمّا كان مصنّف الكتاب يزعم أنّه عالم بالتأريخ ، فلا ينبغي له أن يغفل عن هذه الواقعة . وفي ذلك الحشد الغفير أخذ عمر بن الخطّاب بيد أبي بكر ، وأتى به إلى المسجد ، وهدّد تلك الثلّة التي تحدّثت أمس الأوّل وعرضت حججها الدامغة التي لا مراء فيها ، حتّى قام خَالِد بن سَعيد بن العاص مرّة أُخرى ، وقال : يَا عُمَرُ ! أَفَبِأَسْيَافِكُمْ تُهَدّدُونَا ؟ أَمْ بِجَمْعِكُمْ تُفَزّعُونَا ؟ وَاللّهِ لَوْلَا أَنّي أَعْلَمُ أَنّ طَاعَةَ إمَامِي أَوْجَبُ مِنْ جِهَادِ عَدُوّي إذاً لَضَرَبْتُكُمْ بِسَيْفِي هَذَا !

ثُمّ قال : إئْذَنْ لِي يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ فِي جِهَادِ أَعْدَائِكَ !

بَيْدَ أنَ أمير المؤمنين عليه السلام لم يأذن له وأجلسه وهدّأه مراعاة للمصلحة ، وإبلاغاً للحجّة ، وخشية من أعداء الدين ، وخوفاً من خطر المشركين واليهود والمجوس

والنصارى ، ولأنّهم كانوا قريبي عهد بوفاة الحبيب المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم . واقتدى في عمله هذا بالأنبياء إذ صبروا منذ اليوم الأوّل الذي بدأوا فيه عملهم . ثمّ قام كلّ واحد من أُولئك العظام المشار إليهم ، وتحدّثوا بلهجة حادّة ، يطول بنا المقام في ذكر التفاصيل ، وإن كان كلّ ما قالوه حقّاً لا غبار عليه .

طلب أمير المؤمنين عليه السلام من الجميع أن يسكتوا . وطاعته واجبة عليهم ، فأطاعوه وجلسوا ساكتين . غير أنّهم كانوا قد قاموا بواجبهم في بيان حقّه في الخلافة بالدليل والحجّة . وهل يظنّ الخواجة أنّ هذا العمل قليل ، وأنّه مذهب مبتدَع ، وأنّ الحقّ يبطل بكلام شِرذمة من الخوارج والناصبين والمبتدعين والضالّين ؟

نحمد الله أنّ عليّ المرتضى عليه السلام لم يتّق ولم يداهن ، وكذلك العبّاس ، وصحابة أمير المؤمنين .

أوّلاً : انّ أوّل دليل على تعيين عليّ عليه السلام بالنصّ هو العقل . فالعقل يحكم بعدم خلوّ الزمان من إمام هادٍ مرشد بعد ثبوت التكليف ، واحتمال صدور الخطأ من المكلّفين .

ثانياً : القرآن هو الحجّة ، إذ نطقت الآيات القرآنيّة بتعيين عليّ .

ثالثاً : الأخبار المأثورة عن الحبيب المصطفى .

رابعاً : إجماع الشيعة المُحِقّة .

ولا يتسنّى لنا في هذا الكتاب أن نشرح جميع الأدلّة . وإنكار الإمام نفسه إمامة تلك الجماعة بيّن ظاهر ، على عكس ما يقوله الناصبيّ الأحمق .

أوّلاً : قوله في أوّل تلك الخطبة المعروفة : أَمَا وَاللَهِ لَقَدْ تَقَمّصَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَإِنّهُ لَيَعْلَمُ أَنّ مَحَلّي مِنْهَا مَحَلّ القُطْبِ مِنَ الرّحَى . وقوله عندما جاء دور عمر : فَيَا عَجَبَاً بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ إذْ عَقَدَهَا لِآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ . وإنكاره ما قام به عمر من تعيين الشورى بقوله : جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنّي أَحَدُهُمْ ، فَيَا للّهِ وَلِلشّورَى . وقوله في عثمان : إلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ القَوْمِ نَافِجَاً حِضْنَيْهِ ... إلى آخر الخطبة .

فهذا كلّه دليل على تعيينه هو بالذات ، وعلى إنكار ما اختاره القوم لأنفسهم .

فما ظنّك هل الحلّاج والمشّاط كانا يران ويعلمان ــ بعد تصرّم خمسمائة سنة ــ ؟ أمّا عليّ عليه السلام ، والعبّاس ، وسلمان ، وأبو ذرّ ، والمهاجرون ، والأنصار ، فلم يستطيعوا الرؤية والعلم ؟ [بل العقلاء يحكمون عكس ذلك] ولم يروا أنّ كلّ إجماع يخالف عليّ المرتضى عليه السلام خطأ وتجاوز . وكلّ اتّفاق يخالف الحسن والحسين باطل ، وكلّ حجّة تقام ضدّ سلمان ، وأبي ذرّ ، والمقداد ، وخزيمة ، وأبي أيّوب شبهات داحضة . أَلَا إنّ الحَقّ مَعَ عَلِيّ ، وَعَلِيّ مَعَ الحَقّ يَدُورُ مَعَهُ حَيْثُمَا دَارَ .

هذا هو مذهب أهل الحقّ ، وهذا هو جواب المُشَبّه الخارجيّ . والإمام بعد المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم هو عليّ أمير المؤمنين عليه السلام بلا فصل ونزاع ، وهذا هو نصّ ربّ العالمين ، ونَفَس خير المرسلين [و] الحمد للّه ربّ العالمين . (١٨)

ولابدّ أن نعلم أنّ اعتراض المهاجرين والأنصار على أبي بكر في مسجد النبيّ ، وكلام كلّ واحد منهما على النسق الذي ذكرناه مع اختلاف في العبارات ، قد نقله ــ مضافاً إلى عبد الجليل القزوينيّ الذي تقدّم ذكر كلامه ــ عدد من أعاظم المذهب الجعفريّ الإماميّ وعلمائه في كتبهم مرويّاً عن طريق الشيعة والعامّة .

وأوّل هؤلاء هو الشيخ الجليل أبو جعفر : أحمد بن محمّد بن خالد بن عبد الله البرقيّ ، من (بَرق رود) التابعة لمدينة قم ، وكان من ثقاة المذهب ورؤسائه ، وهو كوفيّ الأصل . توفّي سنة ٢٨٠ ه أو قبلها بستّ سنين . (١٩)

ذكر هذا الشيخ الجليل في كتابه الرجاليّ المعروف ب «رجال البرقيّ» أسماء الاثني عشر الذين أنكروا بيعة أبي بكر تحت عنوان : أسماء المنكرين على بيعة أبي بكر . وهم ستّة من المهاجرين ، وستّة من الأنصار .

أمّا المهاجرون ، فهم : خَالِد بن سَعِيد بن العاص من بني أُميّة ، وأبو ذَرّ الغِفَاريّ ، وسَلْمَان الفارسيّ ، والمِقْداد بن الأسْود ، وبُرَيْدَة الأسْلَمِيّ ، وعَمّار بن يَاسِر . وأمّا الأنصار ، فهم : خُزَيْمَة بن ثَابِت ، وسَهْل بن حُنَيْف ، وأبو الهَيْثَم بن التَيّهان ، وقَيْس بن سَعْد بن عُبَادَة الخَزْرَجِيّ ، وأُبَي بن كَعْب ، وأبو أيّوب الأنصاريّ . ثمّ يقول : ذهب هؤلاء إلى المسجد يوم الجمعة وتكلّموا واحداً واحداً ، وأبو بكر على المنبر واقف لخطبة الجمعة ، وأنكروا عليه خلافته ، وأيّدوا خلافة أمير المؤمنين عليه السلام ، وتحدّثوا عنها مفصّلين ومستدلّين على النحو الذي ذكرناه ، إلى أن انتهى كلام آخرهم ، وهو أبو أيّوب الأنصاريّ الذي قال : اتّقِ اللهَ (٢٠) وَرُدّوا الأَمْرَ إلَى أَهْلِ بَيْتِ نَبِيّكُمْ ؛ فَقَدْ سَمِعْتُمْ مَا سَمِعْنَا ؛ إنّ القَّائِمَ مَقَامَ نَبِيّنَا بعْدَهُ عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السّلَامُ ، وَإنّهُ لَا يُبَلّغُ عَنْهُ إلّا هُوَ ، وَلَا يَنْصَحُ لِأُمّتِهِ غَيْرُهُ .

فنزل أبو بكر من المنبر . فلمّا كان يوم الجمعة المقبلة سلّ عمر سيفه وقال : لا أسمع رجلاً يقول مثل مقالته تلك إلّا ضربت عنقه ، ثمّ مضى هو وسالم مولى أبي حذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وأبو عُبيدة شاهرين سيوفهم حتّى أخرجوا أبا بكر من الدار وأصعدوه المنبر . (٢١)

الثاني : الشيخ الجليل أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّيّ : هو الشيخ الصدوق المتوفّى سنة ٣٨١ ه . ذكر هذا الرجل العظيم في كتاب «الخصال» تلك الرواية عن ابن حفيد البرقيّ . قال : حدّثني عليّ بن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن أبي عبد الله البرقيّ ، قال حدّثني أبي ، عن جدّي ، أحمد بن أبي عبد الله البرقيّ ، قال حدّثني النهيكيّ

، عن أبي محمّد خَلَف بن سالم ، عن محمّد بن جعفر ، عن شُعْبة ، عن عثمان بن المُغيرة ، عن زَيْد بن وَهَب ، قال : الذين أنكروا على أبي بكر جلوسه في الخلافة وتَقَدّمه على عليّ بن أبي طالب عليه السلام اثنا عشر من المهاجرين والأنصار . وساق الرواية على هذا النمط . إلّا أنّه ذكر اسم عَبْدَ اللَهِ بن مَسْعُود بدل قَيْس بن سَعْد بن عُبَادَة . (٢٢)

الثالث : الشيخ الجليل : أبو منصور ، أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسيّ ، وهو من أعاظم علماء المذهب الإماميّ . كان يعيش في أواسط القرن السادس الهجريّ ، لأنّه كان معاصراً لأبي الفتوح الرازيّ ، والفضل بن الحسن الطّبَرْسِيّ صاحب كتاب «مجمع البيان» المتوفّى سنة ٥٤٨ ه . وكان محمّد بن عليّ بن شهرآشوب المتوفّى سنة ٥٨٨ ه تلميذه .

ذكر هذه الرواية مفصّلاً في كتاب «الاحتجاج» في باب «ذكر طُرف مِمّا جَرَى بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَهِ صلّى الله عليه وآله وسلّم من الجاج والحجاج في أمر الخلافة» . ورواها عن أبان بن تغلب ، عن الإمام الصادق عليه السلام . وعندما عدّ أسماء الاثني عشر ، ذكر عثمان بن حُنَيف أخا سهل ، مع سهل بدل قَيْس بن سَعْد بن عُبَادة . (٢٣)

الرابع : السيّد الجليل الشريف النقيب : رضيّ الدين أبو القاسم عليّ بن موسى بن طاووس الحسينيّ الحلّيّ المتوفّى سنة ٦٦٤ ه ، المشهور بين العلماء : ابن طاووس .

يقول في كتاب «كَشْفُ اليَقِينِ فِي اخْتِصَاصِ مَوْلَانَا عَلِيّ بِإمْرَةِ المُؤْمِنِينَ» المسمّى «كتاب اليقين» (٢٤) أيضاً : هذا الفصل في بيان ما نذكره عن أحمد بن محمّد القبريّ المعروف بالخليليّ من رواة العامّة ورجالهم فيما رواه من إنكار اثني عشر نفساً على أبي بكر بصريح مقالهم عقيب ولايته على المسلمين ؛ فيما ذكره بعض الصحابة بما عرف من رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّ عليّ [بن أبي طالب] أمير المؤمنين . ورواه أيضاً محمّد بن جرير الطبريّ صاحب كتاب «التاريخ» في كتاب «مناقب الأئمّة عليهم السلام» ويزيد بعضهم أشياء على ما ذكره الطبريّ .

[ثمّ قال] : اعلم أنّ هذا الحديث روته الشيعة متواترين ؛ ولولا كانت هذه الرواية برجال الشيعة ، ما نقلناه ؛ لأنّهم عند مخالفتهم [من العامّة] متّهمين ، ولكن نذكره حيث هو من طريقهم الذي يعتمدون عليه ودرك و [تبعة] ذلك على من رواه وصنّفه في كتابه . ثمّ قال : قال أحمد بن محمّد الطبريّ ما هذا لفّظه : خير الاثني عشر الذين أنكروا على أبي بكر جلوسه في مجلس رسول الله صلّى الله عليه وآله [وسلّم] : حدّثنا أبو الحسن بن عليّ بن النحّاس الكوفيّ العدل الأسديّ ؛ قال : حدّثنا أحمد بن أبي حسين العامِريّ ؛ قال : حدّثني عمّي أبو معمّر شُعبة بن خيثم الأسديّ : قال : حدّثني عثمان الأعْشَى ، عن زيد بن وَهَب . ثمّ نقل هذه القصّة إلى آخرها (٢٥)

ونقل العلّامة المجلسيّ رضوان الله عليه إنكار الاثني عشر بالتفصيل على النحو المشار إليه ، وذلك عن ثلاثة كتب هي : «الخصال» ، و «الاحتجاج» ، و «كشف اليقين» . ثمّ انبرى إلى شرحه وتفسيره . (٢٦)

وذكر المرحوم آية الله الشيخ عبد الله المامقانيّ في «تنقيح المقال» فصلاً تحت عنوان «إنكار الاثني عشر نفراً من المهاجرين والأنصار على أبي بكر» . ونقل فيه رواية «الخصال» عن «بحار الأنوار» للمجلسيّ . وأشار بعد ذلك إلى رواية «الاحتجاج» أيضاً . (٢٧)

أجل ، فإنّ معارضة الخاصّة من صحابة النبيّ صلّى الله عليه وآله ، وشيعة أمير المؤمنين عليه السلام لخلافة أبي بكر ، وعمر ، وعثمان أظهر من الشمس . وليس فيها موضع للشكّ كما جاء في التأريخ وكُتب السِّيَر . وكان أتباع أهل البيت منذ البداية ينظرون إلى خلافة الخلفاء الثلاثة على أنّها غصب ، ويعتبرون الخلفاء غاصبين .

يقول عبد الله عنان المُحاميّ : وَكَانَ لِعَلَيّ حِزْبٌ يُنَادِي بِخِلَافَتِهِ عَقْبَ النَّبِيّ مُبَاشَرَةً ، وَيَرَى أَنَّهُ هُوَ وَبَنُوهُ أَحَقّ النَّاسِ بِهَا . ويواصل حديثه عن هذا النوع ، إلى أن يقول :

وَمِنَ الخَطَأ أَنْ يُقَالَ : إنّ الشّيعَةَ إنّمَا ظَهَرُوا لِأَوّلِ مَرّةٍ عِنْدَ انْشِقَاقِ الخَوَارِجِ ، وَإنّهُمْ سُمّوا كَذَلِكَ لِبَقَائِهِمْ إلَى جَانِبِ عَلِيّ . فَشِيعَةُ عَلِيّ ظَهَرُوا مُنْذُ وَفَاةِ النَّبِيّ كَمَا قَدّمْنَا . (٢٨)

وقال ابن خلدون : مَبْدَأُ دَوْلَةِ الشّيعَةِ : اعْلَمْ أَنّ مَبْدَأَ هَذِهِ الدّوْلَةِ أَنّ أَهْلَ البَيْتِ لَمّا تُوُفّيَ رَسُولُ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ كَانُوا يَرَونَ أَنّهُمْ أَحَقّ بِالأَمْرِ ، وَأَنّ الخِلَافَةَ لِرِجَالِهِمْ دُونَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ .

إلى أن قال : وَفِي الصّحِيحِ أَيْضَاً أَنّ رَسُولَ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ قَالَ فِي مَرَضِهِ الّذِي تُوُفّيَ فِيهِ : هَلُمّوا أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابَاً لَنْ تَضِلّوا بَعْدَهُ أَبَدَاً . فَاخْتَلَفُوا عِنْدَهُ فِي ذَلِكَ وَتَنَازَعُوا وَلَمْ يَتِمّ الكِتَابُ . وَكَانَ ابْنُ عَبّاسٍ يَقُولُ : الرّزِيّةُ كُلّ الرّزِيّةِ مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ [وَآله] وَسَلّمَ وَبَيْنَ ذَلِكَ الكِتَابِ لِاخْتِلَافِهِمْ وَلَغَطِهِمْ . حَتّى لَقَدْ ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الشّيعَةِ إلَى أَنّ النّبِيّ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ أَوْصَى فِي مَرَضِهِ ذَلِكَ لِعَلِيٍ وَلَمْ يَصِحّ ذَلِكَ مِنْ وَجْهٍ يُعَوّلُ عَلَيْهِ ، وَقَدْ أَنْكَرَتْ هَذِهِ الوَصِيّةَ عَائِشَةُ وَكَفَى بِإنْكَارِهَا . (٢٩)

إلى أن قال : وَفِي قِصّةِ الشّورَى أَنّ جَمَاعَةً مِنَ الصّحَابَةِ كَانُوا يَتَشَيّعُونَ لِعَلِيٍ ، وَيَرَوْنَ اسْتِحْقَاقَهُ عَلَى غَيْرِهِ ، وَلَمّا عُدِلَ بِهِ إلَى سِوَاهُ تَأَفّفُوا مِنْ ذَلِكَ وَأَسِفُوا لَهُ ، مِثْلُ الزّبَيْرِ وَمَعَهُ عَمّارُ بْنُ يَاسِرٍ ، وَالمِقْدَادُ بْنُ الأَسْوَدِ وَغَيْرُهُمُ ، إلّا أَنّ القَوْمَ لِرُسُوخِ قَدَمِهِمْ فِي الدّينِ وَحِرْصِهِمْ عَلَى الأُلْفَةِ لَمْ يَزِيدُوا فِي ذَلِكَ عَلَى النّجْوَى بِالتّأَفّفِ وَالأَسَفِ . (٣٠)

وقال المؤرّخ الجليل والرحّالة الكبير : أبو الحسن عليّ بن حسين المسعوديّ المتوفّى سنة ٣٤٦ من الهجرة :

وَقَدْ كَانَ عَمّارٌ حِينَ بُويِعَ عُثْمَانُ ، بَلَغَهُ قَوْلُ أَبِي سُفْيَانَ : صَخْرَ بْنَ حَرْبٍ فِي دَارِ عُثْمَانَ ، عُقَيبَ الوَقْتِ الّذِي بُويِعَ فِيهِ عُثْمَانُ وَدَخَلَ دَارَهُ وَمَعَهُ بَنُو أُمَيّةَ ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : أَفِيكُمْ أَحَدٌ مِنْ غَيْرِكُمْ ؟ ــ وَقَدْ كَانَ أَعْمَى ــ (٣١) قَالُوا : لَا ! قَالَ : يَا بَنِي أُمَيّةَ ! تَلَقّفُوهَا تَلَقّفَ الكُرَةِ ! فَوَ الّذِي يَحْلِفُ بِهِ أَبُو سُفْيَانَ مَا زِلْتُ أَرْجُوهَا لَكُمْ ، وَلَتَصِيرَنّ إِلَى صِبْيَانِكُمْ وِرَاثَةً !فَانْتَهَرَهُ عُثْمَانُ وَسَاءَهُ مَا قَالَ .

وَنَمَى هَذَا القَوْلُ إِلَى المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَغَيْرُ ذَلِكَ الكَلَامِ .

فَقَامَ عَمّارٌ فِي المَسْجِدِ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ! أَمَا إِذَا صَرَفْتُمْ هَذَا الأَمْرَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيّكُمْ هَهُنَا مَرّةً وَهَهُنَا مَرّةً ، فَمَا أَنَا بِآمِنٍ مِنْ أَنْ يَنْزِعَهُ اللهُ مِنْكُمْ ، فَيَضَعَهُ فِي غَيْرِكُمْ كَمَا نَزَعْتُمُوهُ مِنْ أَهْلِهِ وَوَضَعْتُمُوهُ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ !

وَقَامَ المِقْدَادُ فَقَالَ : مَا رَأَيْتُ مِثْلَ مَا أُوذِيَ بِهِ أَهْلُ هَذَا البَيْتِ بَعْدَ نَبِيّهِم . فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ : وَمَا أَنْتَ وَذَاكَ يَا مِقْدَادَ بْنَ عَمْرٍو ؟!

فَقَالَ : إِنّي وَاللهِ لَأُحِبّهُمْ لِحُبّ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ إِيّاهُمْ ؛ وَإِنّ الحَقّ مَعَهُمْ وَفِيهِم . يَا عَبْدَ الرّحْمَنِ ! أَعْجَبُ مِنْ قُرَيْشٍ ــ وَإِنّمَا تَطَوّلُهُمْ عَلَى النّاسِ بِفَضْلِ أَهْلِ هَذَا البَيْتِ ــ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلَى نَزْعِ سُلْطَانِ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ بَعْدَهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ ! أَمَا وَأَيْمُ اللهِ يَا عَبْدَ الرّحْمَنِ لَوْ أَجِدُ عَلَى قُرَيْشٍ أَنْصَاراً لَقَاتَلْتَهُمْ كَقِتَالِي إِيّاهُمْ مَعَ النّبِيّ عَلَيْهِ الصّلَاةُ وَالسّلَامُ يَوْمَ بَدْرٍ . وَجَرَى بَيْنَهُمْ مِنَ الكَلَامِ خَطْبٌ طَوِيلٌ قَدْ أَتَيْنَا عَلَى ذِكْرِهِ فِي كِتَابِنَا «أَخْبَار الزمَانِ» (٣٢) فِي أَخْبَارِ الشّورَى وَالدّارِ . (٣٣)

وروى ابن عساكر بسنده المتّصل عن عمر بن عليّ بن الحسين ، عن عليّ بن الحسين ، قال : قَالَ مَرْوَانُ بْنُ الحَكَمِ : مَا كَانَ فِي القَوْمِ أَحَدٌ أَدْفَعَ عَنْ صَاحِبِنَا مِنْ صَاحِبِكُمْ ــ يَعْنِي عَلِيّاً عَنْ عُثْمَانَ ــ قَالَ : قُلْتُ لَهُ : فَمَا لَكُمْ تَسُبّونَهُ عَلَى المَنَابِرِ ؟! قَالَ : لَا يَسْتَقِيمُ الأَمْرُ إِلّا بِذَلِكَ . (٣٤)

قال أحمد أمين المصريّ : وَقَدْ بَدَأَ التّشَيّعُ مَنْ فِرْقَةٍ مِنَ الصّحَابَةِ كَانُوا مُخْلِصِينَ فِي حُبّهِمْ لِعلِيّ يَرَوْنَهُ أَحَقّ بِالخِلَافَةِ لِصِفَاتٍ رَأَوْهَا فِيهِ ؛ مِنْ أَشْهَرِهِمْ سَلْمَانُ الفَارِسِيّ وَأَبُو ذَرّ الغِفَارِيّ وَالمِقْدَادُ بْنُ الأَسْوَدِ . وَتَكَاثَرَتْ شِيعَتُهُ لَمّا نَقَمَ النّاسُ عَلَى عُثْمَانَ فِي السّنَوَاتِ الأَخِيرَةِ مِنْ خِلَافَتِهِ ثُمّ لَمّا وَلِيَ الخِلَافَةَ . (٣٥)

واعترض أُسامة بن زيد على خلافة أبي بكر ، وقال له في كتاب بعثه إليه : أنّى لك هذا المقام ؟

قال ابن أبي الحديد : لمّا مرض رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم مرض الموت ، دعا أُسَامَةَ بْنَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَة ، فقال : سر إلى مقتل أبيك ، فأوطئهم الخيل ! فقد ولّيتك على هذا الجيش ؛ وإن أظفرك الله بالعدوّ ، فأقلل اللبث ! وبثّ العيون ! وقدّم الطلائع ! فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلّا كان في ذلك الجيش ؛ منهم أبو بكر وعمر .

فتكلّم القوم وقالوا : يستعمل هذا الغلام على جلّة المهاجرين والأنصار ! فغضب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لمّا سمع ذلك ، وخرج عاصباً رأسه ، فصعد المنبر وعليه قطيفة .

فقال : أَيّهَا النّاسُ ! مَا مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْ بَعْضِكُمْ فِي تَأْمِيرِي أُسَامَةَ ، لَئِنْ طَعَنْتُمْ فِي تَأْمِيرِي أُسَامَةَ فَقَدْ طَعَنْتُمْ فِي تَأْمِيرِي أَبَاهُ مِنْ قَبْلِهِ . وَأَيْمُ اللّهِ أَنْ كَانَ لَخَلِيقاً بِالإمَارَةِ ، وَابْنُهُ مِنْ بَعْدِهِ لَخَلِيقٌ بِهَا ، وَإِنّهُمَا لَمِنْ أَحَبّ النّاسِ إلَيّ ! فَاسْتَوصُوا بِهِ خَيْرَاً فَإِنّهُ مِنْ خِيَارِكُمْ .

ثمّ نزل ودخل بيته ، وجاء المسلمون يودّعون رسول الله ، ويمضون إلى عسكر أُسامة بالجُرْف .

وثقل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم واشتدّ ما يجده ، وهو لم يزل يؤكّد على التحاق أكابر قريش بجيش أُسامة ، وقال : اغْدُ عَلَى بَرَكَةِ اللّهِ ! وَجَعَلَ يَقُولُ : انْفُذُوا بَعْثَ أُسَامَةَ ! وَيُكَرّرُ ذَلِكَ ، فَوَدّعَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ وَخَرَجَ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ . (٣٦)

فقال أُسامة لرسول الله : بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله ! أتأذن لي في المقام أيّاماً حتّى يشفيك الله ؟! فإنّي متى خرجت وأنت على هذه الحالة ، خرجت وفي قلبي منك قرحة !

فقال [رسول الله] : انفذ يا أُسامة لما أمرتك ؛ فإنّ القعود عن الجهاد لا يجب في حال من الأحوال . (٣٧)

نجد هنا أنّ رسول الله أمر وجوه قريش وسراتهم ومستكبريهم كأبي بكر ، وعمر ، وأبي عبيدة الجرّاح ، والمغيرة بن شعبة ، وعثمان بن عفّان ، ومعاذ بن جبل ، وسائر الشخصيّات المعروفة من المهاجرين والأنصار أن يلتحقوا بجيش أُسامة بعدما ذكرهم بأسمائهم . وأمّا أمير المؤمنين عليه السلام فلم يشمله هذا الأمر ولم يكن في عداد الجيش بإجماع الفريقين وتواتر الأحاديث في التواريخ وكتب السير والتراجم ، ولم يأمره رسول الله بالخروج مع أُسامة .

وكان أُسامة من الذين اعترضوا على خلافة أبي بكر بقوله : أمّرني رسول الله عليك !

وقال الشيخ الجليل عبد الجليل القزوينيّ : ولمّا كتب أبو بكر بن أبي قحافة في أوّل خلافته كتاباً إلى أُسامة بن زيد ، وقال فيه : مِنْ أَبِي بَكْرٍ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللّهِ إلَى أُسَامَةَ بْنَ زَيْدِ بْنِ عَتِيقٍ ، أنكر عليه ذلك ، وكتب إليه الجواب التالي :

مِنَ الأَمِيرِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَتِيقٍ إلَي ابْنِ أَبِي قُحَافَةَ : أَمّا بَعْدُ ، فَإذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَالْحَقْ بِمَكَانِكَ ، فَإنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ بَعَثَنِي أَمِيرَاً وَبَعَثَكَ أَنْتَ وَصَاحِبَكَ فِي الخَيْلِ ؛ وَأَنَا أَمِيرٌ عَلَيْكُمَا أَمّرَنِي رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ . (٣٨)

وجاء في «الاحتجاج» للطبرسيّ أنّ أبا بكر لمّا بويع بالخلافة كان أبوه أبو قحافة بالطائف . فكتب أبو بكر إلى أبيه كتاباً عنوانه : مِنْ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَهِ إلَى أَبِي قُحَافَةَ : أَمّا بَعْدُ ، فَإنّ النّاسَ قَدْ تَرَاضَوْا بِي ؛ فَإنّي اليَوْمَ خَلِيفَةُ اللَهِ ! فَلَو قَدِمْتَ عَلَيْنَا كَانَ أَقَرّ لِعَيْنِكَ !

فلمّا قرأ أبو قحافة الكتاب قال للرسول : ما منعكم من عليّ ؟! فقال الرسول : هو حدث السنّ ، وقد أكثر القتل في قريش وغيرها ، وأبو بكر أسنّ منه . فقال أبو قحافة : إن كان الأمر في ذلك بالسنّ ، فأنا أحقّ من أبي بكر . لقد ظلموا عليّاً حقّه ؛ وقد بايع له النبيّ وأمرنا ببيعته .

ثمّ كتب إليه : من أبي قُحافة إلى ابنه أبي بكر : أمّا بعد ، فقد أتاني كتابك ! فوجدته كتاب أحمق ينقض بعضه بعضاً . مرّة تقول : خليفة رسول الله ، ومرّة تقول : خليفة الله ، ومرّة تقول : تراضى بي الناس !

وهو أمر ملتبس ! فلا تدخلنّ في أمر يصعب عليك الخروج منه غداً ، ويكون عقباك منه إلى النار والندامة وملامة النفس اللوّامة لدى الحساب يوم القيامة . فإنّ للأُمور مداخل ومخارج ؛ وأنت تعرف من هو أولى بها منك ! فراقب الله كأنّك تراه ! ولا تدعنّ صاحبها ! فإنّ تركها اليوم أخفّ عليك وأسلم لك . (٣٩)

ومن المناسب هنا أن نختم بحثنا برواية حول ولاية أمير المؤمنين عليه السلام . فقد روى الطبريّ حديثاً عن زياد بن مطرف ، قال :

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ يَقُولُ : مَنْ أَحَبّ أَنْ يَحْيَى حَيَاتِي ، وَيَمُوتَ مِيتَتِي ، وَيَدْخُلَ الجَنّةَ الّتِي وَعَدَنِي رَبّي قَضْبَاً مِنْ قُضْبَانِهَا غَرَسَهَا فِي جَنّةِ الخُلْدِ ، فَلْيَتَوَلّ عَلِيّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَذُرّيّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، فَإنّهُمْ لَنْ يُخْرِجُوهُمْ مِنْ بَابِ هُدَىً ، وَلَنْ يُدْخِلُوهُمْ فِي بَابِ ضَلَالَةٍ . (٤٠)

وذكره الحاكم في «المستدرك» بهذه العبارة : روى مطرف بن زياد ، عن زيد بن أرقم أنّه قال :

قَالَ رَسُولُ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَحْيَى حَيَاتِي وَيَمُوتَ مَوْتِي ، وَيَسْكُنَ جَنّةَ الخُلْدِ الّتِي وَعَدَنِي رَبّي ، فَلْيَتَوَلّ عَلِيّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَإنّهُ لَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ هُدَىً ، وَلَنْ يُدْخِلَكُمْ فِي ضَلَالَةٍ . (٤١)

تعليقات:

١) الآيات ١ إلى ٦ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

٢) نهج البلاغة» الخطبة . ١٥٤

٣) تفسير مجمع البيان» ج ٤ ، ص ٢٧٢ ، طبعة صيدا .

٤) تفسير الصافيّ» ج ١ ، ص ٢٨٢ ، الطبعة الحجريّة .

٥) غاية المرام» القسم الثاني ، ص ٤٠٣ و ٤٠٤ ،الحديث ٣ و ٤ .

٦) تفسير البرهان» ج ٢ ، ص ٨٠٢ ، الطبعة الحجريّة ؛ وفي «غاية المرام» : نَحْنُ أَوْلِيَاؤكَ ، وفيه تصحيف طبعاً .

٧) غاية المرام» القسم الثاني ، ص ٤٠٤ ، حديث ١ و ٤ عن العامّة . والرواية الأُولى في «تفسير القمّيّ» ، ص . ٤٩٤

٨) جاءت هذه الرواية في «غاية المرام» ، و «تفسير البرهان» الطبعة الحجريّة ج ٢ ، ص ٨٠٢ هكذا : قال رسول الله . ولا جرم أنّ فيها إسقاطاً ؛ وينبغي أن تكون هكذا : قال أبو عبد الله عليه السلام : أو قال أبو الحسن عليه السلام : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله ــ إلى آخره . لأنّ العبارة لا تصحّ في غير هذه الصورة . ولمّا كان سماعة بن مهران من أصحاب الصادق والكاظم عليهما السلام ، فلهذا تستبين العبارة المسقطة ، وفيها اسم أحد هذين الإمامين العظيمين .

٩) غاية المرام» القسم الثاني ، ص ٤٠٤ ، الحديث الرابع عن العامّة . والرواية الأُولى موجودة في «تفسير القمّيّ» ص . ٤٩٤

١٠) غاية المرام» القسم الثاني ، ص ٤٠٤ ، حديث ٥ عن العامّة .

١١) جاء في معجم «دهخدا» [معجم فارسيّ] كتاب «ص» ، ص ١٣٢ أنّ الصبر بفتح الصاد وكسر الباء . ولا يجوز تسكين الباء إلّا في الضرورة الشعريّة . والصبر عصارة مرّة تستخرج من شجرة تعرف باللغة الهنديّة « ايلوا . أمّا ما يستبين من «القاموس» فهو أنّ شعراء العرب جوّزوا سكون الباء للضرورة . وحينئذٍ فليس من تصرّف الفرس عندما يقرأون الكلمة بسكون الباء .

١٢) كتاب «النقض» ص ٦٥٢ و . ٦٥٣

١٣) كما قال صاحب كتاب «النقض» نفسه وهو عبد الجليل بن أبي الحسين القزوينيّ ، قال في مقدّمة الكتاب : نقل هذا الكتاب عنه في شهر ربيع الأوّل سنة ٥٥٦ه . ويبدو أنّه كان في تلك الأيّام (أي : كتاب «فضائح الروافض») . ويلوح أيضاً أنّ المرحوم القزوينيّ أجاب عنه في تلك الفترة نفسها ، وسمّى كتابه «بعض مثالب النواصب في نقض بعض فضائح الروافض» .

١٤) بناء على رواية الطبرسيّ في «الاحتجاج» ج ١ ، ص ٩٩ و ١٠٠ فإنّ سلمان لمّا قام للاحتجاج ، قال : فعلتم ولم تفعلوا ! وقد كان امتنع من البيعة قبل ذلك حتّى وُجئ عنقه ، ونحن ذكرنا في الدرس ١١٠ إلى ١١٥ من كتابنا هذا رواية عن سُلَيم بن قيس ، عن أمير المؤمنين عليه السلام حول وجوب الرجوع إلى الأعلم .

١٥) الشّبْرُ ما بين طرف الإبهام وطرف الخِنْصِرِ ممتدّين . والفِتْر مَا بين طرف الإبهام وطرف السبّابة إذا فُتحت اليد . ومعنى قوله : قِسْ شِبْرَكَ بِفِتْرِكَ ، انشغل بأُمورك ! ولا تتجاوز حدّك ! وفسّره المجلسيّ رضوان الله عليه : كما أنّ فترك لا يمكن أن يكون

بقدر شبرك ، فكذا مراتب الرجال مختلفة بحسب القابليّة ، ولا يمكن للأدنى الترقّي إلى درجة الأعلى . («بحار الأنوار» ج ٨ ، ص ٤٣ طبعة كمباني الحجريّة) .

١٦) يقول مصحّح كتاب «النقض» والمعلّق عليه بالفارسيّة [وهو السيّد جلال الدين حسين أُرموي] طبعة سنة ١٣٧١ ه : العبارة الواقعة بين النجمتين هي في النسخة الموجودة كالآتي : «بأكثر وعظكم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم ، ولا يسمعوا أُمّتي أكبر ما سمعتم من نبيّكم» .

١٧) وفقاً للرواية الواردة في «الاحتجاج» للشيخ الطبرسيّ ج ١ ، ص ١٠٤ ، فقد جاء خالد بن الوليد ومعه ألف رجل ، وسالم مولى أبي حُذيفة ومعه ألف رجل ، ومعاذ بن جبل ومعه ألف أيضاً ؛ فما زال يجتمع إليهم رجل رجل حتّى اجتمع أربعة آلاف رجل .

١٨) كتاب «النقض» المعروف ب «بَعْض مَثَالِبِ النّوَاصِبِ في نَقَض بَعْضِ فَضَائحِ الرّافِضَة» ص ٦٥٤ إلى . ٦٦٩

١٩) الذريعة إلى تصانيف الشيعة» للعلّامة الشيخ آقا بزرك الطهرانيّ ، ج ٢ ، ص . ١٢٢ وهذا الرجل الجليل صاحب كتاب في الرجال ، وله كتاب «المحاسن» الذي يعتبر من الكتب الخاصّة بأُصول الشيعة . ولمّا كانت وفاة الكلينيّ سنة ٣٢٨ أو ٣٢٩ ه ، فلهذا يروي عنه الكلينيّ بالواسطة . وهو في الحقيقة من مشايخ مشايخ الكلينيّ .

٢٠) قوله «اتّق الله» موجّه إلى أبي بكر ، وقوله : «ردّوا الأمر» موجّه إلى كافّة أقطاب السقيفة .

٢١) رجال البرقيّ» ص ٦٣ إلى . ٦٦ روي في هذا الحديث كلام المهاجرين والأنصار الاثني عشر عن طريق البديعيّ ، يُنظر ويلاحظ .

٢٢) الخصال» للصدوق ، ص ٤٦١ إلى ٤٦٥ ، طبعة مطبعة الحيدريّ ، باب الواحد إلى اثني عشر ، تحت عنوان : الذين أنكروا على أبي بكر جلوسه في الخلافة وتقدّمه على عليّ بن أبي طالب عليه السلام اثنا عشر .

٢٣) الاحتجاج» ج ١ ، ص ٩٧ إلى . ١٠٥

٢٤) الذريعة» ج ١٨ ، ص ٦٩ ، رقم . ٧٢٠ وقال أيضاً ذُكر كتاب «كشف اليقين» لابن طاووس في تضاعيف «بحار الأنوار» وجعل رمزه «شَفْ» ولكنّ المجلسيّ ظنّ أنّ الكتاب للعلّامة الحلّيّ فنسبه إليه ، مع أنّ كتاب العلّامة : «كشف اليقين» المطبوع خالٍ من هذه الأحاديث المذكورة في «بحار الأنوار» . وللعلّامة الحلّيّ كتاب يُدعى : «كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين» مذكور تحت الرقم «١٢٧» في كتاب «الذريعة» .

٢٥) بحار الأنوار» ج ٨ ، ص ٤٢ و ٤٣ ، طبعة كمباني ، باب كيفيّة غَصْب لصوص الخلافة وأهل الجلافة .

٢٦) بحار الأنوار» ج ٨ ، ص ٣٨ إلى . ٤٤

٢٧) تنقيح المقال» ج ١ ، ص ١٩٨ إلى ٢٠٠ ، الفائدة الثانية عشرة .

٢٨) تاريخ الجمعيّات السرّيّة والحركات الهدّامة» ، ص . ٢٦

٢٩) لا شكّ ولا شبهة في وصيّة رسول الله لأمير المؤمنين عليهما السلام في المرض الذي توفّي فيه . وذكرها الأعاظم والأعلام في كتب السير والتأريخ ، بَيدَ أنّ عائشة أنكرتها لِبُنُوّتِها أبا بكر ، وبغضها الشديد عليّاً عليه‌السلام . وهذا الإنكار هو الذي دفع ابن خلدون السنّيّ ، الذي يثني على عائشة إلى حدّ التقديس ، أن يقول بعدم الوصيّة ، ويهمل الروايات والأحاديث الجمّة المأثورة عن أُمّ سلمة : الزوجة ذات الأُرومة الرفيعة ، وعن الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ، وأهل البيت ، وغيرهم ، وهي لا تحصى .

٣٠) تاريخ ابن خلدون» ج ٣ ، ص ١٧٠ و . ١٧١

٣١) أي : أنّ أبا سفيان أراد أن يتحدّث بحضور بني أُميّة لا غيرهم بحيث إنّ شخصاً واحداً من أنصار بني هاشم لا يحضر بينهم ، حتّى يبقى كلامه سرّيّاً ، ولا يُفصِح عنه ، ونحن نقلنا كلام أبي سفيان بعبارة أُخرى في الدرس ٩١ ـــ ٩٣ ، من دروس «معرفة الإمام» ج . ٧

وروى ابن أبي الحديد في الجزء الثاني من «شرح نهج البلاغة» ص ٤٤ عن أحمد بن عبد العزيز ، قال : إنّ أبا سفيان ، قال لمّا بويع عثمان : كان هذا الأمر في تَيْم ؛ وأنّى لتيم هذا الأمر ؟ ثمّ صار إلى إلى عديّ ، فأبعد وأبعد ؛ ثمّ رجعتْ إلى منازلها واستقرّ الأمر قراره ، فتلقّفوها تلقّف الكرة .

وروى عنه أيضاً في ص ٤٥ : إنّ أبا سفيان قال لعثمان : بأبي أنت أنفق ولا تكن كأبي حجر ! وتداولوها يا بني أُميّة تداول الولدان الكرة ! فو الله ما من جنّة ولا نار . وكان الزبير حاضراً ، فقال عثمان لأبي سفيان أُعزُبْ ! فقال : يا بنيّ أههنا أحد ؟! قال الزبير : نعم والله لا كتمتها عليك !

يقول راوي هذه الرواية : المغيرة بن محمّد المهلّبيّ : عندما ذاكرت إسماعيل بن إسحاق القاضيبهذا الحديث ، قال : هذا باطل . قلت : وكيف ذلك ؟ قال : ما أنكر هذا من أبي سفيان ، ولكن أنكر أن يكون سمعه عثمان ، ولم يضرب عنقه . (أي : لو كان أبو سفيان قد قال ذلك ، لضرب عثمان عنقه) .

٣٢) جاء في كتاب «كشف الظنون» ج ١ ، ص ٢٧ ما نصّه : «أخبار الزمان ومن أباده الحَدَثان» : في التأريخ ، للإمام أبي الحسن عليّ بن محمّد بن الحسين (عليّ بن الحسين بن عليّ) المسعوديّ المتوفّى سنة ٣٤٦ ه‍ . وهو تأريخ كبير قدّم القول بهيئة الأرض ومدنها وجبالها وأنهارها ومعادنها وأخبار الأبنية العظيمة وشأن البدء وأصل النسل وانقسام الأقاليم وتباين الناس . ثمّ أتبع بأخبار الملوك الغابرة والأُمم الداثرة والقرون

الخالية وأخبار الأنبياء . ثمّ ذكر الحوادث سنة سنة إلى وقت تأليف «مروج الذهب» سنة ٣٣٢ ه . ثمّ أتبعه كتاب «الأوسط» فيه فجعله إجمال ما بسطه فيه ، ثمّ رأى اختصار ما وسطه في كتاب سمّاه «مروج الذهب» ورتّب أخبار الزمان على ثلاثين فنّاً .

٣٣) مروج الذهب» ج ٢ ، ص ٣٤٢ و ٣٤٣ ، طبعة دار الأندلس ، و ج ٢ ، ص ٣٥١ و ٣٥٢ ، طبعة مطبعة السعادة بمصر ، سنة ١٣٦٧ ه .

٣٤) تاريخ دمشق» ج ٣ ، ص ٩٨ ، ترجمة الإمام عليّ بن أبي طالب .

٣٥) ضحى الإسلام» ، ج ٣ ، ص . ٢٠٩

٣٦) شرح نهج البلاغة» ج ١ ، ١٥٩ و ١٦٠ ؛ و «الاحتجاج» للطبرسيّ ، ج ١ ، ص . ٩٠

٣٧) الاحتجاج» ج ١ ، ص ٩٠ ، باب ما جرى بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله .

٣٨) كتاب النقض» ص ٣٢ ، وورد هذا الكتاب وجوابه في «الاحتجاج» للطبرسيّ ج ١ ، ص ١١٤ بنحو أكثر تفصيلاً .

٣٩) الاحتجاج» للطبرسيّ ، ج ١ ، ص . ١١٥

٤٠) مُنتَخَب ذَيْل المُذَيّل» ص . ٥٧

٤١) مستدرك الحاكم» ج ٣ ، ص . ١٢٨ وقال في آخر الحديث : هذا الحديث صحيح الإسناد بدون تخريج الشيخين .

تخريج الشيخين .

الدرس الثامن عشر بعد المائة إلى العشرين بعد المائة: في المدينة الفاضلة ، ينبغي أن يسعى الجميع من أجل رئاسة أمير المؤمنين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وصلّى اللهُ على محمّد وآله الطّاهرين
ولعنة اللَه على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين ولا حول ولا قوّة إلّا باللَه العليّ العظيم

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :
قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَلًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِايَتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنًا * ذَ لِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا ءَايَتِى وَرُسُلِى هُزُوًا .[1]

ينبغي للإنسان أن يكون متيقّظاً واعياً متوكّلاً على الله في المواطن التي ينفذ فيها الشيطان والنفس الأمّارة إليه عبر الدين والشريعة ، فيضلّانه ويجعلانه في قبضتهما ، ويقحمانه في الحَلَبة من خلال ما يلقيان في قلبه من الوساوس المتمثّلة بمؤازرة الدين ومساعدة الناس ، والشعور بالمسؤوليّة أمام المجتمع ، وعدم وجود من به الكفاية ، ووجوب الإفتاء والتعليم ، وإعداد الضعفاء وتربيتهم ، والنظر في شؤون المعوزّين والأيتام ، ووجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ وغير ذلك من الأُمور التي لا تحصى كثرة ، ويخدعانه بإيصاله إلى منصب الرئاسة من خلال هذه الخزعبلات ؛ وهذه الرئاسة هي الرئاسة الشكليّة المجازيّة لا المعنويّة الإلهيّة ، وهي الرئاسة التي يستغلّها صاحبها ، إذ يسجر له زبانيته التنّور ، ويصنعون له الخبز الحارّ والطازج دائماً ، بينما هناك من هو أفضل منه وأعلم ، وأعرف وأعقل ، وأبصر ، وأكثر تحرّراً من الهوى والهوس ، وأشجع ، وأفهم في الإدارة وتدبير الأُمور ، غاية الأمر أنّ صفاته الذاتيّة الفطريّة المودعة فيه كالحياء ، والإعراض عن الدنيا وعن ما سوى الله ، وعلوّ الهمّة في السير نحو مقام العرفان ولقاء الله ، لا تسمح له أن يزجّ نفسه في هذه المسائل ، ويكون سبّاقاً في أمر يراه كجيفة الدنيا التي تهافتت عليها كثير من الكلاب العاوية ، وهي تريد أن تتفرد في التصرّف بها كيفما كان الأمر .

ونلاحظ هنا أنّ واجبه الفطريّ والعقليّ والشرعيّ هو أن لا يقبل الدعوة إلى الرئاسة ، وأن يردّ هذه الحدائق الخضراء التي عرضوها له في مرايا الأُمور الدينيّة والشرعيّة ، ولا يسمح للقوى الوهميّة والتخيليّة أن تتفوّق على قواه العقليّة ، فيقوم ويذهب عند ذلك الإنسان المهجور المطوّق في بيته لعدم رغبة الملأ فيه ، وإدبار ذوي الأُفق الضيّق عنه ، وهو

غارق في التفكير قد انطوى على نفسه في حندسه وديجوره ــ بينما يعلم الذاهب بحكم الضمير وفيما بينه وبين الله أنّ المعزول في بيته أعلم منه وأعقل وأبصر وأشجع وأورع ــ فيخرجه من زاوية الخمول ، وينضوي تحت لواء رئاسته وحكومته ، ويجدّ في سبيل حكومته ، وبغية تطهير نفسه من هذا التوجّه واقتيادها نحو السعادة الأبديّة والفوز الدائم . وخلاصة القول : يتنازل عن الرئاسة الظاهريّة والاعتباريّة ، ويضحّي بها فداءً للعقل والفطرة والشرع ، ويكون كأحد الناس مرؤوساً في هذه الرئاسة .

والله يعلم لو قام بذلك ، فأيّ بركات ورحمات متواترة متواصلة تفتح من السماء ! وكم يعيش الناس في الخصب والنعمة وغضارة العيش ! وكم يصبحون مجدّين في قطع الطريق إلى الله ، فيطوون المسافات الطويلة في مدّة قصيرة ! وعلى العكس لو تسلّم زمام الأُمور مع وجود من هو أعقل وأبصر منه ــ فإنّه لا يرجع القهقرى في سيره الكماليّ ، ولا يكون عرضة للأفكار الشيطانيّة والتمويهات النفسانيّة فحسب ، بل ويجرّ المجتمع وراءه إلى هاوية النقمة والبلاء والذلّ وأسر القيود والحدود الاعتباريّة .

إنّ خسران هؤلاء أكثر من خسران جميع الناس ، ذلك أنّهم ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَوةِ الدّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا . فقد كرّس هؤلاء المساكين جهودهم كلّها في خدمة الحياة الحيوانيّة والقوى البهيميّة والأفكار الشيطانيّة وهم يخالون أنّهم يحسنون صنعاً ، وأنّهم يخدمون المجتمع ، ويقومون بأعمال البرّ والإحسان ، ويشيّدون المدارس ، وتصدر عنهم كافّة الأعمال الصالحة ، إلّا أنّ ذلك كلّه ظنّ ووهم لا غير .

لقد كان الخلفاء الأُوَل المنتخبون على هذه الشاكلة . فقد قام الشيخان بهذه الأعمال في لباس الدين وتحت غطاء مناصرة الدين وحفظ بيضة الإسلام . وانبريا ــ في غلالة التقدّس والتظاهر بالحقّ ــ إلى غلق باب وليّ الله أمير المؤمنين ، ومن ثمّ كسره وحرقه . وغصبا فدكاً من بضعة رسول الله تحت غطاء المحافظة على بيت المال وحقوق الفقراء ؛ وأقاما الجمعة والجماعة ، ورقيا منبر رسول الله وخطبا عليه ، وكانا يقولان ، نحن لا نريد إلّا هداية الناس وإرشادهم ، وتجهيز الجيش للقتال . وكانا يرسلان المسلمين للجهاد . ويحاربان المناوئين لحكومتهما والقُرّاء في المدن والقرى من الذين كانوا يمتنعون عن دفع الزكاة إليهما لاعتقادهم بعدم وصولها إلى خليفة رسول الله الحقيقيّ ، كانا يحاربانهم تحت غطاء جهاد المرتدّين عن الدين ، مع أنّهم كانوا مسلمين يقيمون الصلاة ، وكانوا من المتمسّكين بأحكام الإسلام . بَيدَ أنّهم لمّا لم يعترفوا بخلافتهما ، وكانوا يقولون : لا تبرأ ذمّتنا ما لم ندفع الزكاة إلى صاحبها الحقيقيّ ، فقد حارباهم تحت غطاء مناصرة الدين وأخذ الزكاة من الممتنعين ، واعتبرا هذا الامتناع كفراً ، وأداناهم بوصمة الارتداد عن الدين ممّا سوّغ لهما مقاتلتهم .

ووضعا مبدأ التمييز الطبقيّ لكسب العرب إلى جانبهم ، وجعلا حصّة العرب وامتيازاتهم في بيت المال ، والنكاح ، والإمارة ، والحكومة ، والقضاء والشهادة ، وإمامة الجمعة والجماعة ، والاسترقاق أكثر من سائر المسلمين ، ومن سائر الطوائف والقبائل التي أطلقوا عليها اسم «الموالي» . فلهذا اتّخذت أعمالهم طابعاً دينيّاً من خلال صبغة الدين التي أضفوها عليها ، واعتبرت من السنن الدينيّة . وحظر عمر متعة النساء التي تمثّل عقداً مؤقّتاً ، وكذلك حظر متعة الحجّ التي كانت تمارس في الحجّ بين العمرة والحجّ ؛ وصار حظره سنّة . وجعل صلاة النوافل في ليالي شهر رمضان جماعة في حين أنّ إقامتها جماعة حرام وبدعة . وظلّت هذه السنّة قائمة حتّى عصرنا الحاضر ، إذ يقيم العامّة ألف ركعة من الصلاة المستحبّة المعروفة بصلاة التراويح جماعة في شهر رمضان .

ولو أردنا أن نحصي التغييرات التي أجراها الشيخان ، وبخاصّة الشيخ الثاني ، على الأحكام ، ورمنا تفصيلها وتوضيحها ، لاستوعب ذلك كتاباً مستقلّاً ؛ وجملة القول : «إنّ أمير المؤمنين عليه السلام عرض هذه الأُمور وتحدّث عنها في خطبة الفِتَن والبِدَع» . (٢)

كانت هذه التغييرات والبِدَع تجري باسم الإسلام ، حتّى أنّ مناوءتها كانت تعتبر مناوءة للدين ، وذلك أنّ عمر وعثمان أنفسهما كانا يصدران حكماً جنائيّاً على معارضتها ومخالفتها . قال عمر في خطبة خطبها : وَإنّهُمَا كَانَتَا مُتْعَتَيْنِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَهِ صَلّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ ، وَأَنَا أَنْهَى عَنْهُمَا وَأُعَاقِبُ عَلَيْهِمَا إحْدَيْهُمَا مُتْعَةُ النّسَاءِ ، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى رَجُلٍ تَزَوّجَ امْرَأَةً إلَى أَجَلٍ إلّا غَيّبْتُهُ بِالحِجَارَةِ ؛ وَالأُخْرَى مُتْعَةُ الحَجّ . (٣)

وصدرت من محكمته مثل هذه الحدود والأحكام الجنائيّة . وكان الناس مقسورين في حكومته على الانصياع لتلك الأحكام ، ورسخت هذه التغييرات شيئاً فشيئاً فشكّلت حجاباً على الأحكام المحمّديّة تحت غطاء سنّة الشيخين ، ووارت ذلك النظام الإلهيّ الخالص تحت جلبابها . وظلّت هذه السنن قائمة بعد عمر أيضاً في طابع الأحكام الدينيّة الأوّليّة ، وطبّقت في عصر عثمان .

وقبل أن يموت عمر اختار ستّة من المسلمين كشورى لتعيين الخليفة ، وجعل الأمر على نحو لا يصل فيه عليّ بن أبي طالب عليه السلام إلى الخلافة بكلّ حال من الأحوال ، إذ حدّد ثلاثة أيّام للتشاور ، وأوصى بالعمل بما يقوله عبد الرحمن بن عوف . ولمّا كان عبد الرحمن بن عوف ــ الذي تربطه بعثمان علاقة المصاهرة ــ يعلم أنّ عليّاً عليه السلام لا يعتني ببدع الشيخين ، عرض عليه شرط العمل بسنّة الشيخين بعد مضي ثلاثة أيّام وانتهاء المدّة المحدّدة ، وما أراد بشرطه إلّا أن يلقمه حجراً فقال له : تعمل بكتاب الله وسنّة نبيّه وسيرة الشيخين ؟ فقال عليه السلام : أعمل بكتاب الله وسنّة نبيّه ومبلغ علمي .

فالتفت عبد الرحمن إلى عثمان ، وكان يعرفه جيّداً ، وعرض إليه الشرط المشار إليه ، فقبل به فبايعه .

عندئذٍ قال الإمام عليه السلام لعبد الرحمن : حبوتَهُ ! ليس هذا أوّل يوم تظاهرتهم فيه علينا ،

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَهُ المُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ . (٤) والله ما ولّيت عثمان إلّا ليردّ الأمر إليك ، والله كُلّ يَوْمٍ هُوَ فِي شأْنٍ . (٥)

فقال عبد الرحمن [للإمام] : يا عليّ [بايع و] لا تجعل على نفسك سبيلاً ! فإنّي قد نظرت وشاورت الناس ، (٦) فإذا هم لا يعدلون بعثمان . فخرج عليّ وهو يقول : سَيَبْلُغُ الكِتَابُ أَجَلَهُ . (٧)

فقال المقداد : يا عبد الرحمن ! أَمَا وَاللَهِ لَقَدْ تَرَكْتَهُ مِنَ الّذِينَ يَقْضُونَ بِالحَقّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ . مَا رَأَيْتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ إِلَى أَهْلِ هَذَا البَيْتِ بَعْدَ نَبِيّهِمْ ؛ إنّي لأَعْجَبُ مِنْ قُرَيْشٍ إنّهُمْ تَرَكُوا رَجُلاً مَا أَقُولُ : إنّ أَحداً أَعْلَمُ وَلَا أَقْضَى مَنْهُ بِالعَدْلِ . أَمَا وَاللَهِ لَوْ أَجِدُ عَلَيْهِ أَعْوَاناً . فَقَالَ عَبْدُ الرّحْمَنِ : يَا مِقْدَادُ اتّقِ اللَهَ فَإنّي خَائِفٌ عَلَيْكَ الفِتْنَةَ . (٨)

امتنع أمير المؤمنين عليه السلام من بيعة عثمان . فقال عبد الرحمن : فَلَا تَجْعَلْ يَا عَلِيّ سَبِيلاً إِلَى نَفْسِكَ فَإِنّهُ السّيْفُ لَا غَيْرُ . (٩) ذلك أنّ عمر أوصى بضرب عنق من خالف عثمان . قال الطبريّ : وَتَلَكَأَ عَلِيّ ، فَقَالَ عَبْدُ الرّحْمَنِ : فَمَن نّكَثَ فَإِنّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ . (١٠) و (١١)

لا جرم أنّ عمر كان يستهدف من وراء تشكيل الشورى الستّة : عليّ ، عثمان ، سعد بن أبي وقّاص ، عبد الرحمن بن عوف ، طلحة ، الزبير ، استخلاف عثمان .

ذكر الطبريّ قائلاً : أوصى عمر قائلاً : إذا متّ فتشاوروا ثلاثة أيّام ، وليصلّ بالناس صُهَيْب ، ولا يأتينّ اليوم الرابع إلّا وعليكم أمير منكم ، ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ولا شيء له من الأمر ، وطلحة شريككم في الأمر ، فإن قدم في الأيّام الثلاثة فأحضروه أمركم . وإن مضت الأيّام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم ! ثمّ قال : ومن لي بطلحة ؟ فقال سعد بن أبي وقّاص : أنا لك به ولا يخالف إن شاء الله . فقال عمر : أرجو أن لا يخالف إن شاء الله ، وما أظنّ أن يلي إلّا أحد هذين الرجلين : عليّ ، أو عثمان ؛ فإن ولي عثمان ، فرجل فيه لين ، وإن ولي عليّ ، ففيه دعابة ؛ وأحرّ به أن يحملكم على طريق الحقّ ؛ وإن تولّوا سعداً فأهلها هو ، وإلّا فليستعن به الوالي ، فإنّي لم أعزله عن خيانة ولا ضعف ؛ ونعم ذو الرأي عبد الرحمن بن عوف ، مدبّر ، رشيد له من الله حافظ فاسمعوا منه .

وقال [عمر] لأبي طلحة الأنصاريّ : يا أبا طلحة ، إنّ الله عزّ وجلّ طالما أعزّ الإسلام بكم . فاختر خمسين رجلاً من الأنصار [يضربوا عنق المخالف للشورى !] فاستحث

هؤلاء الرهط حتّى يختاروا رجلاً منهم ! وقال للمقداد بن الأسود : إذا وضعتموني في حفرتي ، فاجمع هؤلاء الرهط حتّى يختاروا رجلاً منهم .

وقال [عمر] لصُهَيْب : صلّ بالناس ثلاثة أيّام ؛ وأدخل عليّاً ، وعثمان ، والزبير ، وسعداً ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة [إن قدم من سفره] وأحضر عبد الله بن عمر ولا شيء له من الأمر ، وقم على رؤوسهم ! فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد ، فاشدَخْ رأسه أو اضرب رأسه بالسيف ! وإن اتّفق أربعة فرضوا رجلاً منهم اثنان فاضرب رؤسهما ! فإن رضي ثلاثة رجلاً منهم ، وثلاثة رجلاً منهم ، فحكّموا عبد الله بن عمر ؛ فأيّ الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم . فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، واقتلوا الباقين إن رغبوا عمّا اجتمع عليه الناس .

فخرجوا [من عند عمر] . فقال عليّ لقوم كانوا معه من بني هاشم : إن أُطيع فيكم قومكم لم تؤمّروا أبداً ! وتلقّاه العبّاس بن عبد المطّلب . فقال عليّ : عُدلت عنّا . فقال العبّاس : وما علمك ؟!

قال [عليّ] : قرن [عمر] بي عثمان وقال : كونوا مع الأكثر ؛ فإن رضي رجلان رجلاً ، ورجلان رجلاً ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف .

فسعد [بن أبي وقّاص] لا يخالف ابن عمّه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن صهر عثمان ، لا يختلفون . فيولّيها عبد الرحمن عثمان أو يولّيها عثمان عبد الرحمن . فلو كان الزبير وطلحة معي ، لم ينفعاني .

بله إنّي لأرجو إلّا أحدهما . (١٢)

إنّ أدنى تأمّل في مضمون ما قاله الطبريّ يوضّح أنّ هدف عمر الوحيد من تشكيل الشورى : استخلاف عثمان . ذلك أنّ عبد الرحمن بن عوف لا يسعه أن يكون منافساً لعثمان في المسرح السياسيّ لما يتمتّع به الأخير من مكانة عند بني أُميّة ، بخاصّة ، انّه صاهر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم مرّتين حتّى قيل له : ذو النورين . (١٣)

ولنا أدلّتنا على ما نقول :

الأوّل : نقل لنا التأريخ أنّ عمر كان يتعامل مع عثمان بإحسان على امتداد السنوات العشر التي حكم فيها ، إذ كان يقرّبه ويستشيره في مهامّه حتّى ظنّ الناس أنّه هو الخليفة الثالث لا محالة ؛ وعلى حدّ تعبير الفرس في محاوراتهم هذا اليوم ، كانوا يعتبرونه الشخص الثاني في الدولة ، إذ كان عمر هو الشخص الأوّل .

قال الطبريّ في تأريخه : وَكَانَ عُثْمَانْ يُدْعَى فِي إمَارَةِ عُمَرَ رَدِيفَاً . قَالُوا : وَالرّدِيفُ بِلِسَانِ العَرَبِ الّذِي بَعْدَ الرّجُلِ . وَالعَرَبُ تَقُولُ ذَلِكَ لِلرّجُلِ الّذِي يَرْجُونَهُ بَعْدَ رَئِيسِهِمْ . (١٤)

الثاني : كان عثمان ضالعاً في أمر الخلافة منذ تسلّم أبي بكر مقاليد الأُمور ، واعترف ببيعته بل وبايعه منذ اليوم الأوّل . وكان أحد المقرّبين . حتّى أنّ أبا بكر عندما سأله عن عمر ، قال له : أنا أعرف بباطنه من ظاهره ، وليس بيننا مثيل له . وهو الذي كتب عهد أبي بكر في استخلاف عمر . فقد ذكر الطبريّ وسائر المؤرّخين أنّ أبا بكر لمّا مرض المرض الذي مات فيه ، دعا عثمان وقال له : اكتب :

بِسْمِ اللَهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ . هَذَا مَا عَهِدَ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ إلى المُسْلِمِينَ : أَمّا بَعْدُ ؛ قَالَ ... ثُمّ أُغْمِيَ عَلَيْهِ فَذَهَبَ عَنْهُ فَكَتَبَ عُثْمَانُ : أَمّا بَعْدُ ؛ فَإنّي اسْتَخْلَفْتُ عَلَيْكُمْ عُمَرَ بْنَ الخَطّابِ وَلَمْ آلُكُمْ خَيْرَاً مِنْهُ .

ثُمّ أَفَاقَ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ : اقْرَأْ عَلَيّ ! فَقَرَأَ عَلَيْهِ . فَكَبّرَ أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ : أَرَاكَ خِفْتَ أَنْ يَخْتَلِفَ النّاسُ إنِ افْتَلَتَتْ نَفْسِي فِي غَشْيَتِي ؟! قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : جَزَاكَ اللَهُ خَيْرَاً عَنِ الإسْلَامِ وَأَهْلِهِ . وَأَقَرّهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَهُ تَعَالَى عَنْهُ مِنْ هَذَا المَوْضِعِ . [١٥]

لقد منّ عثمان على عمر في ما قام به من عمل . وبهذا أرسى دعائم خلافته . ومن هذا المنطلق ، نرى عمر يرفع عثمان إلى الخلافة تقديراً لخدماته التي أسداها له ، وتحقيقاً لهدف رئيس كان في نفسه . فسلّط ــ بعمله هذا ــ بني أُميّة ، الذين كانوا عقبة كبيرة في طريق بني هاشم ، على رقاب المسلمين أكثر من قرن .

روى أبو العبّاس [١٦] أحمد المشهور بالمحبّ الطبريّ عن عبد الله بن عمر أنّه قال :

لَمّا طُعِنَ عُمَرُ قُلْتُ : يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ لَوْ اجْتَهَدْتَ بِنَفْسِكَ وَأَمّرْتَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً ؟! قَالَ : أَقْعِدُونِي . قَالَ عَبْدُ اللَهِ : فَتَمَنّيْتُ لَوْ أَنّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ عَرْضَ المَدِينَةِ فَرَقَاً مِنْهُ حِينَ قَالَ أَقْعِدْنِي . ثُمّ قَالَ : وَالّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَرُدّنّهَا إلَى الّذِي دَفَعَهَا إلَيّ أَوّلَ مَرّةٍ . خَرّجَهُ أَبُو زَرْعَةَ فِي كِتَابِ «العِلَلِ» . [١٧]

ونعلم من هذه الرواية أنّ عثمان كان وراء انتقال الخلافة إلى عمر في مرض أبي بكر .

وروى محبّ الدين الطبريّ أيضاً حسب تخريج رواية خَيْثَمَة بن سُلَيْمَان في كتاب «فضائل الصحابة» عن حُذَيفَة ، قال : قِيلَ لِعُمَرَ وَهُوَ بِالمَوْقِفِ : مَنِ الخَلِيفَةُ بَعْدَكَ ؟! قَالَ : عُثْمَانُ بْنُ عَفّانٍ . [١٨]

وذكر الطبريّ أيضاً عن حارثة بن مضرب ، قال : حَجَجْتُ مَعَ عُمَرَ فَكَانَ الحَادِي يَحْدُو : إنّ الأَمِيرَ بَعْدَهُ عُثْمَانُ . [١٩]

وقال الملّا المتّقيّ في «كنز العمّال» : لمّا سئل أبو حفص عمر بن الخطّاب في المدينة : مَنِ الخليفة بعدك ؟! قال : عثمان . [٢٠]

الثالث : كان عمر شديد الكُرْهِ لخلافة بني هاشم . ويستبين كرهه من خلال مطالعة الموضوعات التي عرضناها في هذا الجزء من كتابنا «معرفة الإمام» . وهو بيّن لا غبار

عليه ، وذلك من حواره مع ابن عبّاس ، وقوله : إنّ قريشاً لا ترضخ لبني هاشم . بَيدَ أنّه طالما ينقل رأيه في هذه المجالات عن لسان الآخرين ويلقي التبعة على قريش ، كما نقرأ ذلك في قوله للأنصار يوم السقيفة : وَاللَهِ لَا تَرْضَى العَرَبُ أَنْ يُؤَمّرُوكُمْ وَنَبِيّهَا مِنْ غَيْرِكُمْ . (٢١)

إنّ قصده من العرب هو ذاته لا غير ، لأنّ قريشاً لو مالأت الأنصار فلا ضير على العرب حينئذٍ . ولمّا كان عمر قد أدرك جيّداً أنّ أحداً لا يستطيع الوقوف بوجههم مثله ، لذلك حبّب إلى نفسه أن تكون الإمارة في أكبر فئة منافسة لبني هاشم ، ألا وهم بنو أُميّة الذين انقرضت رئاستهم بظهور الإسلام ، والذين كانت قلوبهم مليئة بالإحن والشنآن ضدّ عليّ بن أبي طالب وأهل بيته . وتعاهد عمر تلك الشجرة الملعونة بالسقي والرعاية ما وسعه الجهد . وكان يدّخرهم ليوم لو قدّر لبني هاشم فيه أن يدافعوا عن حقّهم ، ويستعيدوا موقعهم ومكانتهم ، فإنّ بني أُميّة : منافسيهم المقتدرين الوحيدين سيقفون حجر عثرة ولا منيع دون نيل مناهم .

لقد ولّى عمرُ معاويةَ بن أبي سفيان [على] الشام بعد أخيه يزيد بن أبي سفيان ، (٢٢) وسافر إلى الشام بنفسه لتوطيد أركان حكومته ، وحثّ الناس على اتّباع معاوية ، حتّى يتحقّق هدفه عمليّاً في يوم الفتنة والخلاف ــ الفتنة والخلاف اللذين يتوقّعهما من معاوية ــ ولا يتسنّى لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وأهل بيته وأنصاره أن يرفعوا لواء المعارضة ويصمدوا أمامه .

يقول ابن حجر الهيتميّ في حديثه عن فضائل معاوية : وَمِنْهَا : أَنّ عُمَرَ حَضّ النّاسَ عَلَى اتّبَاعِ مُعَاوِيَةَ وَالهِجْرَةِ إلَيْهِ إلَى الشّامِ إذَا وَقَعَتْ فُرْقَةٌ . أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي الدّنْيَا بِسَنَدِهِ : أَنّ عُمَرَ قَالَ : إيّاكُمْ وَالفُرْقَةَ بَعْدِي فَإنْ فَعَلْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنّ مُعَاوِيَةَ بِالشّامِ . فَإذَا وُكِلْتُمْ إلَى رَأْيِكُمْ كَيْفَ يَسْتَبِزّهَا مِنْكُمْ . (٢٣)

ونحن نرى أنّ معاوية المدعوم هذا لم يحترم المهاجرين والسابقين إلى الإسلام . فلمّا سخط الناس على عثمان وعابوه ، وأحصوا سلبيّاته ، وبيّنوا التغييرات التي أحدثها ، وكثرت المؤاخذات عليه ، وتهيّأت أرضيّة الاضطرابات لإسقاطه أو استتابته بترك الإسراف في بيت المال ، والكفّ عن محاباة أرحامه وأقاربه به ، توجّه معاوية إلى المدينة لتعزيز موقع عثمان وتشجيعه على الانحراف والإعلان عن دعمه وتحذير المهاجرين وإبعادهم .

يقول ابن قتيبة الدينوريّ : صعد عثمان المنبر وقال : أَمَا وَاللَهِ يَا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ ! لَقَدْ عِبْتُمْ عَلَيّ أَشْيَاءَ ، وَنَقَمْتُمْ أُمُوراً قَدْ أَقْرَرْتُمْ لابْنِ الخَطّابِ مِثْلَهَا ! وَلَكِنّهُ وَقَمَكُمْ وَقَمَعَكُمْ ، وَلَمْ يَجْتَرِئ مِنْكُمْ أَحَدٌ يَمْلأُ بَصَرَهُ مِنْهُ وَلَا يُشِيرُ بِطَرْفِهِ إلَيْهِ ! أَمَا وَاللَهِ لَأَنَا أَكْثَرُ مِنِ ابْنِ الخَطّابِ عَدَداً ، وَأَقْرَبُ نَاصِراً وَأَجْدَرُ ــ إلَى أَنْ قَالَ لَهُمْ ــ أَتَفْقِدُونَ مِنْ

حُقُوقِكُمْ شَيْئاً ؟ فَمَا لِي لَا أَفْعَلُ فِي الفَضْلِ مَا أُرِيدُ ؟ فَلِمَ كُنْتُ إِمَاماً إِذاً ؟ أَمَا وَاللَّهِ غَابَ عَلَيّ مَنْ عَابَ مِنْكُمْ أَمْرَاً أَجْهَلُهُ ! وَلَا أَتَيْتُ الَّذِي أَتَيْتُ إِلَّا وَأَنا أَعْرِفُهُ ! (٢٤)

يقول ابن قتيبة ، وقدم معاوية ابن أبي سفيان على أثر ذلك من الشام فأتى مجلساً فيه عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ وَالزّبَيْرُ بْنُ العَوّامِ وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقّاصٍ وَعَبْدُ الرّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَعَمّارُ بْنُ يَاسِرٍ ، فَقَالَ لَهُمْ : يَا مَعْشَرَ الصّحَابَةِ أُوصِيكُمْ بِشَيْخِي هَذَا خَيْرَاً ! فَوَ اللهِ لَئِنْ قُتِلَ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ لَأَمْلَأَنّهَا عَلَيْكُمْ خَيْلاً وَرِجَالاً .

ثُمّ أَقْبَلَ عَلَى عَمّارِ بْنِ يَاسِرٍ فَقَالَ : يَا عَمّارُ ! إِنّ بِالشّامِ مِائَةَ أَلْفِ فَارِسٍ كُلّ يَأْخُذُ العَطَاءَ مَعَ مِثْلِهِمْ مِنْ أَبْنَائِهِمْ وَعُبْدَانِهِمْ . لَا يَعْرِفُونَ عَلِيّاً وَلَا قَرَابَتَهُ ، وَلَا عَمّاراً وَلَا سَابِقَتَهُ ، وَلَا الزّبَيْرُ وَلَا صَحَابَتَهُ ، وَلَا طَلْحَةَ وَلَا هِجْرَتَهُ ، وَلَا يَهَابُونَ ابْنَ عَوْفٍ وَلَا مَالَهُ ، وَلَا يَتّقُونَ سَعْدَاً وَلَا دَعْوَتَهُ . (٢٥)

نرى هنا أنّ خطّة عمر قد نفّذت تماماً ، إذ يبرز معاوية عضلاته ويتنمّر ويكشّر عن أنيابه مهدّداً بمائة ألف مقاتل ، ويقف أمام المهاجرين وأتباع الحقّ وإمامهم أمير المؤمنين ، ويهزأ بالمقدّسات الإسلاميّة من قُربى ، وسابقة ، وصحبة ، وهجرة ، ودعوة علناً . ويقول : إنّ حكومة بني أُميّة التي يرأسها في الشام ، والتي نشأت برعاية عمر تدعم عثمان على الرغم من كلّ ما أحدثه ، وهي مستعدّة للمواجهة مهما كلّف الأمر . أجل ، فإنّ عمر لم يتحمّس من أجل الإسلام والهجرة ، بل كان قلقاً على عِزّة العرب . كان يريد إعزاز العرب وتسويدهم وجعلهم حكّاماً على غيرهم . وكان إبداء رغبته في الإسلام تمهيداً لهذا الهدف . ذلك أنّ الإسلام هو الذي أعزّ العرب . وكان عمر يعلم أنّ معاوية هو وحده القادر على توطيد الحكومة العربيّة . وكان مطّلعاً على تفرعنه ونخوته واستكباره وجدّيته في إقرار الحكومة الكسرويّة العربيّة وترسيخ الإمبراطوريّة العربيّة .

نقل ابن حجر العسقلانيّ عن البَغَويّ ، عن عمّه ، عن الزبير أنّه قال :

حَدّثَنِي مُحَمّدُ بْنُ عَلِيّ قَالَ : كَانَ عُمَرُ إِذَا نَظَرَ إِلَى مُعَاوِيَةَ قَالَ : هَذَا كِسْرَى العَرَبِ . (٢٦) و (٢٧)

وذكر ابن سعد عن المدائنيّ أنّه قال : نَظَرَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَهُوَ غُلَامٌ فَقَالَ : إِنّ ابْنِي هَذَا لَعَظِيمُ الرّأْسِ ، وَإِنّهُ لَخَلِيقٌ أَنْ يَسُودَ قَوْمَهُ . فَقَالَتْ هِنْدٌ : قَوْمَهُ فَقَط ؟ ثَكِلْتُهُ إِنْ لَمْ يَسُدِ العَرَبَ قَاطِبَةً . (٢٨)

إنّ الإسلام الذي هو دين المحبّة والتواضع والإيثار والمساواة بين الناس . ولا فرق بين ضعيفهم وفقيرهم ومسكينهم ويتيمهم وعاجزهم وعجمهم ومواليهم ، وغير هؤلاء كلّهم في كفّة واحدة ، وهذا الضرب من الكسرويّة والإمبراطوريّة بغلالة الإسلام في وادٍ . والخُلُق المحمّديّ ، والعطف العلويّ في وادٍ آخر ، والغلظة والفظاظة العُمَريّة ، ونكراء معاوية وتحايله طريق آخر .

فلهذا يمكن أن نقول : إنّ ما حكم من الإسلام على العالم حتّى الآن سواء في عهد عمر أو عثمان أو بني أُميّة أو بني العبّاس هو حكم ذو طابع عُمَريّ ، وكان الإسلام تحت غطاء هذه الغلظة والسيادة وهذا اللون من الإمارة . وما حكم منه في طابعه الصحيح المستقيم من العدل بين الطبقات وسائر الميزات والآثار الواقعيّة فقد كان في عهد رسول الله وأمير المؤمنين لا غير . وها هو العالم اليوم ينتظر أن تسود الوحدة والأُخوّة وتواضع الأُمراء ، وتتحقّق العدالة والمساواة بين جميع الضعفاء والمحرومين من كلّ الطبقات بقيام قائم آل محمّد : الحجّة بن الحسن العسكريّ أرواحنا فداه .

إنّ هذا النهج العُمرَيّ معاكس للنهج العَلَويّ تماماً . فلهذا نلحظ عمر سواء كان حيّاً أم ميّتاً لا يطيق أن يرى عليّاً في مقام الرئاسة والإمارة والخلافة .

روى ابن عبد ربّه بسنده عن هشام بن عُروة ، عن أبيه عروة قال : لمّا طعن عمر ، قيل له : لو عهدتَ ؟ ثمّ نقل كلاماً عن عمر ، حتّى بلغ إلى ما قيل له ثانية : يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ! لَو عَهِدتَ . فَقَالَ : لَقَدْ كُنْتُ أَجْمَعْتُ بَعْدَ مَقَالَتِي لَكُمْ أَنْ أُوَلّيَ رَجُلاً أَمْرَكُمْ أَرْجُو أَنْ يَحْمِلَكُمْ عَلَى الحَقّ ــ وَأَشَارَ إلَى عَلِيّ ــ ثُمّ رَأَيْتُ أَنْ لَا أَتَحَمّلَهَا حَيّاً وَمَيّتاً . (٢٩)

وروى البلاذُريّ عن عمرو بن ميمون أنّه قال : كنت شاهداً لعمر يوم طعن . فأرسل على عليّ ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقّاص . وبعد أن تكلّم معهم ، قال : ادعوا لي صهيباً ، فدعي فقال له : صلّ بالناس ثلاثاً ، وليخل هؤلاء النفر في بيت حتّى يجتمعوا على رجل . فمن خالف بعد الاجتماع ، فاضربوا رأسه !

ولمّا خرجوا من عنده ، قَالَ : لَوْ وَلّوْهَا الأَجْلَحَ سَلَكَ بِهِمُ الطّرِيقَ . قَالَ ابْنُ عُمَرَ : فَمَا يَمْنَعَكَ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ؟! قَالَ : لَا أَتَحَمّلُهَا حَيّاً ومَيّتَاً . (٣٠)

وروى ابن عبد البرّ هذا المضمون عن عمر . (٣١)

وبعد أن ذكر محبّ الدين الطبريّ ما رواه عن عمرو بن ميمون في ما يخصّ عليّ بن أبي طالب ، قال : هذا الحديث أخرجه النسائيّ . ونقل هناك أيضاً أنّ عمر قال : للّهِ دَرّهُمْ إنْ وَلّوْهَا الأُصَيْلِعَ كَيْفَ يَحْمِلُهُمْ عَلَى الحَقّ وَإنْ كَانَ السّيْفُ عَلَى عُنُقِهِ ! قَالَ مُحَمّدُ بْنُ كَعْبٍ : فَقُلْتُ : أَتَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ وَلَا تُوَلّيهِ ؟! فَقَالَ : إنْ تَرَكْتُهُمْ فَقَدْ تَرَكَهُمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنّي . (٣٢)

لمّا استبان من تضاعيف البحث أنّ عمر لم يقصد خلافة عليّ قطّ وإنّما قصد خلافة عثمان . فعلينا أن نرى : لماذا لم يوص بالخلافة لعثمان مباشرة ، وترك الأمر شورى ليُخْتَار عثمان في آخر المطاف ؟ وجوابنا أنّ لهذا العمل أسباباً هي :

الأوّل : ساوت الشورى بين عليّ وبين أشخاص آخرين لم يكونوا بمستواه ، فجعلت له نظائر لا تقاس به . وهذا التدبير السيّئ لم يحرم عليّاً من حقّه الثابت فحسب ، بل وجرّأ

الزبير وطلحة على التفكير بالخلافة بعد قتل عثمان ، وعلى الوقوف بوجه عليّ ومناوءته ، وإقلاق حكومته الفتيّة بإشعال حرب الجمل . ومن وراء الجمل صفّين التي أنتجت النهروان ، ومن ثمّ اغتياله في محراب العبادة من قبل أحد المعارضين النهروانيّين .

الثاني : كان عمر قد رأى تخلّف عليّ والزبير عن بيعة أبي بكر ونتائج ذلك التخلّف ، وكذلك كان مطّلعاً على مؤاخذة طلحة أبا بكر عندما جعل عمر خليفة ، [٣٣] فلهذا جمع المعارضين في مجلس واحد باسم الشورى للحؤول دون بروز الخلاف ، وسلّط عليهم خمسين مسلّحاً للوقاية من خطر الانشقاق ، وأجبرهم على البيعة أو القتل ، وحينئذٍ تزول العقبات في طريق خلافة عثمان .

الثالث : كان عمر يعرف عثمان جيّداً ، وكان يرى تعامله مع المسلمين ؛ فلهذا كان يقول مراراً : أخاف أن يسلّط قومه وآل مُعيط على الأُمّة . فتفادى من تعيينه تعييناً مباشراً ، وأوكل ذلك إلى الشورى ليقع القدح واللوم عليها وعلى ما يراه عبد الرحمن ، ويحافظ بذلك على قدسيّته وشعبيّته .

الرابع : أراد عمر أن يمنّ على أعلام المهاجرين منّة صوريّة ظاهريّة ، فجمعهم في الشورى ليغلق منافذ العتاب والتقريع ضدّه .

الخامس : تخلّص عمر من الاستبداد في التعيين كما يبدو ، وجعل شورى الحلّ والعقد مركزاً لاتّخاذ القرار واختيار الخليفة . وهذا أمر كان عمر يعوّل عليه من قبل . وكان يقول : الخلافة بالشورى ، وذلك ليحول دون بيعة الناس عليّ بن أبي طالب عليه السلام بعد موته .

نقل ابن هشام في سيرته عن عبد الرحمن بن عوف أنّه قال : عندما كان عمر بمنى ، قال له رجل : يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ! هَلْ لَكَ فِي فُلَانٍ يَقُولُ : وَاللَهِ لَوْ قَدْ مَاتَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ لَقَدْ بَايَعْتُ فُلَاناً . وَاللَهِ مَا كَانَتْ بَيْعَةُ أَبِي بَكْرٍ إلّا فَلْتَةً فَتَمّتْ ؟

قال : فغضب عمر [لذلك] فقال : إن شاء الله لقائم العشيّة في الناس فمحذّرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمرهم .

قال عبد الرحمن : فقلت : يا أمير المؤمنين ! لا تفعل ، فإنّ الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم ؛ ... فأمهلْ حتّى تقدم المدينة فإنّها دار السنّة وتخلّص بأهل الفقه وأشراف الناس فتقول ما قلت متمكّناً ! فيعي أهل الفقه مقالتك ويضعوها على مواضعها .

فقال عمر : والله إن شاء الله لأقومنّ بها أوّل مقام أقومه بالمدينة . ثمّ نقل ابن هشام أشياء عن ابن عبّاس ، وقال بعدها :

فلمّا قدم عمر المدينة ، خطب في أوّل جمعة صعد فيها المنبر ، وقال في خطبته : إنّهُ قَدْ بَلَغَنِي أنّ فُلَاناً قَالَ : وَاللَهِ لَوْ قَدْ مَاتَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ لَقَدْ بَايَعْتُ فُلَاناً . فَلَا يَغُرّنّ امْرءاً أَنْ يَقُولَ : إنّ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ فَلْتَةً فَتَمّتْ . وَإنّهَا قَدْ كَانَتْ كَذَلِكَ إلّا أَنّ اللَهَ قَدْ وَقَى

شَرّهَا . ولَيْسَ فِيكُمْ مَنْ تَنْقَطِعُ الأَعْنَاقُ إلَيْهِ مِثْلَ أَبِي بَكْرٍ . فَمَنْ بَايَعَ رَجُلاً مِنَ المُسْلِمِينَ بِغَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ المُسْلِمِينَ فَإنّهُ لَا بَيْعَةَ لَهُ هُوَ وَلَا الّذِي بَايَعَهُ تَغِرّةً أَنْ يُقْتَلَا . (٣٤)

وروى ابن أبي الحديد ، عن الجاحظ أنّهُ قَالَ : إنّ الرّجُلَ الّذِي قَالَ : لَوْ قَدْ مَاتَ عُمَرُ لَبَايَعْتُ فُلَاناً ، عمّارُ بْنُ يَاسِرٍ . قَالَ : لَوْ قَدْ مَاتَ عُمَرُ لَبَايَعْتُ عَلِيّاً . فَهَذَا القَوْلُ هُوَ الّذِي هَاجَ عُمَرَ أَنْ خَطَبَ مَا خَطَبَ بِهِ . (٣٥)

وعلى هذا فإنّ خطّة الشورى بالشكل الخاصّ الذي يحول دون وصول عليّ إلى الخلافة قد دبّرت من قبل لا محالة ، وقد نسجت خيوطها وحُبكت خصوصيّاتها قبل ذلك الوقت ، وحينئذٍ نجد أنّ خبر هذه المسائل ، ودليل عمر في خطبته التي ألقاها في المدينة بعدما حاوره عبد الرحمن بن عوف في منى ، وتخويله عبد الرحمن بن عوف صهر عثمان حقّ التعيين المصطلح عليه اليوم : حقّ الفيتو (الاعتراض) في شورى الستّة لإبطال رأي الفريق المخالف ، وكلّ أُولئك كان قد وضعت لبناته من قبل . ولا نرتاب أنّ الحؤول دون تصميم عمّار بن ياسر ، والزبير بن العوّام على بيعة عليّ قد اتّخِذَ قراره منذ الوهلة الأُولى للأحداث .

روى البلاذريّ ، عن الواقديّ ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عمر أنّه قَالَ : إنّ رِجَالاً يَقُولُونَ : إنّ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ فَلْتَةً وَقَى اللهُ شَرّهَا ، وَإنّ بَيْعَةَ عُمَرَ كَانَتْ مِنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ . وَالأَمْرُ بَعْدِي شُورَى ؛ فَإذَا اجْتَمَعَ رَأْيُ أَرْبَعَةٍ فَلْيَتّبِعِ الاثْنَانِ الأَرْبَعَةَ . وَإذَا اجْتَمَعَ رَأْيُ ثَلَاثَةٍ وَثَلَاثَةٍ فَاتّبِعُوا رَأْيَ عَبْدِ الرّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ؛ فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ! وَإنْ صَفّقَ عَبْدُ الرّحْمَنِ بِإحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الأُخْرَى فَاتّبِعُوهُ . (٣٦)

وكذلك روى البلاذريّ عن أبي مخنف حول كيفيّة التصويت والشورى التي عيّنها عمر ، بعد عرضه أُموراً تتعلّق بالموضوع ، أنّ عمر قال : وَإنْ كَانُوا ثَلَاثَةً (وَثَلَاثَةً) كَانُوا مَعَ الثّلَاثَةِ الّذِينَ فِيهِمْ ابْنُ عَوْفٍ إذْ كَانَ الثّقَةَ فِي دِينِهِ وَرَأْيِهِ المَأْمُونَ لِلِاخْتِيَارِ عَلَى المُسْلِمِينَ . (٣٧)

وروى البلاذريّ أيضاً عن هشام بن سَعْد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه أنّ عمر قال : إنِ اجْتَمَعَ رَأْيُ ثَلَاثَةٍ وَثَلَاثَةٍ فَاتّبِعُوا صِنْفَ عَبْدِ الرّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ! (٣٨)

ونقل الملّا عليّ المتّقيّ عن محمّد بن جُبَير ، عن أبيه أنّ عُمَرَ قَالَ : «إنْ ضَرَبَ عَبْدُ الرّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ إحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الأُخْرَى فَبَايِعُوهُ» . وَعَنْ أَسْلَمَ أَنّ عُمَرَ بْنَ الخَطّابِ قَالَ : «بَايِعُوا لِمَنْ بَايَعَ لَهُ عَبْدُ الرّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ؛ فَمَنْ أَبَى فَاضْرِبُوا عُنُقَهُ» . (٣٩)

لنا أن نسأل هنا : هل كان عبد الرحمن بن عوف ثقة في دينه ورأيه ، ومأموناً للاختيار على المسلمين ، ولم يكن عليّ بن أبي طالب كذلك ؟ لماذا لم يُخَوّل هذا الحقّ ؟ أو أنّ المراد بالأمانة للاختيار على المسلمين ، والثقة في الدين والرأي ما يرضاه عمر

ويستصوبه ، لا ما يقتضيه العموم والإطلاق ؟ فيصبح مفاده ومؤدّاه : أنّي أُؤيّد رأي ابن عوف ، وفكره ودينه .

ثانياً : لماذا لم يُدْخِل عمر في الشورى وجوه المهاجرين من خاصّة الصحابة مثل عَمّارِ بْنِ يَاسِرٍ ، وَسَلْمَان الفَارِسِيّ ، وَالمِقْدَادِ بْنِ الكِنْدِيّ ، وَحُذَيْفَة ذِي الشّهَادَتَيْنِ ، وَابْنِ الخَيْثَمِ التّيّهَانِ ، وأمثالهم ؟ هؤلاء كانوا أنصار أمير المؤمنين عليه السلام والمضحّين من أجله والمخلصين له ، ونقل عنهم التأريخ وكتب السير حكايات تثني على عقلهم وتدبيرهم ودرايتهم ودينهم وأمانتهم .

ثالثاً : لماذا عيّن عمر هذه الشورى ؟ هو فرد كسائر المسلمين ، وتشكيل الشورى ينبغي أن يكون حرّاً وتحت إشراف جميع المسلمين بواسطة أهل الحلّ والعقد منهم ، لا أن يكون تشكيلها من قبل شخص معيّن . وهل لهذا النمط من تشكيل الشورى الذي رتّبه عمر بنفسه أثر أكبر من تعيين شخص خاصّ للإمارة ؟ ما هو الفرق إذَن بين أن يعيّن عثمان مباشرة منذ البداية ، وبين أن يعيّنه بواسطة الشورى ؟ ولو تغاضينا عن ذلك وافترضنا عدم وصول عثمان إلى الخلافة في هذه الشورى ، بل وصول شخص آخر غيره كأمير المؤمنين عليه السلام مثلاً ، فهل تكون الشورى صحيحة وحرّة ؟ تلك الشورى المقيّدة والمحدودة برأيه وتعيينه . وما هو حقّ عمر في تشكيل مثل هذه الشورى ؟ وهل هناك فرق بين هذه الشورى وبين مجلس الشيوخ الذي كان يعيّن الشاه [محمّد رضا بهلوي] نصف أعضائه ؟

رابعاً : أنّى لعمر مثل هذه الشورى ؟ ولو كان قد أخذها من السنّة النبويّة ، فإنّه يصرّ أنّ رسول الله لم يعيّن أحداً ، ولم ينصّب عليّ بن أبي طالب ، بل ترك للأُمّة اختيارها في نصب الخليفة . فكان لعمر أن يتأسّى بهذه السنّة المزعومة ويترك الأُمّة حرّة في تعيين خليفتها حتّى تختار أمير المؤمنين عليه السلام ! فلماذا سلب من الأُمّة اختيارها ، وعزل أمير المؤمنين عليه السلام من خلال وصيّته بتشكيل مثل هذه الشورى ؟

ومن الواضح ــ إذَن ــ أنّ إقحام أمير المؤمنين عليه السلام في الشورى لم يكن حبّاً له باحتمال تعيينه ، بل كان ذلك لإلزامه وإجباره على الرضوخ لخلافة الشخص المنتخب . وما قصد عمر من قتل المعارض إلّا شخص الإمام نفسه ، لأنّ المعارضين ــ في ضوء خطّة عمر ــ وهم أشخاص آخرون لا يمكن أن يكونوا في الشورى فيقتلوا ؛ وبناءً على هذا ، جعل أمير المؤمنين عليه السلام بين أمرين لا غير : إمّا التسليم لحكم عبد الرحمن بن عوف ، وإمّا القتل فيتحقّق الخروج من حلبة الصراع بموته . وكانت هذه الخطّة قد دبّرت ورسمت بشكل عجيب .

أجل ، فإنّ جميع المفاسد والخلافات قد انبثقت عن هذه الشورى ، وكلّ ما حلّ بالمسلمين من مصائب كان بسببها . ومن الضروريّ أن نشير هنا إلى قصّة دقيقة نقلها

ابن عبد ربّه الأندلسيّ في «العقد الفريد» قال : «ذكروا أنّ زياداً أوفد ابن حصين على معاوية فأقام عنده ما أقام . ثمّ إنّ معاوية بعث إليه فخلا به فقال له : يا بن حصين قد بلغني أنّ عندك ذهناً وعقلاً ! فأخبرني عن شيء أسألك عنه ! قال : سلني عمّا بدا لك . قال [معاوية] : أخبرني ما الذي شتّت أمر المسلمين وأبلاهم وخالف بينهم ؟ قال : قتل الناس عثمان ! قال : ما صنعتَ شيئاً . قال [ابن حصين] : فمسير طلحة والزبير وعائشة وقتال عليّ إيّاهم . قال : ما صنعتَ شيئاً . قال : ما عندي غير هذا . قال [معاوية] : فأنا أخبرك به ، إنّه لم يشتّت بين المسلمين ، ولا فرّق أهواءهم إلّا الشورى التي جعلها عمر إلى ستّة نفر . وذلك أنّ الله بعث محمّداً بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون ، فعمل بما أمره الله به ثمّ قبضه الله إليه ، وقدّم أبا بكر للصلاة فرضوه لأمر دنياهم إذ رضيه رسول الله لأمر دينهم .

فعمل أبو بكر بسنّة رسول الله ، وسار بسيره حتّى قبضه الله ، واستخلف عمر فعمل بمثل سيرته ، ثمّ جعلها [عمر] شورى بين ستّة نفر فلم يكن رجل منهم إلّا رجاها لنفسه ورجاها له قومه . وتطلّعت إلى ذلك نفسه . ولو أنّ عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان في ذلك اختلاف» . (٤٠)

علمنا ممّا تقدّم أنّ تصرّف عمر في الدين ليس تصرّفاً في مسائل جزئيّة ، بل هو تصرّف في مسائل جوهريّة وجذريّة ، ولا زال ذلك التصرّف قائماً بين أتباعه حيث لا يزال يأفل نجم الحقّ والولاية ، وتتوارى الحقيقة خلف حجاب الغيب على كرور الأيّام .

ولمّا كانت التغييرات التي أحدثها عمر في الدين يُنْظَر إليها بوصفها تعاليم دينيّة ، فإنّ أتباعه ينظرون إليه بوصفه قدّيساً ، ويحترمون سنّته كاحترام سنّة النبيّ صلّى الله عليه وآله ، مع أنّ العقل والشرع والضمير ، كلّ أُولئك يحكم بأن لا شيء جدير بالاتّباع غير الوحي الإلهيّ . وما لزوم اتّباع الأنبياء إلّا لأنّهم يمثّلون وسائط الاتّصال بعالم الغيب . وما عدا ذلك ، فإنّ التقليد الأعمى مدان في جميع المراحل . ولقد تلاعب عمر بمنهج رسول الله ، وأتى بأشياء من عنده ، عرفت بسنّة عمر ، وإذا ألحقنا بها الأشياء التي أحدثها الخليفة الأوّل ، فإنّها تعرف بسنّة الشيخين .

ويستبين من هنا أنّ ضرر عمر على الإسلام الحقيقيّ والسنّة المحمّديّة كان أشدّ من ضرر أبي سفيان ، وأبي لهب ، وأبي جهل ، ونظائرهم . لأنّ هؤلاء ــ مع جميع العراقيل التي وضعوها في طريق الرسالة ، وكافّة الحروب والمصائب التي أنزلوها بالإسلام والمسلمين ، لاسيّما برسول الله ــ كانوا يقصدون صدّ رسول الله عن هدفه ظاهراً ، وعدم تقدّم الإسلام في حقل الحكومة والرئاسة . وكانوا يطمحون أن يكونوا هم الرؤساء لا رسول الله . أمّا عمر فقد حال دون المعنويّة والولاية والعاطفة الإسلاميّة . وخلط سنّته بالدين ، فقدّم إلى الأُمّة مزيجاً مغشوشاً . وأحدث عمر ثغرة في معنويّة

الإسلام ، وفرض نهجه على الناس في غِلالة الدين . فلهذا نرى أنّ نهج أبي سفيان وأمثاله قد امّحى ولا نصير له في العالم ، بَيدَ أنّ نهج عمر لا زال قائماً ، حتّى تعذّر إقناع المسلم السنّيّ بأنّ نهجه لا يقوم على دليل ، وليس له حجّيّة شرعيّة . فالحجّة كتاب الله وسنّة رسول الله لا غير .

من هذا المنطلق ، شُبّه عمر في الروايات الشيعيّة بالسامريّ في قوم موسى ، لأنّ السامريّ أحدث في دين موسى على الصعيد المعنويّ ، ودعا ببني إسرائيل إلى عبادة العِجْل . أنّه لم يكن حاكماً متعطّشاً للحكومة الظاهريّة الشكليّة فحسب ، ذلك أنّ تأثير حبّ الرئاسة على الناس ، لا سيّما الرئاسة المعنويّة ، أكبر وأشدّ من تأثير سائر المعاصي ، وأنّه يقتاد صاحبه إلى هاوية السقوط والبوار والهلاك بأسرع ما يكون ، ويضيع جميع المتاعب والجهود والعبادات والجهاد فيما مضى ، ويترك ذلك كلّه طعمة لحريق الهوى .

نقرأ للإمام محمّد الغزّاليّ بحثاً يحوم حول الترتيب في خلافة الخلفاء ، هل هي بالنصّ أو بالإرث ، وذلك في المقالة الرابعة من كتابه : «سرّ العالمين» إلى أن يبلغ قوله :

لَكِنْ أَسْفَرَتِ الحُجَّةُ وَجْهَهَا وَأَجْمَعَ الجَمَاهِيرُ عَلَى مَتْنِ الحَدِيثِ فِي يَوْمِ غَدِيرِ خُمّ بِاتّفَاقِ الجَمِيعِ ، وَهُوَ يَقُولُ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ : «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيّ مَوْلَاهُ» ؛ فَقَالَ عُمَرُ : بَخٍّ بَخٍّ لَكَ يَا أَبَا الحَسَنِ لَقَدْ أَصْبَحْتَ مَوْلَايَ وَمَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ .

فَهَذَا تَسْلِيمٌ وَرِضَىً وَتَحْكِيمٌ . ثُمّ بَعْدَ هَذَا غَلَبُ الهَوَى لِحُبّ الرّيَاسَةِ ، وَحَمْلِ عَمُودِ الخِلَافَةِ ، وَعُقُودِ البُنُودِ ، وَخَفَقَانِ الهَوَى فِي قَعْقَعَةِ الرّايَاتِ ، وَاشْتِبَاكِ ازْدِحَامِ الخُيُولِ ، وَفَتْحِ الأَمْصَارِ سَقَاهُمْ كَأْسَ الهَوَى ، فَعَادُوا إِلَى الخِلَافِ الأَوّلِ ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ . (٤١)

وَلَمّا مَاتَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ قَالَ قَبْلَ وَفَاتِهِ : إِيْتُونِي بِدَوَاةٍ وَبَيَاضٍ لِأُزِيلَ عَنْكُمْ إِشْكَالَ الأَمْرِ ، وَأَذْكُرَ لَكُمْ مَنِ المُسْتَحِقّ لَهَا بَعْدِي .

قَالَ عُمَرُ : دَعُوا الرّجُلَ فَإِنّهُ لَيَهْجُرُ ـــ وَقِيلَ : يَهْذُو . (٤٢)

لقد أعطى الإمام الغزّاليّ هذا الموضوع حقّه عبر كلامه المقتضب المارّ ذكره ، وكشف الحقيقة . وكان هذا الدرك والفهم ـــ طبعاً ـــ من بركات ترك هوى النفس ، وحبّ الرئاسة ، والتنازل عن مقامه المتمثّل بحجّة الإسلام ، وترك رئاسة المدرسة النظاميّة ببغداد ، وجميع المناصب الدنيويّة من تدريس ، وإفتاء ، وقضاء ، وإصلاح ذات البين ، وغيرها من الشؤون الدينيّة على أساس الفقه الشافعيّ ، إذ اختار العزلة في الشام عشر سنين ، وانشغل بالرياضات الشرعيّة لتصفية باطنه ، وجلا جوهر نفسه بمخالفة النفس الشيطانيّة والاستمداد من النفحات الرحمانيّة ، واجتاز الموهومات والتحق بالحقّ ، ونزع عن المجاز إلى الحقيقة . كما يستبين ذلك من مطاوي كتابه الذي حرّره بعد رجوعه من الشام على شكل رسالة أسماها : «المُنْقِذُ مِنَ الضّلَالِ» .

ومن الطبيعيّ أنّ الله لا يضيع جهود الرجال الذين يسعون في سبيله ، وقد دلّهم على طريق السعادة ، واقتادهم إلى الحياة الطيّبة ، وامتنّ عليهم بالجزاء على أحسن وجه ، وذلك وفقاً لمفاد قوله تعالى : وَالّذِينَ جَهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنّ اللّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ، [٤٣] ومفاد قوله : مَنْ عَمِلَ صَلِحًا مّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَوةً طَيّبَةً وَلَنَجْزِيَنّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . [٤٤]

لا جرم أنّ الغزّاليّ كان سنّيّاً ، ومن أنصار مدرسة عمر ، بل ومن المتعصّبين لها ، بَيدَ أنّ الاندفاع إلى تلمّس الحقّ أضاء مصباح الولاية في مشكاة قلبه ، وأنار زجاجة نفسه بهذا النبراس . ولا ريب أنّه انتهج طريق التشيّع ، وخطا خطوته في صراط الولاية . [٤٥]

وقال فيه المرحوم الفقيه المحدّث الحكيم المفسّر العارف العظيم المولى محسن الفيض الكاشانيّ : كان عامّيّ المذهب حين تصنيف «إحياء العلوم» ثمّ تشيّع في آخر عمره ، وصنّف كتاب «سرّ العالمين» . [٤٦]

ونفيد ممّا تقدّم أنّنا ينبغي أن لا نبالي بما يقوله بعض العلماء المعاصرين حول كتاب «سرّ العالمين» [٤٧] إذ ينفون نسبته للغزّاليّ . لأنّه مضافاً إلى كثير من الأدلّة التي يذكرونها وهي قابلة للتبرير ، فإنّ بعضها لا يمكن أن يعتبر إشكالاً ومؤاخذة . ولا يمكن بمجرّد الاستبعاد إنكار كتاب أو رسالة لشخص هو مؤلّفها ، علماً أنّ أهل الخبرة في علم الرجال والتراجم وعلم المصادر قد أيّدوا نسبة ذلك الكتاب أو تلك الرسالة إليه ، ونقلوا الموضوعات الواردة فيهما منذ عصر المؤلّف إلى يومنا هذا في كتبهم .

ومن هؤلاء الذين نسبوا كتاب «سرّ العالمين» إلى الغزّاليّ : الذّهَبيّ في «ميزان الاعتدال» ، [٤٨] وابن حجر العسقلانيّ في «لسان العرب» ، [٤٩] وسبط بن الجوزيّ في «تذكرة خواصّ الأُمّة» ، [٥٠] وجرجي زيدان في «آداب اللغة العربيّة» ، [٥١] والملّا محسن الفيض الكاشانيّ في «المحجّة البيضاء» ، [٥٢] والعلّامة محمّد باقر المجلسيّ في «بحار الأنوار» ، [٥٣] والعلّامة عبد الحسين الأمينيّ في «الغدير» . [٥٤]

وقال الطباطبائيّ الحسنيّ في مقدّمة كتاب «سرّ العالمين» طبعة النجف : ومن الذين نسبوا كتاب «سرّ العالمين» إلى الغزّاليّ : القاضي نور الله التّستريّ في «مجالس المؤمنين» ، والشيخ علي بن عبد العالي الكَرَكيّ ، وهو المحقّق الثاني فيما نقل عنه ، والمولى محسن الفيض صاحب «الوافي» ، والطريحيّ في «مجمع البحرين» .

وقال العلّامة الطهرانيّ : ونسب إلى الغزّاليّ أيضاً في «تاج العروس» ، و «الاتحاف في شرح الإحياء» . [٥٥]

أجل ، عندما أزلّ حبّ الرئاسة طلحة والزبير مع سابقتهما اللامعة ، حتّى جمعا حولهما اثني عشر ألف مقاتل ، ونكثا البيعة ، وشهرا سيفهما بوجه أمير المؤمنين الوليّ الأعلى في عالم الإمكان ، مع معرفتهما به ومناصرته ودعمه في عصر رسول الله وبعده

، وحرّضا عليه الناس المساكين والمستضعفين بتهمة مظلوميّة عثمان وقتل عليّ إيّاه ــ مع أنّهما كانا من أقطاب المؤلّبين على قتله ــ وأراقا الدماء البريئة ، عندما يكون ذلك كلّه ، فلا نعجب من عمل الشيخين معه ، وهما المعروفان بسوابق مخالفتهما لنهج عليّ بن أبي طالب عليه السلام منذ اليوم الأوّل ، وكان ذلك ملحوظاً منهما في عصر رسول الله .

من هذا المنطلق ، تحرّم مدرسة التشيّع رئاسة مثل هؤلاء الأشخاص ، وتحصر الإمامة بالوليّ المعصوم من هوى النفس وحبّ الرئاسة لكي تسير الأُمور على أساس الحقّ والواقع .

وكلّما ازداد علم الإنسان ، ضؤل هواه . وكلّما كانت سوابقه أكثر ، كانت مكائد نفسه أدقّ . وهنا تخطو النفس خطوتها عبر طريق مؤازرة الدين ، ووجوب حماية الشريعة ، ورعاية حقّ الفقراء والمحتاجين ، وحفظ بيضة الإسلام ، فتغصب حقّ عليّ باسم الدين ، وتسلب فدكاً من بضعة رسول الله تحت غطاء حماية الفقراء والمساكين ، وتكسر الباب ، وتضغط الزهراء بين الباب والجدار ، فتسقط إلى الأرض وتجهض جنينها من أجل المحافظة على كيان المسلمين . وتمّ ذلك كلّه باسم الدين ، وفي غِلالة المحافظة على القانون والشرع وكتاب الله . ونتج عنه تضييع الحقوق ، وبروز ألوان الظلم والاعتداء ، وعدم بلوغ عامّة الناس منهل الولاية للارتواء من شريعة الحياة ونمير المعنويّة سواء في ذلك العصر أم في أيّام حكومة بني أُميّة وبني العبّاس ، أو في العصور المتأخّرة . وما كان ذلك إلّا في أعقاب الانحراف الأوّل الذي سبّب في تسلّط حكّام الجور على رقاب الناس ، وقطع شريانهم الحياتيّ ، وامتصاص دمائهم ، واستغلال أموالهم وأرواحهم ونواميسهم ، وذلك للمحافظة على عروشهم وتشييد بلاطاتهم وبيوتهم والالتذاذ بألوان الأطعمة والأشربة .

خشت اوّل چون نهد معمار ، كج
تا ثريّا مى‌رود ديوار ، كج (٥٦)

لقد خلط الشيخان الدين بنهجهما ، وكدّرا الماء الزلال النابع من العين الصافية ، وسقياه الناس كما يشتهيان ، ولوّثا الهواء المغبر بهوى أنفسهما حتّى يشمّه الناس كما يريدان .

أمّا أمير المؤمنين عليه السلام ، وهو القسطاس المستقيم ، فإنّه لا يتجاوز كتاب الله وسنّة نبيّه ، وحتّى في كلامه الظاهر لا يقول على سبيل التورية : أحترم سنّة الشيخين ، طمعاً في الإعداد للحكومة واستنقاذها من أيدي الجبابرة . وعندما أراد عبد الرحمن بن عوف أن يأخذ له البيعة بشرط العمل بكتاب الله وسنّة نبيّة وسيرة الشيخين ، قال : أعمل بكتاب الله وسنّة نبيّه واجتهادي رأيي . فقد تنازل عن الرئاسة عندما تقوم على سنّة الشيخين ، علماً أنّ قيامها على سنّة الشيخين باطل ، وكذلك عندما أراد عبد الرحمن أن

يشرط عليه عدم تولية بني هاشم على الناس ، لم يقبل وقال : من كان كفوءاً عندي أُولّيه ، سواء كان من بني هاشم أو من غيرهم .

وذكر ابن قتيبة الدينوريّ : ثُمّ أَخَذَ عَبْدُ الرّحْمَنِ بِيَدِ عَلِيّ فَقَالَ لَهُ : أُبَايِعُكَ عَلَى شَرْطِ عُمَرَ أَنْ لَا تَجْعَلْ أَحَدَاً مِنْ بَنِي هَاشِمٍ عَلَى رِقَابِ النّاسِ !

فَقَالَ عَلِيّ عِنْدَ ذَلِكَ : مَا لَكَ وَلِهَذَا إذَا قَطَعْتَهَا فِي عُنُقِي ؟ ! فَإِنّ عَلَيّ الاجْتِهَادَ لِأُمّةِ مُحَمّدٍ . حَيْثُ عَلِمْتُ القُوّةَ وَالأَمَانَةَ اسْتَعَنْتُ بِهَا ، كَانَ فِي بَنِي هَاشِمٍ أَوْ غَيْرِهِمْ ! قَالَ عَبْدُ الرّحْمَنِ : لَا وَاللهِ حَتّى تُعْطِيَنِي هَذَا الشّرْطَ . قَالَ عَلِيّ : وَاللهِ لَا أُعْطِيكَهُ أَبَدَاً . فَتَرَكَهُ فَقَامُوا مِنْ عِنْدِهِ . (٥٧)

وينقل ابن قتيبة أيضاً أنّ أمير المؤمنين عليه السلام خطب في أهل الكوفة بعد التحكيم ، وحرّضهم على الجهاد ضدّ معاوية ، وقال في بعضها : وإنّي آمركم أن يكتب إليّ رئيس كلّ قوم منكم ما في عشيرته من المقاتلة ، وأبنائهم الذين أدركوا القتال ، والعبدان والموالي ! وارفعوا ذلك إليّ ننظر فيه إن شاء الله . فكان أوّل رئيس قبيلة قام وأجاب هو سَعْد بنُ قَيْس الهَمْدانيّ . ثمّ قام بعده عَدِيّ بن حَاتَم ، وحُجْر بن عَدِيّ وأشراف القبائل ، وأعلنوا كلّهم عن التسليم والطاعة ، وتهيّأ الجيش .

ويواصل ابن قُتَيْبَة كلامه إلى أن يقول : فَبَايَعُوهُ عَلَى التّسْلِيمِ وَالرّضَا ، وَشَرَطَ عَلَيْهِمْ كِتَابَ اللَهِ وَسُنّةَ رَسُولِهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ . فَجَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ خُثْعَمٍ (٥٨) فَقَالَ لَهُ عَلِيّ : بَايِعْ عَلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنّةَ نَبِيّهِ ! قَالَ : لَا ! وَلَكِنْ أُبَايِعُكَ عَلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنّةِ نَبِيّهِ وَسُنّةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ . فَقَالَ عَلِيّ : وَمَا يَدْخُلُ سُنّةُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ مَعَ كِتَابِ اللهِ وَسُنّةِ نَبِيّهِ ؟ إنّمَا كَانَا عَامِلَيْنِ بِالحَقّ حَيْثُ عَمِلَا . فَأَبَى الخُثْعَمِيّ إلّا سُنّةَ أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ ، وَأَبَى عَلِيّ أَنْ يُبَايِعَهُ إلّا عَلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنّةِ نَبِيّهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ [وَآلِهِ] وَسَلّمَ .

فَقَالَ لَهُ حَيْثُ أَلَحّ عَلَيْهِ : تُبَايِعُ ؟! قَالَ : لَا ، إلّا عَلَى مَا ذَكَرْتُ لَكَ ! فَقَالَ لَهُ عَلِيّ : أَمَا وَاللهِ لَكَأَنّي بِكَ قَدْ نَفَرْتَ فِي هَذِهِ الفِتْنَةِ وَكَأَنّي بِحَوَافِرِ خَيْلِي قَدْ شَدَخَتْ وَجْهَكَ ! فَلَحِقَ بِالخَوَارِجِ فَقُتِلَ يَوْمَ النّهْرَوَانِ .

قَالَ قُبَيْصَةُ : فَرَأَيْتُهُ يَوْمَ النّهْرَوَانِ قَتِيلاً ، قَدْ وَطَأَتِ الخَيْلُ وَجْهَهُ ، وَشَدَخَتْ رَأْسَهُ ، وَمَثّلَتْ بِهِ ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ عَلِيّ وَقُلْتُ : للّهِ دَرّ أَبِي الحَسَنِ ! مَا حَرّكَ شَفَتَيْهِ قَطّ بِشَيءٍ إلّا كَانَ كَذَلِكَ . (٥٩)

كان الهمّ الوحيد لأمير المؤمنين عليه السلام وصحابته الأوفياء منذ البداية إقرار قانون القرآن والسنّة النبويّة ، والوقوف بوجه كلّ تغيير وتبديل ، ومواجهة كلّ ظلم وانتهاك . ولو أمعنّا النظر في سيرة أمير المؤمنين عليه السلام ونهجه ، ثمّ رأينا سيرة صحابته ونهجهم ، لعلمنا أنّ كلّ من لم يتّخذ نهج عليّ دليلاً له ، فلا يمكنه أن يكون من صحابته ، وسيُنْبَذ شاء أم أبي ، ومثله لا يلقى ترحيباً في جوّ عليّ الزاخر بالمعنويّة والأصالة ، وفي

وسط صحابته المخلصين . وكان الإمام يكرّر دائماً أنّه لا يريد إلّا وجه الله وإقرار العدل ، ويجهد في سبيل ذلك حتّى يأتيه أجله . ولا هدف له غيره ، وهو لا يتوقّع رئاسة وتزعّماً .

ومن خاصّته المخلصين : الصحابيّ الجليل أبو ذرّ الغفاريّ ، ذلك الصاحب البرّ والمجاهد الصلب الذي لم يعرف الكلل والفتور ، وقف وحده في الشام أمام مظالم معاوية ، وبعد أن لاقى من صنوف المحن والعذاب ما لاقى ، أُرجع إلى المدينة ، ولم يسكت بل وقف أمام عثمان وهو يحصي مظالمه .

وذكر المؤرّخ الجليل والمحدّث الكبير والمنجّم العظيم : المسعوديّ في «مروج الذهب» نفي أبي ذرّ إلى الرّبَذَة ، وقال : إنّ عثمان منع مشايعته . وقال أيضاً : شايعه عليّ والحسنان عليهم السلام ، وعقيل ، وعبد الله بن جعفر ، وعمّار بن ياسر . وثقل ذلك على عثمان . إلى أنّ قال : فَلَمّا رَجَعَ عَلِيّ ، اسْتَقْبَلَهُ النّاسُ فَقَالُوا : إنّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ عَلَيْكَ غَضْبَانُ لِتَشْيِيعِكَ أَبَا ذَرّ ، فَقَالَ عَلِيّ : غَضَبَ الخَيْلِ عَلَى اللّجُمِ . [٦٠] و [٦١] أي : لا فائدة في غضبه .

فلمّا كان العشيّ رأى عثمان ، واعترض عليه عثمان كثيراً ؛ وقال في بعض ما قال : لم رددت أمري ؟! فقال الإمام : لم أردّ أمرك ! قال عثمان : ألم يبلغك أنّي قد نهيت الناس عن أبي ذرّ وعن تشييعه ؟ فقال الإمام : أَوَ كُلّ مَا أَمَرْتَنَا بِهِ مِنْ شَيءٍ نَرَى طَاعَةً لِلّهِ وَالحَقّ فِي خِلَافِهِ اتّبَعْنَا فِيهِ أَمْرَكَ ؟! بَاللَهِ لَا نَفْعَلُ ! [٦٢]

يقول ابن قتيبة الدينوريّ : وذكر المؤرّخون وأهل التحقيق : أنّه اجتمع ناس من أصحاب النبيّ عليه الصلاة والسلام فكتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنّة رسول الله وسنّة صاحبيه ؛ وما كان من هبته خُمس إفريقيا لمروان [بن الحكم] [٦٣] وفيه حقّ الله ورسوله ، ومنهم ذوو القربى واليتامى والمساكين ، وما كان من تطاوله في البنيان ، حتّى عدّوا سبع دور بناها بالمدينة : داراً [لزوجته] نائلة ، وداراً[لابنته] عائشة ، وغيرهما من أهله وبناته . وبنيان مروان القصور بذي خُشَب ، وعمارة الأموال بها من الخُمس الواجب للّه ولرسوله ؛ وما كان من إفشائه العمل والولايات في أهله وبني عمّه من بني أُميّة أحداث وغِلَمة لا صحبة لهم من الرسول ولا تجربة لهم بالأُمور ؛ وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة إذ صلّى بهم الصبح وهو أمير عليها سكران أربع ركعات ، ثمّ قال لهم : إن شئتم أزيدكم ركعة زدتكم ؛ وتعطيله إقامة الحدّ عليه ، وتأخيره ذلك عنه ، وتركه المهاجرين والأنصار لا يستعملهم على شيء ولا يستشيرهم ، واستغنى برأيه عن رأيهم ؛ وما كان من الحِمى الذي حمى حول المدينة [ومنع الناس من رعي مواشيهم فيه] ؛ وما كان من إدراره القطائع والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبيّ عليه الصلاة والسلام ثمّ لا يغزون ولا يذبّون ؛ وما كان من مجاوزته الخيزران إلى

السوط ، وأنّه أوّل من ضرب بالسياط ظهر الناس ، وإنّما كان ضرب الخليفتين قبله بالدرّة والخيزران .

ثمّ تعاهد القوم ليدفعنّ الكتاب في يد عثمان ، وكان ممّن حضر الكتاب : عمّار بن ياسر والمقداد بن الأسود ، وكانوا عشرة . فلمّا خرجوا بالكتاب ليدفعوه إلى عثمان ، والكتاب في يد عمّار ، جعلوا يتسلّلون عن عمّار حتّى بقي وحده ، فمضى حتّى جاء دار عثمان .

فاستأذن عليه ، فأذن له في يوم شاتٍ . فدخل عليه وعنده مروان بن الحكم وأهله من بني أُميّة ، فدفع إليه الكتاب .

فقرأ عثمان الكتاب ، فقال له : أنت كتبت هذا الكتاب ؟! قال [عمّار] : نعم ! قال [عثمان] : ومن كان معك ؟! قال [عمّار] : كان معي نفر تفرّقوا منك ! قال [عثمان] : من هم ؟! قال [عمّار] : لا أُخبرك بهم . قال [عثمان] : فَلِمَ اجترأت عَلَيّ من بينهم ؟! فقال مروان : يا أمير المؤمنين ! إنّ هذا العبد الأسود (يعني عمّاراً) قد جرّأ عليك الناس ؛ وإنّك إن قتلته نكلت به مَن وراءه .

قال عثمان : اضربوه . فضربوه وضربه عثمان معهم حتّى فتقوا بطنه ، فغُشي عليه . فجرّوه حتّى طرحوه على باب الدار .

فأمرت به أُمّ سلمة زوج النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فأُدخل منزلها . وغضب فيه بنو المغيرة وكان حليفهم ، فلمّا خرج عثمان لصلاة الظهر ، عرض له هِشام بن الوليد بن المغيرة ، فقال : أما والله لئن مات عمّار من ضربه هذا لأقتلنّ به رجلاً عظيماً من بني أُميّة . فقال عثمان : لست هناك !

ثمّ خرج عثمان إلى المسجد . فإذا هو بعليّ وهو شاك معصوب الرأس . فقال له عثمان : والله يا أبا الحسن ما أدري أشتهي موتك أم أشتهي حياتك ؟! فوالله لئن مِتّ ، ما أُحبّ أن أبقى بعدك لغيرك ! لأنّي لا أجد منك خلفاً . ولئن بقيت لا أعدم طاغياً يتّخذك سلّماً وعضداً ، ويعدّك كهفاً وملجأ ؛ لا يمنعني منه إلّا مكانه منك ومكانك منه ! فأنا منك كالابن العاقّ من أبيه ، إن مات فَجَعَهُ ، وإن عاش عقّه . فإمّا سلم فنسالم ! وإمّا حرب فنحارب ! فلا تجعلني بين السماء والأرض ! فإنّك والله إن قتلتني ، لا تجد منّي خلفاً ! ولئن قتلتك ، لا أجد منك خلفاً ! ولن يلي أمر هذه الأُمّة بادئ فتنة !

فقال عليّ : إنّ في ما تكلّمتَ به لجواباً ، ولكنّي عن جوابك مشغول بوجعي ! فأنا أقول كما قال العبد الصالح : فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ . (٦٤) و (٦٥)

ولمّا أقبلت الخلافة على أمير المؤمنين عليه السلام شمّر عن ساعد الجدّ ما كان ذلك ميسّراً ، ليزيل البدع ، ويُعيد الأوضاع إلى ما كانت عليه في عصر رسول الله وعلى نهجه . ومن أعماله التي قام بها إرجاع الأراضي التي كان عثمان قد أقطعها ، إلى بيت المال . وخطب في اليوم الثاني من الخلافة عندما بايعه أهل المدينة ، وقال : أَلَا كُلُّ قِطْعَةٍ

أَقْطَعَهَا عُثْمَانُ وَكُلّ مَالٍ أَعْطَاهُ مِنْ مَالِ اللَهِ فَهُوَ مَرْدُودٌ فِي بَيْتِ المَالِ ؛ فَإِنّ الحَقّ القَدِيمَ لَا يُبْطِلُهُ شَيءٌ . وَاللَهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تَزَوّجَ بِهِ النّسَاءُ وَمَلِكَ بِهِ الإِمَاءُ ، لَرَدَدْتُهُ ؛ فَإِنّ فِي العَدْلِ سَعَةً ، وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ العَدْلُ فَالجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ . (٦٦) أي : من كان عاجزاً عن تدبير أُموره بالعدل ، فهو عن تدبيرها بالجور والعدوان أعجز ، لأنّ في الجور مظنّة المقاومة والممانعة ، أمّا في العدل ، فلا .

وعلى الرغم من كافّة الإمكانات التي كانت تحت تصرّف أمير المؤمنين عليه السلام خلال المدّة القصيرة من خلافته الظاهريّة التي دامت زهاء خمس سنين ، بَيدَ أنّه لم يستطع إماتة البدع كلّها ، وتقويض سنّة الشيخين ، وإقناع الناس ببطلان سنّة أُخرى في مقابل كتاب الله وسنّة نبيّه ، لأنّ الناس قد ألفوا تلك السنن القائمة إلى درجة أنّهم كانوا يعتقدون أن تغييرها يعني الإتيان بدين جديد ؛ والإعراض عنها بحكم الإعراض عن مقدّساتهم الدينيّة .

فلهذا كانوا يسعون في المحافظة على تلك السنن والآداب . وكان العامّة يؤلّفون أكثر جند أمير المؤمنين ، وبين الجند أفراد قلائل ممّن تربّى في مدرسة الإمام . وكان أُولئك العامّة يدافعون عن أحقّيّة الشيخين وسننهما بكلّ تحمّس . ويقال لهؤلاء : شيعة لوقوفهم إلى جانب الإمام في مقابل من وقف إلى جانب عثمان كمعاوية وبطانته ، والمروانيّين والمناوئين الآخرين . وكانوا يرون خلافة الإمام في الدرجة الرابعة بعد خلافة الثلاثة الذين سبقوه . ولذلك كانوا يتّبعونه في الأمر والنهي والجهاد ، مع أنّهم كانوا يسيرون على آداب الشيخين وسننهما جميعاً ، ولم يروا أنّ الإمام هو الخليفة الأوّل ، وهو الخليفة الحقيقيّ بعد رسول الله ، وأنّ اتّباعه يعني اتّباع مقام الإمامة والولاية المنصوبة من قبل رسول الله . فلهذا قال الإمام في خطبة له بكلّ صراحة إنّه لو حمل الناس على ترك سنّة الشيخين ، بخاصّة سنّة عمر ، لتفرّق عنه جنده وخذلوه .

سنّة عمر ، لتفرّق عنه جنده وخذلوه .

روى محمّد بن يعقوب الكلينيّ في «روضة الكافي» عن عليّ بن إبراهيم ، عن أبيه ، عن حمّاد بن عيسى ، عن إبراهيم بن عثمان ، عن سُلَيم بن قيس الهلاليّ أنّه قال : خطب أمير المؤمنين عليه السلام وحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبيّ ، ثمّ قال :

أَلَا إِنّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ خُلّتَانِ : اتّبَاعُ الهَوَى وَطُولُ الأَمَلِ . أَمّا اتّبَاعُ الهَوَى فَيَصدّ عَنِ الحَقّ ، وَأَمّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ . إلى أن قال :

إنّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ يَقُولُ : كَيْفَ أَنْتُمْ إذَا لَبَسَتْكُمْ فِتْنَةٌ يَرْبُو فِيهَا الصّغِيرُ ، وَيَهْرَمُ فِيهَا الكَبِيرُ يَجْرِي النّاسُ عَلَيْهَا وَيَتّخِذُونَهَا سُنّةً ، فَإِذَا غُيّرَ مَنْهَا شَيءٌ قِيلَ : قَدْ غُيّرَتِ السّنّةُ ، وَقَدْ أَتَى النّاسُ مُنْكَرَاً . ثُمّ تَشْتَدّ البَلِيّةُ وَتُسْبَى الذّرّيّةُ وَتَدُقّهُمُ الفِتْنَةُ كَمَا تَدُقّ النّارُ الحَطَبَ وَكَمَا تَدُقّ الرّحَى بِثُفَالِهَا ، وَيَتَفَقّهُونَ لِغَيْرِ اللهِ ، وَيَتَعَلّمُونَ لِغَيْرِ العَمَلِ ، وَيَطْلُبُونَ الدّنْيَا بِأَعْمَالِ الآخِرَةِ .

ثُمّ أَقْبَلَ بِوَجْهِهِ وَحَوْلَهُ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَخَاصّتِهِ وَشِيعَتِهِ فَقَالَ : قَدْ عَمِلَتِ الوُلَاةُ قَبْلِي أَعْمَالاً خَالَفُوا فِيهَا رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ مُتَعَمّدِينَ لِخِلَافِهِ ، نَاقِضِينَ لِعَهْدِهِ ، مُغَيّرِينَ لِسُنّتِهِ ؛ وَلَوْ حَمَلْتُ النّاسَ عَلَى تَرْكِهَا وَحَوّلْتُهَا إِلَى مَوَاضِعِهَا وَإِلَى مَا كَانَتْ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ لَتَفَرّقَ عَنّي جُنْدِي حَتّى أَبْقَى وَحْدِي أَوْ قَلِيلٌ مِنْ شِيعَتِي الّذِينَ عَرَفُوا فَضْلِي وَفَرْضَ إِمَامَتِي مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزّ وَجَلّ وَسُنّةِ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ .

ثمّ ذكر أسماء كثير من البدع وعدّها واحدة بعد الأُخرى ، ثمّ قال : لو غيّرتها وحوّلتها إلى كتاب الله وسنّة نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم إذاً لَتَفَرّقُوا عَنّي . ثمّ قال : وَاللهِ لَقَدْ أَمَرْتُ النّاسَ أَنْ لَا يَجْتَمِعُوا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ إِلّا فِي فَرِيضَةٍ ، وَأَعْلَمْتُهُمْ أَنّ اجْتِمَاعَهُمْ فِي النّوَافِلِ بِدْعَةٌ فَتَنَادَى بَعْضُ أَهْلِ عَسْكَرِي مِمّنْ يُقَاتِلُ مَعِي : يَا أَهْلَ الإِسْلَامِ غُيّرَتْ سُنّةُ عُمَرَ ، يَنْهَانَا عَنِ الصّلَاةِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ تَطَوّعَاً ؛ (٦٧) وَلَقَدْ خِفْتُ أَنْ يَثُورُوا فِي نَاحِيَةِ جَانِبِ عَسْكَرِي . مَا لَقِيتُ مِنْ هَذِهِ الأُمّةِ مِنَ الفُرْقَةِ وَطَاعَةِ أَئِمّةِ الضّلَالَةِ وَالدّعَاةِ إِلَى النّارِ ــ الخطبة . (٦٨)

ومن هنا نقف على مدى العناء الذي كان يعيشه الأئمّة الطاهرين عليهم السلام لإرجاع الأوضاع إلى ما كانت عليه في عصر رسول الله ، ونقف كذلك على المشاكل التي كانوا يواجهونها ، على تضحياتهم الجسيمة بالأموال والأرواح وكلّ الأشياء في سبيل ذلك .

نقل الطبريّ في تأريخه رسالة مُحَمّد بن عبد الله المَحْض صاحب النفس الزكيّة إلى المنصور الدوانيقيّ ، إلى أن قال : قال محمّد : وَإِنّ أَبَانَا عَلِيّاً كَانَ الوَصِيّ وَكَانَ الإِمَامَ فَكَيْفَ وَرِثْتُمْ وَلَايَتَهُ وَوُلْدُهُ أَحْيَاءٌ ؟!

هذه الرسالة مفصّلة . وكتب أبو جعفر المنصور رسالة مفصّلة جدّاً في جوابه ، جاء في بعضها : وَلَقَدْ طَلَبَهَا أَبُوكَ لِكُلِّ وَجْهٍ ، فَأَخْرَجَهَا نَهَاراً وَمَرَّضَهَا سِرّاً وَدَفَنَهَا لَيْلاً فَأَبَى النَّاسُ إلّا الشَّيْخَيْنِ وَتَفْضِيلَهُمَا . (٦٩)

ونقل ابن خلدون رسالة المنصور الدوانيقيّ باختلاف يسير ، قال فيه : وَلَقَدْ طَلَبَ بِهَا أَبُوكَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ، وَأَخْرَجَهَا تُخَاصِمُ ... إلى آخره . (٧٠)

أجل ، إنّ هدفنا من وراء هذا البحث هو أنّنا نريد أن نقول : إنّ نهج الشيخين ترك وقعه على الناس إلى درجة أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يستطع طيلة الفترة التي حكم فيها أن يزيله ، وظلّ الناس على هذا النهج في عصر الإمام الحسن عليه السلام . وكلّما تعاقبت الأيّام فإنّ البدع القديمة كانت تترسّخ أكثر وأكثر ، وكانت تضاف إليها بدع جديدة ، بواسطة الأمويّين الذين كان على رأسهم معاوية بن أبي سفيان الذي كان لا يفكّر إلّا بأنانيّته ، وكان يعدّ العدّة لمحو اسم رسول الله ، وبلغت صفاقته حدّاً أنّه قال للمغيرة بن شعبة بصراحة : لا يقرّ قراري ما لم أدفن اسم محمّد حتّى لا يُصاح به من المآذن كلّ يوم .

ذكر المسعوديّ في تأريخه عند حديثه عن وقائع سنة اثنتي عشرة ومائتين أنّ منادي المأمون نادى في هذه السنة : برئت الذمّة من أحد من الناس ذكر معاوية بخير أو قدّمه على أحد من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، أو تكلّم في أشياء من التلاوة أنّها مخلوقة ، وغير ذلك . وتنازع الناس في السبب الذي من أجله أمر بالنداء في أمر معاوية ، فقيل في ذلك أقاويل :

منها : إنّ بعض سمّاره حدّث بحديث عن مطرف بن المغيرة بن شعبة الثقفيّ ، وقد ذكر هذا الخبر الزبير بن بكّار في كتابه في الأخبار المعروفة ب «الموفّقيّات» التي صنّفها للموفّق . قال الزبير بن بكّار : سمعت المدائنيّ يقول : قال مطرف بن المغيرة بن شعبة : وفدت مع أبي المغيرة إلى معاوية .

فكان أبي يأتيه يتحدّث عنده ثمّ ينصرف إليّ فيذكر معاوية ويذكر عقله ويعجب ممّا يرى منه . إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء . فرأيته مغتمّاً ، فانتظرته ساعة ، وظننت أنّه لشيء حدث فينا أو في عملنا .

فقلت له : ما لي أراك مغتمّاً منذ الليلة ؟! قال : يا بُنيّ ! إنّي جئت من عند أخبث الناس ! قلت له : ما ذاك ؟ قال : قلت له وقد خلوت به : إنّك قد بلغت منّا يا أمير المؤمنين ! فلو أظهرت عدلاً وبسطت خيراً فإنّك قد كبرت ! ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم ! فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه ! (٧١)

قال لي : هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ !! مَلَكَ أَخُو تَيْمٍ فَعَدَلَ وَفَعَلَ مَا فَعَلَ ؛ فَوَاللَهِ مَا عَدَا أَنْ هَلَكَ ، فَهَلَكَ ذِكْرُهُ إلّا أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ : أَبُو بَكْرٍ . ثُمّ مَلَكَ أَخُو عَدِيّ فَاجْتَهَدَ وَشَمَّرَ عَشْرَ سِنِينَ ؛ فَوَاللَهِ مَا عَدَا أَنْ هَلَكَ فَهَلَكَ ذِكْرُهُ إلّا أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ : عُمَرُ . ثُمّ مَلَكَ أَخُونَا عُثْمَانُ فَمَلَكَ

رَجُلٌ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ فِي مِثْلِ نَسَبِهِ ، فَعَمِلَ مَا عَمِلَ [وَعُمِلَ بِهِ] ؛ فَوَاللَهِ مَا عَدَا أَنْ هَلَكَ فَهَلَكَ ذِكْرُهُ وَذِكْرُ مَا فُعِلَ بِهِ .

وَإنّ أَخَا هَاشِمٍ يُصْرَخُ بِهِ فِي كُلّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرّاتٍ : أَشْهَدُ أَنّ مُحَمّدَاً رَسُولُ اللَهِ . فَأَيّ عَمَلٍ يَبْقَى مَعَ هَذَا ؟ لَا أُمّ لَكَ ! وَاللَهِ إلّا دَفْنَاً دَفْنَاً . (أي : مع وجود هذا النداء ، فإنّ كلّ خير أفعله ، لا أقطف منه ثمرة إذ لا يبقى اسمي ، فيموت بموتي . وأنا أبذل قصارى جهدي في سبيل أن لا يبقى اسم محمّد على الأرض ، فمع وجود اسمه ، لا يبقى قيمة لكلّ أحد في العالم ، ولا يظهر أيّ عمل خير في مقابل هذا النداء . فرفع هذا الاسم من مآذن المساجد يتوقّف على التشدّد على بني هاشم وإخماد أنفاسهم) .

يقول المسعوديّ : لمّا سمع المأمون هذا الخبر ، بعثه ذلك على أن أمر بالنداء على حسب ما وصفنا : برئت الذمّة من أحد من الناس ذكر معاوية بخير أو قدّمه على أحد من أصحاب رسول الله . وأُنشئت الكتب [المأمون] إلى الآفاق بلعن معاوية على المنابر . فأعظم الناس ذلك وأكبروه ، واضطربت العامّة منه فأُشير عليه بترك ذلك ، فأعرض عمّا كان هَمّ به . (٧٢)

وقال ابن أبي الحديد بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية : روى الأعمش ، عن عروة بن مُرّة ، عن سعيد بن سويد أنّه قال : كان معاوية يصلّى الجمعة في النّخَيْلَة ، وخطب فقال في خطبته : إنّي وَاللَهِ مَا قَاتَلْتُكُمْ لِتُصَلّوا ولَا لِتَصُومُوا ولَا لِتَحِجّوا ولَا لِتُزَكّوا ! إنّكُمْ لَتَفْعَلُونَ ذَلِكَ ! إنّمَا قَاتَلْتُكُمْ لِأَتَأَمّرَ عَلَيْكُمْ وقَدْ أَعْطَانِي اللَهُ ذَلِكَ وَأَنْتُمْ كَارِهُونَ .

فكان عبد الرحمن بن شريك إذا حدّث بذلك يقول : وَاللَهِ هَذَا هُوَ التّهَتّكُ . (٧٣)

تحدّث رجل ذات يوم مع معاوية بكلام حادّ ولم يردّه . وعندما آخذوه على ذلك قال : لا شغل لنا بأحد ما لم يتعرّض لحكومتنا . ونفهم من هذا كلّه أنّ معاوية جعل نبوّة رسول الله حكومة وإمارة مستلهماً ذلك من توجيهات عمر . كما أنّه كان ينظر إلى المقدّسات الإسلاميّة بعين الازدراء . وقام بعد ذلك بنصب يزيد حاكماً على الطريقة المَلَكيّة ، وأخذ له البيعة من الناس . وقوّض كيان الإسلام الذي قام عوده بجهاد رسول الله وجهاد رجال مثل : حمزة ، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام . وأطاح بالسنّة المحمّديّة تماماً . وفي ضوء كلامه فإنّ الصلاة ، والصوم ، والحجّ ، والزكاة للناس ، ومارس السياسة الكسرويّة والقيصريّة مع العرب وعامّة المسلمين . وبلغ الأمر حدّاً لم يعرفوا فضل عليّ وشرفه وسوابقه في الإسلام ، والأنكى من ذلك أنّهم كانوا يرونه إنساناً معتدياً وينظرون إليه بعين المنكر . وطمست حقيقة النبوّة المتجلّية في الولاية ، ولم يبق من الإسلام إلّا اسمه ومن القرآن إلّا رسمه . أي : أنّ الأُمور كانت تسير بشكل يُخَال فيه الإسلام ظاهرة تأريخيّة قد طرأت ثمّ عفى أثرها على كرور الأيّام .

وكان الإسلام المحمّديّ بحاجة إلى هزّتين : هزّة عمليّة ، وأُخرى علميّة .

أمّا الهزّة العمليّة فقد تحقّقت على يد سيّد الشهداء الحسين بن عليّ عليه السلام . فكانت كالصاعقة على رؤوس الجبابرة إذ هزّت السلطة الأمويّة المتفرعنة ، وأحدثت ضجّة كبيرة كالبركان . وكانت صرخة الإمام قد بلغت مبلغها بحيث إنّها أحيت كلّ ميّت ، وأيقظت كلّ راقد ، ودلّت عمليّاً على أنّ النظام المحمّديّ قد بُدّل بحكومة طاغوتيّة . وأنّ العالم الإسلاميّ الممتدّ بين الصين وأقاصي مصر وإفريقيا يحترق بنار الظالمين المعادين للإسلام والمعاندين له الذين استبدلوا السنن الجاهليّة بالسنن المحمّديّة ، وفعلوا تلك الأفاعيل باسم الإسلام . ووقع طائر الصدق والأمانة والإيثار والولاية والمحبّة ، الطموح بِيَدِ الصيّاد القاسيّ مصّاص الدماء . ولا يعقل لهذه الهزّة طريق أفضل وخطّة أعلى وفكر أصوب ونهج أقوم من نهج سيّد الشهداء . وضرب الإمام ضربته كما ينبغي عبر اختيار هذه الحركة الغاضبة المستعرة ، وهذا الحبّ المتّقد الموخز ، وحدّد أهدافه وخططه من خلال خطبته التي أعلن فيه قائلاً :

اللَهُمّ إنّكَ تَعْلَمُ أَنّهُ لَمْ يَكُنْ مَا كَانَ مِنّا تَنَافُسَاً فِي سُلْطَانٍ ، وَلَا الْتِمَاسَاً مِنْ فُضُولِ الحُطَامِ ، وَلَكِنْ لِنَرَى المَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ ، وَنُظْهِرَ الإصْلَاحَ فِي بِلَادِكَ ، وَيَأْمَنَ المَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ ، وَيُعْمَلُ بِفَرَائِضِكَ وَسُنَنِكَ وَأَحْكَامِكَ .

فَإنْ لَمْ تَنْصُرُونَا وَتَنْصِفُونَا قَوِيَ الظَّلَمَةُ عَلَيْكُمْ وَعَمِلُوا فِي إطْفَاءِ نُورِ نَبِيّكُمْ ، وَحَسْبُنَا اللَهُ وَعَلَيْهِ تَوَكّلْنَا وَإلَيْهِ المَصِيرُ . (٧٤)

وأمّا الهزّة العلميّة فقد تحقّقت على يد الإمام الصادق عليه السلام . إذ نقل لنا التأريخ أنّ ظروف الحكومة والرئاسة كانت مهيّأة للإمام الصادق عليه السلام أكثر من غيره ، وأنّ متطلّباتها ووسائلها كانت ميسّرة له أفضل من الآخرين ، وذلك بعد ثورة المسلمين على الحكومة الأمويّة ، وحركة أبي مسلم الخراسانيّ ضدّ النظام الأمويّ . بَيدَ أنّ الإمام لم يَخْطُ على هذا الطريق خطوة واحدة ، لأنّه كان يعلم جيّداً أنّه لو تسلّم مقاليد الأُمور ، فإنّه سيكرّس وقته كلّه من أجل الإصلاحات العمليّة والمباشرة في تنظيم البلاد والمدن ، واستبدال أهل العدل بأهل الجور ، وترتيب شؤون الديوان والقضاء وسائر الشؤون كالحرب وقمع المعارضين ، فلا يبقى حينئذٍ مجال للمدرسة العلميّة وتبيان السنّة المحمّديّة ، والانشغال بالفقه والتفسير والحديث ، واستبدال السنن المحمّديّة بالسنن الجاهليّة ، وكشف الحقائق للناس ، وعرض الولاية ، وحقيقة النبوّة عليهم ، وطرح الإسلام الصحيح القويم على الأجيال جيلاً بعد جيل حتّى يوم القيامة ، وهذه المدرسة العلميّة تحتاج إلى وقت طويل وجهاد عظيم . فلهذا لم يهدأ الإمام لحظة واحدة على امتداد ثلاثين سنة ، إذ كان يمارس نشاطه العلميّ ليل نهار عبر جهاد النفس والجهود التي لم تعرف الكلل والملل . واستطاع أن يعرض الدين الصحيح ، ويحيي روح النبيّ وعليّ والولاية . فلهذا عرفت المدرسة الشيعيّة بالمدرسة الجعفريّة ، مع أنّ الأئمّة عليهم السلام جميعاً كانوا حماة هذا الدين وهذا

النظام الصحيح ، إلّا أنّ الظروف العلميّة كانت مؤاتية للإمام أكثر من غيره ، بخاصّة في ذلك العصر الذي اهتمّ فيه العلماء من شتّى الأديان والمذاهب بنشر آثارهم وبثّ علومهم وعقائدهم بكلّ حرّيّة ، وكذلك اهتمّ الحكماء والمتكلّمون والفلاسفة من كلّ مذهب وفرقة بما اهتمّ به أُولئك العلماء . فاقتضت إرادة الله أن يكون الإمام هو فارس الميدان في هذا المجال . فقام بتشكيل المدارس العلميّة في المدينة والعراق ، وانبرى إلى تربية الطلّاب وإعدادهم ، وطرح ما أراد طرحه ، وكشف الغطاء عمّا ينبغي أن يكشف عنه الغطاء وذلك من خلال دروسه الزاخرة بالبحث والاستدلال والبرهان ، التي كان يلقيها على آلاف الطلّاب والمحدّثين والمفسّرين والخطباء والحكماء حتّى اعترف الصديق والعدوّ والمؤالف والمخالف بوفور علم الإمام وتقواه وإعراضه عن زينة الحياة الدنيا ، وعلوّ فكره ، وقداسة رأيه ، وهمّته العالية ، ومدرسته الرفيعة السامية .

يقول الإمام أبو الفتح محمّد الشهرستانيّ المتوفّى سنة ٥٤٨ ه ، وهو من العامّة لا من الشيعة ، بل ويقدح بالشيعة أيضاً ، يقول في الإمام الصادق :

أَبُو عَبْدِ اللَهِ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمّدٍ الصّادِقُ ، ذُو عِلْمٍ غَزِيرٍ فِي الدّينِ ، وَأَدَبٍ كَامِلٍ فِي الحِكْمَةِ ، وَزُهْدٍ بَالِغٍ فِي الدّنْيَا ، وَوَرَعٍ تَامّ عَنِ الشّهَوَاتِ . وَقَدْ أَقَامَ بِالمَدِينَةِ مُدّةً يُفِيدُ الشّيعَةَ المُنْتَمِينَ إلَيْهِ ، وَيُفِيضُ عَلَى المُوَالِينَ لَهُ أَسْرَارَ العُلُومِ ، ثُمّ دَخَلَ العِرَاقَ وَأَقَامَ بِهَا مُدّةً مَا تَعَرّضَ لِلْإمَامَةِ قَطّ وَلَا نَازَعَ أَحَدَاً فِي الخِلَافَةِ ؛ وَمَنْ غَرِقَ فِي بَحْرِ المَعْرِفَةِ لَمْ يَطْمَعْ فِي شَطّ ، وَمَنْ تَعَلّى إلَى ذِرْوَةِ الحَقِيقَةِ لَمْ يَخَفْ مِنْ حَطّ . وَقِيلَ : مَنْ أَنِسَ بِاللَهِ تَوَحّشَ عَنِ النّاسِ ، وَمَنِ اسْتَأْنَسَ بِغَيْرِ اللَهِ نَهَبَهُ الوَسْوَاسُ . (٧٥)

وكان أحمد أمين المصريّ ينظر إلى الشيعة نظرة سيّئة حتّى أنّه يتّهمهم ، بَيدَ أنّه يقول في الإمام الصادق بعد عرض ما قاله الشهرستانيّ : إنّهُ مِنْ أَوْسَعِ النّاسِ عِلْمَاً وَاطّلَاعَاً . ولقّب بالصادق لصدقه . عاش بين سنة ٨٣ و ١٤٨ ه . ولم يرغب في الرئاسة والحكومة ، ومع ذلك لم يسلم من إيذاء المنصور الدوانيقيّ . وكان له بستان جميل في المدينة يجتمع إليه فيه جميع العلماء على اختلاف آرائهم ومذاهبهم . وروي أنّه كان من تلامذته أبو حنيفة ، ومالك بن أنس الفقيهان المشهوران . وكان واصل بن عطاء المعتزليّ ، وجابر بن حيّان الكيمياويّ المعروف من طلّابه . ثمّ ينقل أحمد أمين بعضاً من كلمات الإمام في الإرادة والقضاء والقدر ، ويثني على علم الإمام الكثير . (٧٦)

أجلّ ، ينبغي أن تؤلّف الكتب حول حركة سيّد الشهداء العمليّة العسكريّة ، وحركة الإمام الصادق العلميّة وترابط الحركتين بعضهما ببعض كي تستبين حقيقة الأمر . وها نحن قد قدّمنا بين يدي أرباب البحث نقاط إثارة كي يتابعوا هذا الموضوع بأنفسهم ويقفوا على عظمته .

والحمد للّه وله الشكر إذ تمّ الجزء الثامن من كتاب «معرفة الإمام» ضمن دورة العلوم والمعارف الإسلاميّة ، وذلك في اليوم الثاني عشر من شهر رمضان سنة ألف وأربعمائة وخمس من الهجرة في مدينة مشهد المقدّسة على مُقَدّسها آلاف التحيّة والسلام . والحمد للّه وحده وصلّى الله على رسوله وآله .

تعليقات:

١) الآيات ١٠٣ إلى ١٠٦ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٢) روضة الكافي» ص ٥٨ إلى ٦٣ ، طبعة مطبعة الحيدريّ .

٣) سنن البيهقيّ» عن مسلم ، عن أبي نضرة ، بناءً على نقل تفسير «الميزان» ج ٢ ، ص ٩٠ و ٩١ .

٤) الآية ١٨ ، من السورة ١٢ : يوسف .

٥) الآية ٢٩ ، من السورة ٥٥ : الرحمن : يَسْئَلُهُ مَن فِى السّمَوَ تِ وَالأَرْضِ كُلّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ .

٦) قول عبد الرحمن : «شاورت الناس» غير موجود في «تاريخ الطبريّ» طبعة الحسينيّة المصريّة ، سنة ١٣٢٦ ه ، ولا في «الكامل» لابن الأثير . ولعلّه من الإضافات في الطبع . وعلى فرض أنّ عبد الرحمن قاله ، فقد كذب ، لأنّه لو كان صادقاً ، لقال لكبار الصحابة الذين نقموا على عثمان ، واعترضوا على ما جنت يداه : هذا ما أردتموه وقد شاورتكم . لكنّه لم يعتذر إليهم بهذا العذر واكتفى بقوله للصحابة : ... ولكن للّه عَلَيّ أن لا أُكلّمه أبداً ، ولم يكلّمه . ولمّا مرض عبد الرحمن ودخل عليه عثمان عائداً تحوّل عنه إلى الحائط ولم يكلّمه («العقد الفريد» ج ٣ ، ص ٣٧» . وليت شعري هل عدم تكليمه يكفّر ذنبه إذ جعل الأُمّة الإسلاميّة تحت قبضة إنسان أنانيّ لم يفكّر إلّا في هواه وبطنه .

٧) الآية ٢٣٥ ، من السورة ٢ : البقرة ، تقول : حَتّى يَبْلُغَ الكِتَبُ أَجَلَهُ .

٨) تاريخ الطبريّ» ج ٣ ، ص ٢٩٧ ، طبعة مطبعة الاستقامة ، القاهرة ؛ و ج ٤ ،ص ٢٣٣ طبعة دار المعارف بمصر ؛ و «العقد الفريد» ج ٣ ، ص . ٧٦

٩) الإمامة والسياسة» ص ٢٦ ، طبعة مطبعة الأُمّة بدرب شغلان ، سنة ١٣٢٨ه .

١٠) الآية ١٠ ، من السورة ٤٨ : الفتح .

١١) تاريخ الطبريّ» ج ٣ ، ص . ٣٠٢

١٢) تاريخ الطبريّ» ج ٣ ، ص ٢٩٣ و ٢٩٤ مطبعة الاستقامة ؛ و ج٤ ، ص ٢٢٩ و ٢٣٠ مطبعة دار المعارف ؛ و «العقد الفريد» ج ٣ ، ص ٧٢ ، الطبعة الأُولى ، سنة ١٣٣١ه .

١٣) كان لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أربع بنات من خديجة هنّ : زينب رقيّة ، أُمّ كلثوم ، وفاطمة عليها السلام . زوّج رقيّة في مكّة من عُتبة بن أبي لهب . ولمّا نزلت

سورة اللهب ، أمر أبو لهب ابنه أن يطلّقها ، فطلّقها قبل الدخول كرامة من الله وهواناً لأبي لهب . وتزوّجها عثمان في مكّة . وهاجرت معه إلى الحبشة . وفيها رزقها الله ولداً سمّوه عبد الله ، ولذلك كان يقال لعثمان : أبو عبد الله . ولمّا بلغ السادسة من عمره نقره ديك في عينه فورم وجهه ، ومات على إثره في جمادى الأُولى ، السنة الرابعة من الهجرة ، وصلّى عليه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم . وعندما كان رسول الله يتهيّأ للذهاب إلى غزوة بدر ، مرضت رقيّة ، فمنع عثمان من الخروج معه ، وأمره بالبقاء في المدينة ليمرّضها . وبعد ذلك ماتت في اليوم الذيجاء فيه زيد بن حارثة إلى المدينة يخبر فيه بظفر رسول الله على المشركين . وكانت قد أصابتها الحصبة التي أودت بحياتها . فتزوّج عثمان أُمّ كلثوم بعدها . وماتت أُمّ كلثوم في بيت عثمان . («تنقيح المقال» ج ٣ ، ص ٧٣ و ٧٨ ؛ و «إعلام الورى» ص ١٤٧ و ١٤٨ » و «أُسد الغابة» ج ٣ ، ص ٣٧٦ و ٣٧٧) .

١٤) تاريخ الطبريّ» ج ٣ ، ص ٢ ، طبعة مطبعة الاستقامة .

١٥) تاريخ الطبريّ» ج ٢ ، ص ٦١٨ و ٦١٩ ، طبعة الاستقامة ؛ و ج ٢ ، ص ٤٢٩ طبعة دار المعارف ؛ و «الرياض النضرة» ج ٢ ، ص ٦٦ بتعليق محمّد مصطفى أبو العلاء .

١٦) جاء في «أعلام الزركليّ» ج ١ ، ص ١٥٣ : محبّ الدين الطبريّ المولود في ٦١٥ه والمتوفّى في ٦٩٤ه أحمد بن عبد الله بن محمّد الطبريّ ، أبو العبّاس الحافظ الفقيه الشافعيّ من المتفنّنين . من أهل مكّة مولداً ووفاة . وكان شيخ الحرم فيها . له تصانيف منها : «السمط الثمين في مناقب أُمّهات المؤمنين» و «الرياض النضرة في مناقب العشرة» و «القرى القاصد أُمّ القرى» و «ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى» و «الأحكام» .

١٧) الرياض النضرة» ج ٢ ، ص ١٨٢ ، الطبعة الثانية .

١٨) الرياض النضرة» ج ٣ ، ص . ٦٦

١٩) الرياض النضرة» ج ٣ ، ص . ٦٦

٢٠) كنز العمّال» ج ٣ ، ص ١٥٨ ، الطبعة الأُولى .

٢١) الإمامة والسياسة» ص ٩ ، طبعة مصر ، سنة ١٣٢٨ه .

٢٢) الإصابة» ج ٣ ، ص ٤١٢ ، طبعة مصر . وجاء في «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد ، ج ١ ، ص ٣٣٨ ، طبعة دار إحياء الكتب العربيّة : ولي معاوية اثنتين وأربعين سنة . منها اثنتان وعشرون سنة ولي فيها إمارة الشام منذ مات أخوه يزيد بن أبي سفيان ، بعد خمس سنين من خلافة عمر ، إلى أن قتل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في سنة أربعين ؛ ومنها عشرون سنة خليفة إلى أن مات في سنة ستّين .

٢٣) رسالة «تطهير الجنان» المطبوع في هامش «الصواعق المحرقة» ص ٣٧ و ٣٨ . وذكر ابن حجر العسقلانيّ الشافعيّ أصل هذا الحديث في كتاب «الإصابة» ج ٢ ، ص ٤١٤ ضمن ترجمة معاوية .

٢٤) الإمامة والسياسة» ص ٢٨ ، الطبعة الثالثة ، مصر ، سنة ١٣٨٢ه ، مطبعة مصطفى البابي الحلبيّ ؛ وجاء في هذه الطبعة : مَا غَابَ عَلَيّ بالغين المعجمة . أمّا ما جاء في طبعة مطبعة الأُمّة ، درب شغلان ، مصر ، سنة ١٣٢٨ه في ص ٢٦ و ٢٧ ، حيث نقلت فيه هذه القصّة فهو قوله : مَا عَابَ عَلَيّ بالعين المهملة .

٢٥) الإمامة والسياسة» ص ٢٧ .

٢٦) الإصابة» ج ٣ ، ص ٤١٣ ، حرف الميم .

٢٧) قال أُستاذنا العلّامة آية الله الطباطبائيّ رضوان الله عليه في كتاب «الشيعة» حوار مع البروفيسور هنري كوربن ، في بيان المشكلة الأُولى : سقوط الحكومة الإسلاميّة ، ص ٢٧ : ... مضافاً إلى ذلك ، ففي نطاق حكومته ، كان معاوية يحكم في الشام مدّة طويلة على الطريقة الكسرويّة والقيصريّة . وهي حكومة ذات صبغة استبداديّة لا غير . وذريعة معاوية أنّه مضطّر إلى ذلك بسبب مجاورته الإمبراطوريّة الرومانيّة ، وقبل الخليفة عذره ولم يعترضه .

وقال المعلّقون على عبارات العلّامة في ص ٣٢٤ و ٣٢٥ : روى ابن أبي الحديد أنّ عمر عندما ذهب إلى الشام ، لقيه معاوية وعليه ثياب ديباج ، وحوله جماعة من الغلمان ، فدنا منه فقبّل يده . فقال عمر : ما هذا يا بن هند ! وإنّك لعلى هذه الحال مترف صاحب لبوس وتنعّم ؟! وقد بلغني أنّ ذوي الحاجات يقفون ببابك ! فقال معاوية : يا أمير المؤمنين ! نحن نجاور المدن التي يقطنها أعداء الإسلام (يريد الروم) ونحبّ أن يُرَى أثر نعمة الله علينا . وأمّا الحجّاب فإنّا نخاف من البذلة جرأة الرعيّة . فقال عمر : ما سألتك عن شيء إلّا تركتني منه في ضيق ! إن كنت صادقاً ، فإنّه رأي لبيب ، وإلّا فإنّها خدعة أريب !

ونقل ابن حجر في «الإصابة» ج ٣ ؛ وابن الأثير في «أُسد الغابة» كلمات عن عمر في معاوية ، وذلك عند ترجمة معاوية . منها أنّ عمر رأى معاوية ذات يوم فقال : «هذا كسرى العرب» . فعمر كان يرى أنّ حياة معاوية كسرويّة ، وأنّه يتصرّف على عكس ما يريده النبيّ الأكرم ، ومع هذا استحسن رأيه ورجّحه على سيرة النبيّ الأكرم ، وسلّط هذا الجاني المحترف على رقاب الناس ممّا أدّى إلى حرب صفّين وارتكاب جرائم لا تحصى من قبل معاوية ويزيد وملوك بني أُميّة وولاتهم الجائرين . ومن رام الاستزادة فلينظر كتاب «النصائح الكافية» للسيّد محمّد بن عقيل .

٢٨) الإصابة» ج ٣ ، ص ٤١٣ .

٢٩) العقد الفريد» ج ٣ ، ص ٧١ ، الطبعة الأُولى .

٣٠) أنساب الأشراف» ج ٥ ، ص . ١٨ وجاء في الجزء الخاصّ بأمير المؤمنين ، الطبعة الجديدة ، ص ١٠٣ : لَئِنْ وَلّوْهَا الأُجَيْلِحَ ؛ و «الرياض النضرة» ج ٢ ، ص ١٨٢ و ١٨٣ بتخريج النسائيّ .

وذكره الحافظ الكبير عبد الرزّاق بن همّام الصنعانيّ المتوفّى سنة ٢١١ه في كتاب «المُصنّف» ج ٥ ، ص ٤٤٦ و ٤٤٧ ، عن عمرو بن ميمون بهذه العبارة : قال : كنت عند عمر بن الخطّاب حين ولّى السّتّة الأمر فلمّا جازوا أتبعهم بصره ، ثمّ قال : لئن ولّوها الأُجَيْلِحَ لَيَركَبنّ بهم الطريق ــ يريد عليّاً .

٣١) الاستيعاب» ج ٣ ، ص . ١١٥٤

٣٢) الرياض النضرة» ج ٢ ، ص . ١٨٣

٣٣) جاء في «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد ، ج ٢ ، ص ١٢٠ ، طبعة دار إحياء التراث العربيّ ذات أربعة أجزاء : وطلحة هو الذي قال لأبي بكر عند موته : ماذا تقول لربّك وقد ولّيتَ فينا فظّاً غليظاً ؟ وهو القائل له : يا خليفة رسول الله ! إنّا كنّا لا نحتمل شراستَه وأنت حيّ تأخذ على يديه ، فكيف يكون حالنا معه وأنت ميّتٌ وهو الخليفة ؟!

وجاء أيضاً في ج ٢ ، ص ١١٩ و ١٢٠ من الشرح عند حديث ابن أبي الحديد عن أخلاق عمر السيّئة ، إذ نقل شيئاً منها ، فقال : وكان عمر بن الخطّاب إذا غَضِب على واحدٍ من أهلِه لا يسكن غضبه حتّى يَعَضّ يَدَهُ عَضّاً شديداً حتّى يُدميها .

٣٤) سيرة ابن هشام» ج ٤ ، ص ١٠٧١ إلى ١٠٧٣ ، طبعة مطبعة المدنيّ بالقاهرة . وجاء في عبارة «أنساب الأشراف» ج ١ ، ص ٥٨٤ ، طبعة دار المعارف بمصر : فمن بايع رجلاً على غير مشورة فإنّهما أهْلٌ أن يُقتلا . وإنّي أُقسم بالله ليكفّنّ الرّجال أو ليقطعنّ أيديهم وأرجلهم وليصلّبنّ في جذوع النخل . وجاء في صدر الخطبة : قال فيها : إنّ فلاناً وفلاناً قالا : «لو مات عمر ، بايعنا عَلِيّاً فتمّت بَيعته . فإنّما كانت معه إلى أبي بكر فَلَتةً وقى الله شرّها» .

ولعمر خطبة طويلة فصّل فيها ، بعد نقل كلام ذينك الاثنين اللذين قالا : نبايع عليّاً .

٣٥) شرح نهج البلاغة» ج ٢ ، ص ٢٥ ، طبعة دار إحياء الكتب العربيّة ، و ج ١ ، ص ١٢٣ (أربعة أجزاء) طبعة دار إحياء التراث العربيّ . ونقل ابن أبي الحديد هذا الموضوع عن شيخه أبي القاسم البلخيّ ، وهذا نقله عن شيخه أبي عثمان الجاحظ .

٣٦ــ٣٧) «أنساب الأشراف» ج ٥ ، ص . ١٥

٣٨) أنساب الأشراف» ج ٥ ، ص . ١٩ وجاء ما يقرب من هذا المضمون في «العقد الفريد» ج ٣ ، ص . ٧٤

٣٩) كنز العمّال» ج ٣ ، ص . ١٦٠

٤٠) قضاء أمير المؤمنين عليه السلام» للتستريّ ، ص ٢٨١ و ٢٨٢ ، الطبعة العاشرة ، بيروت .

٤١) الآية ١٨٧ ، من السورة ٣ : آل عمران .

٤٢) سِرّ العالمين» ص ٢١ ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ، سنة ١٣٨٥ ه‍ .

٤٣) الآية ٦٩ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

٤٤) الآية ٩٧ ، من السورة ١٦ : النحل .

٤٥) إنّ أفضل دليل على تشيّعه كتابه «سرّ العالمين» . ونقل القاضي نور الله الشوشتريّ في كتابه «مجالس المؤمنين» أنّ الغزّاليّ التقى الشريف المرتضى علم الهدى في طريق الحجّ ، فرجع عن المذهب السنّيّ ، وتشيّع ببركات الشريف ونفحاته الطيّبة . وقال :

دوست بر ما عرض ايمان كرد و رفت

پير گبرى را مسلمان كرد و رفت

[وتعريبه : عرض علينا محبّ ناصح الإيمان وولّى ، وأدخل شيخاً مجوسيّاً في الإسلام وولّى] .

ثمّ قال : كذّب الشهيد الأوّل أبو عبد الله محمّد بن مكّي لقاء الغزّاليّ مع الشريف المرتضى ، واحتمل القاضي أنّ لقاء الغزّاليّ كان مع الشريف المرتضى أبي أحمد نجل الشريف الرضي . ونقل ذلك عن «مجالس المؤمنين» أيضاً «روضات الجنّات» و «طرائق الحقائق» . ولمّا كان الغزّاليّ يعيش بين سنة ٤٥٠ و ٥٠٥ ه‍ ، والشريف المرتضى علم الهدى يعيش بين سنة ٣٥٥ و ٤٣٦ ه‍ فلهذا لا يمكن أن يتحقّق مثل ذلك اللقاء . وبناءً على ما نقل ابن الأثير ، فإنّ أبا أحمد نجل الشريف الرضي صار نقيباًللعلويّين بعد الشريف المرتضى ، وتوفّي سنة ٤٤٩ ه‍ ، أي : قبل ولادة الغزّاليّ بسنة . فهو أيضاً لا يمكن أن يكون قد التقى الغزّاليّ . وقال محمّد علي الكرمانشاهيّ نجل الوحيد البهبهانيّ في كتاب «قوامع الفضل» في جواب من سأله عن الغزّاليّ ، ومناظرته مع الشريف المرتضى في طريق مكّة ، وتشيّعه ، وتأليفه كتاب «سرّ العالمين» : كان لقاء الغزّاليّ مع السيّد مرتضى الرازيّ صاحب كتاب «تبصرة العوامّ» .

واحتمل البعض أنّه التقى السيّد مرتضى العلويّ المقتول سنة ٤٨٠ ه‍ . وهو محمّد بن محمّد بن زيد الحسينيّ الذي قُتِلَ بأمر خاقان ما وراء النهر . (ملخّص ص ٣٢٧ إلى ٣٢٩ من كتاب «غزالى نامه») .

٤٦) المحجّة البيضاء» للفيض الكاشانيّ ، ج ١ ، ص ١ .

٤٧) غزالى نامه» (كتاب الغزّاليّ) ترجمة الإمام أبي حامد محمّد بن محمّد بن أحمد الغزّاليّ الطوسيّ وآثاره وعقائده وأفكاره الأدبيّة والدينيّة والفلسفيّة والعرفانيّة . تأليف الأُستاذ جلال الدين همائي ، ص ٢٧٢ إلى . ٢٧٤

٤٨) ج ١ ، ص ٥٠ ، قال أبو حامد الغزّاليّ في كتاب «سرّ العالمين» : شاهدت قصّة الحسن بن صبّاح ...إلى آخره .

٤٩) ص ٢١٥ : وقال أبو حامد الغزّاليّ في كتاب «سرّ العالمين» ... إلى آخره .

٥٠) ص ٣٦ : وذكر أبو حامد الغزّاليّ في كتاب «سرّ العالمين وكشف ما في الدارين» ... إلى آخره .

٥١) ج ٤ ، ص ٩٨ : ومن كتب الغزّاليّ : ١٠ ــ «سرّ العالمين وكشف ما في الدارين» يبحث في نظام الحكومات ــ نسخة منه خطّيّة في المكتبة الخديويّة ، ونسخة في مكتبة برلين .

٥٢) ج ١ ، ص ١ : إنّ أبا حامد كان حين تصنيف «الإحياء» عامّي المذهب ولم يتشيّع بعد ؛ وإنّما رزقه الله هذه السعادة في أواخر عمره ، كما أظهره في كتابه المسمّى ب «سرّ العالمين» وشهد به ابن الجوزيّ الحنبليّ .

٥٣) ج ٩ ، ص ٢٣٦ ، طبعة كمباني : ولنعم ما قال الغزّاليّ في كتاب «سرّ العالمين» .

٥٤) ج ١ ، ص ٣٩١ ، الهامش : لا شكّ في نسبة الكتاب إلى الغزّاليّ ، فقد نصّ عليه الذهبيّ في «ميزان الاعتدال» في ترجمة الحسن بن صبّاح الإسماعيليّ ، وينقل عنه قصّته ؛ وصرّح بها سبط بن الجوزيّ في «التذكرة» ص ٣٦ وشطراً من الكلام المذكور .

٥٥) الذريعة» ج ١٢ ، ص . ١٦٨ وذكر في هذه الصفحة أيضاً : «سرّ العالمين» كتاب آخر أيضاً في حقيقة الدنيا والعقبى ، للشيخ الفقيه المفسّر نعمة الله بن يحيى الديلميّ تلميذ الشيخ البهائيّ . وقال في «رياض العلماء» : أُخذ اسم هذا الكتاب من «سرّ العالمين» للغزّاليّ .

٥٦) وتعريبه : «إذا وضع المعمار اللبنة الأُولى معوجّة ، فإنّ الجدار سيبقى معوجّاً وإن ارتفع إلى الثريّا» .

٥٧) الإمامة والسياسة» ص . ٢٥

٥٨) وهو ربيعة بن أبي شدّاد الخثعميّ ، كان مع أمير المؤمنين عليه السلام في الجمل وصفّين . وخُثْعَم ــ بضمّ الخاء وسكون الثاء وفتح العين ــ اسم قبيلة .

٥٩) الإمامة والسياسة» ص . ١٢٣

٦٠) مروج الذهب» ج ٢ ، ص ٣٥٠ ، طبعة مطبعة السعادة ، سنة ١٣٦٧ ه .

٦١) غَضَبَ الخَيْلِ عَلَى اللّجُمِ . مثل يضرب عند العرب للشخص الذي يغضب في غير محلّه . وغضب منصوب على المصدر ، أي : غَضِبَ غَضَبَ الخَيْلِ . («مجمع الأمثال» للميدانيّ ، ج ٢ ، ص ٥٦) .

٦٢) مروج الذهب» ج ٢ ، ص . ٣٥١

٦٣) جاء في «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد ، ج ٦ ، ص ١٤٨ : هو مروان بن الحكم بن أبي العبّاس بن أُميّة بن عبد شمس بن عبد مناف . ولد في السنة الثانية من الهجرة . وتوفّي رسول الله وعمره ثمان سنين . نفى رسول الله أباه الحكم إلى الطائف . وقيل : كان مروان طفلاً لا يعقل ، وأنّه لم يَرَ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم . وكان الحكم في الطائف حتّى ولي عثمان ، فردّه عثمان هو وولده إلى المدينة ، وفوّض إليه أُموره ، واستولى مروان الحَدَث على عثمان . والحكم بن أبي العاص هو عمّ عثمان ، كان من مسلمة الفتح ، ومن المؤلّفة قلوبهم . توفّي قبل قتل عثمان بشهور .

٦٤) الإمامة والسياسة» ص ٣٠ و . ٣١

٦٥) الآية ١٨ ، من السورة ١٢ : يوسف . والمراد بالعبد الصالح نبيّ الله يعقوب الذي قال هذا الكلام لبنيه عندما رجعوا من الصحراء وأخبروه أنّ الذئب أكل يوسف .

٦٦) قوله : والله لو وجدته ، حتّى آخر الكلام موجود في «نهج البلاغة» الخطبة . ١٥ وروى الشيخ محمّد عبده هذه الكلمات كلّها في تعليقته عن الكلبيّ مرفوعاً عن أبي صالح ، عن عبد الله بن عبّاس ، وقال : خطب عليّ عليه السلام وقال كذا .

٦٧) أوصى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بصلاة ألف ركعة مستحبّة في ليالي شهر رمضان ، واختلفوا في كيفيّتها ، وأقرب الأقوال فيها كما يبدو ، ثماني ركعات بعد صلاة المغرب ، واثنتا عشرة ركعة بعد صلاة العشاء في العشرة الأُولى والثانية ، واثنتان وعشرون ركعة في العشرة الثالثة ، فيكون المجموع سبعمائة ركعة ؛ وتضاف مائة ركعة في كلّ ليلة من ليالي القدر ، فيصبح المجموع ألف ركعة . وكان رسول الله يقيم هذه الصلوات فرادى حتّى أنّه عندما كان يصلّي في المسجد ويقتدي به الناس من غير علم ، كان ينهاهم عن ذلك . مضافاً إلى هذا أنّه كان يترك الصلوات في الفواصل التي بينها ويذهب إلى بيته تحاشياً من الجماعة . ولمّا كانت هذه الصلوات نوافل فإنّ إقامتها في جماعة حرام . وكانت تقام فرادى في عصر أبي بكر أيضاً إلى أن حانت خلافة عمر فأتى ذات ليلة إلى المسجد في شهر رمضان فوجد الناس يصلّون فرادى ، فلم يرقه ذلك ، وقال : الأفضل لجماعة الناس أن تقام في جماعة . ونصّب إماماً للجماعة ، فسار الناس على سيرته إذ يقيمون هذه الصلاة جماعة إلى يومنا هذا . وهذه الصلاة مشهورة بصلاة التراويح . وهي من بدع عمر المعروفة .

٦٨) روضة الكافي» ص ٥٨ إلى . ٦٣

٦٩) تاريخ الطبريّ» ج ٦ ، ص ١٩٦ إلى ١٩٨ ، طبعة مطبعة الاستقامة ، سنة ١٣٥٨ ه .

٧٠) تاريخ ابن خلدون» ج ٤ ، ص . ٥

٧١) قال ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة» ج ١ ، ص ٣٣٨ : وكان معاوية على أُسّ الدهر مبغضاً لعليّ بن أبي طالب عليه السلام ، شديد الانحراف عنه . وكيف لا يبغضه وقد قتل أخاه حنظلة يوم بدر ، وخاله الوليد بن عتبة ، وشرك عمّه حمزة في قتل جدّه عتبة، أو شركه في قتل عمّه شيبة ، على اختلاف الروايتين .

٧٢) مروج الذهب» ج ٤ ، ص ٤٠ و ٤١ ، طبعة الاستقامة ؛ و ج ٣ ، ص ٤٥٤ و ٤٥٥ طبعة دار الأندلس .

٧٣) بحار الأنوار» ج ١٠ ، ص ١١٢ ، طبعة الكمباني .

٧٤) تحف العقول» ص . ٢٣٩

٧٥) الملل والنحل» للشهرستانيّ ، في هامش كتاب «الفصل» لابن حزم ج ١ ، ص ٢٣٤ ، و ج ٢ ، ص ٢ ، طبعة مصر سنة ١٣١٧ ه .

٧٦) ظهر الإسلام» ج ٤ ، ص ١١٤ و . ١١٥

٧٦) ظهر الإسلام» ج ٤ ، ص ١١٤ و . ١١٥